أبو الكرامات

أبو الكرامات

الإرث الملعون

إسلام سمير عبد الرحمن

تصميم الغلاف: عمرو الحو

رقم الإيداع: 2018/ 23946

I.S.B.N:978- 977-6640-35-1

الطبعة الأولى 2019م

الإدارة: 17 ش عزت باشا المطرية، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر : د. رامي عبد الباقي

شؤون إدارية : رقية عبد الله

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish

جميع الحقوق محفوظة©

إسلام سمير عبد الرحمن

أبو الكرامات

الإرث الملعون

رواية

إهداء

إلى والدي ووالدتي الذين علماني كيف أقرأ قبل أن يعلماني كيف أخط بالقلم على الورق، وإلى زوجتي التي احتملتني وساندتني طيلة وقت كتابتي لهذه الرواية، إلى شقيقي وشقيقتي أول من شجعوني على النشر الورقي وإلى أبنائي "سيف الدين" و"آسر" و"سمير" الذين أتمنى أن يفخروا بما كتبه والدهم.

إلى أصدقائي الأعزاء "إبراهيم السعيد" و"محمد نور" و"عبد العزيز أبو الميرات" و"نونابيلا أيريس" و"تغريد حسونة".

إلي شركاء الكفاح فريق صرخة فزع وإهداء خاص إلى صديقي الأديب المبدع/"عمرو ممدوح" الذي كان أول الناصحين لي أن أحول تلك الفكرة إلى رواية كاملة.

إلى أصدقائي المبدعين

أ.محمد رضا عبدالله، كابتن أحمد إبراهيم، أ.محمد عصمت

إلى روح

د.أحمد خالد توفيق، الذي علمني كيف أقرأ قبل أن يعلمني كيف أكتب

الله الله يا بدوي نظرة يا سيد الله الله

يا أبو فراج بين الأجاويد أنت الجيد الله الله

حمولنا والله كتير الله وأنت بحري كبير

مدد يا بدوي إن شاء الله هو يفدي

. من قصيدة في مديح السيد البدوي

نحن الذي سخر الله الوجود لنا ومن لباس التقى والفضل ألبسنا

أدخل حمانا تنال الخير والمنن من جاءنا ثم وافانا محبتنا

فنحن أوفى لمن وافى نوافيه

. من قصيدة لسيدي إبراهيم الدسوقي

أتينا رحابك سيدي عبد الرحيم فأكرم من أتاكم بالفيض العميم

فإذا قيل زرتم بما عائدين قلنا قد وردنا في أصفى معين

واجمع كل عاشق بالهادي الرحيم فاكرم كل زائر شيخ الصالحين

. من قصيدة في مديح سيدي عبد الرحيم القناوي

هناك من الشرور ما لا يفنى، ولكنه يورث عبر الأجيال، الشر دائما ما نجد له جذورا خبيثة تمتد عبر السنين لتترك بصماتها النجسة واضحة جلية لتجعل من الحياة جحيما بما لا يقاس.

1- قنا

جبل الطارف

1950

مدق صخري وعر تحيط به الجبال يمينا ويسارا وتهب رياح معتدلة الشدة ليصدر عن صخور المدق صوت صفير كئيب، وكأن هناك عازف ناي ما قرر أن يهدي البشرية معزوفة حزينة تبعث على الشجن لتخلده إلى الأبد.

ليلة مظلمة هي وقد حجبت الغيوم ضوء القمر الذي كان يمر بطور المحاق ومن بعيد نلمح ظلين يقتربان، ومع اقترابهما نري ذلك الشاب النحيل الجسد في غير ضعف وهو يتحرك في ثبات وقد أحاطت كفه اليمنى بيد طفل صغير في الخامسة من العمر تقريبا، وحمل بيده اليسرى مصباحا زيتيا يلقى حولهما بدائرة من الضوء الشحيح تساعدهما على السير بدون أن يتعثرا في تلك النتوءات الصخرية التي تتناثر هنا وهناك على طول المدق الغير ممهد، الشاب كان طويل القامة أبيض البشرة، حاد العينين، كثيف الحاجبين، يحيط بوجهه لحية سوداء منسقة وقد بدا على وجهه التوتر وهو يتطلع كل دقيقة إلى الطفل الصغير الذي سار بجواره وقد ارتسمت على شفتيه الصغيرتين ابتسامة وأخذ يترنم بأغنية طفولية الطابع.

هناك تلك المغارة التي يقتربا منها في بطء وقد أحاط بمدخلها مشعلان مغروسان في الرمال يلقيان ضوءا خافتا تختلط به الظلال مثيرة للتوجس في النفوس.

بدا الخوف على ملامح الطفل الوسيمة وهما يقتربان من مدخل المغارة وهو يقول:

- أنا خائف يا عمي "فودة".. أريد أن أعود إلى أمي.

شد الشاب على يده وهو يقول:

- قلت لك إننا سنحضر أكبر كمية من الحلوى ثم سنعود بك إلى أمك.

قالها وعبر مع الطفل مدخل المغارة ليشهق في اشمئزاز عندما تسللت إلي أنفه تلك الرائحة العضوية البشعة.

- ادخل بقدمك اليسرى يا "فودة".

جاءته العبارة بصوت متحشرج مبحوح، فعبر باب المغارة بقدمه اليسرى وعلى ضوء مجموعة من المشاعل موزعة على جدران المغارة رأى ذلك الشيخ المتغضن الوجه جالسا على مقعد مرتفع يشبه العرش وقد اعتمد في جلوسه على عصا طويلة مصنوعة من المعدن.

اقترب منه وأنفه تتقلص استبشاعا لأنه أدرك إنه مصدر تلك الرائحة النتنة، وترك يد الطفل الذي بدا عليه الخوف ومال ليقبل يد الشيخ ويهمس:

- لقد جئت حسب الموعد يا والدي.

- هل تعرف سر تلك الرائحة التي تستنكرها؟

كان يعرف جواب السؤال ولكنه ما زال مترددا في ذلك القرار الذي اتخذه فجذب

إلى رئتيه شهيقا عميقا قبل أن يقول:

- أعرف يا والدي .

مال والده نحوه ليقول:

- كنت أعرف إن ذلك سيحدث يا بني، منذ اتفاقي معهم وأنا أعرف أنني سأتعفن حيا عندما يحين الحين لأمرر العهد إليك كما اتفقت معهم منذ أربعين عاما.

واعتمد على العصا ليهبط من مقعده ويسير نحو ابنه بملابسه القذرة الملتصقة بجسده، ومع هبوطه تصاعدت رائحة خبيثة وسالت سوائل بنية لزجه من ملابسه لتتساقط على الأرض، وأدرك ابنه أنه بدأ في مرحلة التحلل العضوي بالفعل فالجلد كان قد تسلخ تقريبا عن ذراعيه بالكامل وقد بدأت الديدان تسعى بين جلد صدره المتغضن وبين جلبابه الذي سال منه القيح والصديد، ووضع كفا ذات أظافر سوداء طويلة على كتف ابنه ليقول:

- هل أنت مستعد لتستقبل العهد يا بني؟

سأله ثم رفع كفه نحو فمه ليمنعه من الحديث ويقول:

- قبل أن تجيب يجب أن تعرف تبعات إجابتك، أعرف إننا درسنا الأمر من كل جوانبه من قبل ولكن يجب أن أذكرك بالتفاصيل مرة أخيرة.

وأشار إلى الطفل ليقول:

- إنه "عوض" ابن "بهانة" بائعة الفطير، لماذا وقع اختيارك عليه؟

عقد "فودة" حاجبيه الكثيفين وقال:

- إنه في الخامسة من العمر وهي سن مناسبة ووالدته كانت غافلة عنه.

- ستحوز قوة مهولة وثروة هائلة وسيهابك الجميع ويحاولون التقرب إليك بكل السبل، ستنال كل من يشتهيه قلبك من النساء، ستصير نظراتك كالقدر وستأمر لتطاع.

كان "فودة" يستمع إلى والده وقد برقت عيناه وارتسمت ابتسامة جذلة علي شفتيه ليقول:

- أنا مستعد لدفع الثمن بالكامل.

نظر والده إلي عينيه ليقول:

- بعد طقوس تمرير العهد ستقيم هنا لمدة أربعين يوما وليلة لن تتناول فيها سوى الخبز الجاف والتمر، وفي تلك الخلوة لن تستحم ولن تغتسل بماء طهور ولكنك ستستحم ببولك وبرازك، هل ستحتمل؟

كانت فكرة السلطة المطلقة قد سيطرت على عقله فقال في سرعة:

- لقد سبق لك أن مررت بتلك الطقوس، وأنا من صلب الشيخ "الديناري" وسأحتمل.

قال عبارته ومال نحو والده ليقول في خفوت:

ولكن نقل العهد هذا يتطلب أن..

قاطعه والده رافعا يده المخلبية ليقول:

- أنا الآن في التسعين من العمر يا بني وهكذا كان الاتفاق، لقد ذقت كل متع وشهوات الدنيا وحان وقت سداد الدين ونقل العهد يا بني، والليلة هي الليلة المختارة، آخر ليلة لطور المحاق في عقب إتمامي للتسعين من العمر.

تحرك "فودة" نحو الطفل ليقول وهو يخرج له قالبا كبيرا من الحلوى:

- ستأكل الحلوى وسنلعب معا لعبة جميلة ثم سأعود بك إلى والدتك.

جلس الطفل يتناول الحلوى في سعادة، في حين تحرك "فودة" نحو قفص خشبي ليخرج منه أرنبا أسودا وأعطاه والده إناءا فضيا ملوثا بالفضلات وقد تم رسم عدد من الرموز والطلاسم المتداخلة داخله، وأخرج سكينا فضية وسكب عليها محتويات إناء فخاري ليلوثها بالدماء وقال:

- دم حيض ليكتمل شرط النجاسة التامة.

تناول السكين النجس من والده ونحر الأرنب واستقبل دمه في الإناء الفضي.

وتحرك نحو مساحة فارغة من أرضية المغارة وبدأ يرسم دائرة كاملة الاستدارة باستخدام أداة بدائية تشبه الفرجار، ثم بدأ ينحت بمطرقة وأزميل محيط الدائرة في الصخر ليصنع مجرى بعمق عشرة سنتيمترات تقريبا.

وبدأ يسكب دم الأرنب داخل المجرى ويوزع الدم بالتساوي علي كامل محيط الدائرة، وهنا تحرك "الديناري" بخطواته البطيئة وقامته المنحنية وتناول لفافة جلدية مطوية فضها وسلمها لابنه ليقول:

- ستكتب تلك الطلاسم داخل الدائرة بدم الحيض.

قام الابن بنقش الطلاسم التي تمرس على كتابتها طويلا وأشعل شمعتين سوداوتين وثبتهما علي قطر تخيلي للدائرة قبل أن يشعل "الديناري" جفنة مليئة بالبخور ووضعها داخل محيط الدائرة، ويعبر المجرى الدائري ويجلس القرفصاء في مركزها ليقول بصوت جهوري:

-"هموش مد قهر قشوش طهيش قنش مهر صيعي هول يا كليم يا متكلم يا هيت يا ليت انو منه نهي منه هيا يا ابا نوخ انوخ بنوخ بندخ توكل يا رماح وأنت يا صباح اجب يا شمعون أنت وخد أمك يا ميمون الطيار بحق النار والنور والظل والحرور اجب يا شمعون وأنت يا زيتون وأنت يا ميمون وافعلوا ما أمرتكم به."

قالها والتفت إلى ابنه الذي رفع رأسه ونظر إلى سقف المغارة ليصيح:

- "خوطير خوطير قلنهود قلنهود برشان برشان كظهير كظهير نموشلخ نموشلخ برهيولا برهيولا بشكليخ بشكليخ قزمز قزمز انغلليط انغلليط قبرات قبرات غياها غياها كيدهولا كيدهولا شمخاهر شمخاهر شمخاهير شمخاهير شمهاهير شمهاهير بكهطونية بكهطونية بشاريش بشاريش طونش طونش طوياش طوياش بلطشغويل بلطشغويل ابويل ابويل شمخاهر شمخاهر باروخ باروخ بشيم بشيم."

وهنا أشار الأب نحو الطفل، فتحرك الابن نحوه في تردد، ليهتف الأب:

- "فودة".. نحن في قلب بحر من نار حرفيا، لو شعروا بترددك سنحترق معا.

أمسك بكف الطفل ليقول في ثبات:

- سنلعب معا الآن لعبة "الغميضة" يا "عوض" وبعدها سنرجع بك إلى أمك.

وأخرج عصابة سوداء ليحيط بها عيني الطفل الذي قال ضاحكا:

- سأجدك سريعا يا عمي "فودة"

قاده نحو محيط الدائرة ووالده يراقبه بعينين ميتتين وهو يقول لـ "عوض" لنضمن إنك لن تراني ستنام على الأرض وتقوم بالعد حتى رقم عشرة.

وساعده على الرقود والطفل يقول:

واحد

اثنين

ثلاثة

أربعة

ومرر "فودة" نصل السكينة الحاد ليشق عنق الطفل من الأذن إلى الأذن ليغرغر الطفل ودمه يسيل في المجرى الدائري ليختلط بدم الأرنب المتجلط و"فودة" يصيح:

- "هورين هورين هورش هورش ياروخ أبراخ وبحق أشمخ شماخ العالي على كل برخ وبحق طشطيش يانطيطيوين يانطيطوه وبحق شلشليش."

قالها وبدا يستشعر ارتفاعا في درجة حرارة المكان وهبت عليهما رائحة خانقة كريهة هي خليط من الكبريت والبيض الفاسد، قبل أن يهمس "الديناري":

- لقد حانت اللحظة يا بني، أريدك أن تستمتع بحياتك بقدر استطاعتك لأن جنة من هم على شاكلتنا هنا على الأرض.

رمقه "فودة" بدون انفعالات فقد قضى نحره للطفل البريء على كل ما تبقى من مشاعره و"الديناري" يقول:

- بحق ما بيننا من مواثيق وعهود وبحق طاعتي لكم لنصف قرن أو يزيد أطالبكم بنقل العهد والميثاق والخدمة كاملة إلى ابني "فودة بن الديناري".

ابتسم وابنه يقول:

- بحق ما بيننا من مواثيق وعهود وبحق طاعة والدي لكم لنصف قرن أو يزيد أطالبكم بنقل العهد والميثاق والخدمة كاملة منه إلى أنا "فودة بن الديناري".

وهنا لمحوا ذلك التجسد يحدث بعيدا عن محيط الدائرة التي يجلس "الديناري" داخلها، "فودة" كان قد بدأ رحلته كمساعد لوالده منذ نعومة أظفاره وقد شب على كل أنواع الأعاجيب التي يتقنها "الديناري" ولكنها المرة الأولى التي يري فيها التجسد بهذا القرب.

كان شيئا مهول الحجم يملأ الفراغ ما بين سقف المغارة وأرضها بدا لأول وهلة كقرد مشعر عملاق قبيح الشكل يرتدي مئزرا صغيرا يستر به عورته قبل أن يخيل لهم إنه ذئب مارد.

وهنا صرخ "الديناري" في ألم عظيم وظهره ينحني إلى الخلف في قوة جعلت "فودة" يسمع بوضوح صوت عظام عموده الفقري وهي تتحطم قبل أن يفتح فمه بأقصى اتساعه، لتعبر من خلاله أفعى قبيحة الشكل اتجهت نحو "فودة" الذي كان يعرف إنه يجب أن يستسلم لها فأغلق عينيه وفتح فمه

والده يواصل الصراخ والغرغرة.

الأفعى القبيحة اللزجة تخرج ببطء شديد من فم "الديناري" وتتجه نحو فم "فودة" الذي شعر بها تعبر فمه ليشهق وهي تتغلغل بهدوء شديد داخل جسده وخيل له أنها تذوب لتندمج بكيانه كله.

وعندما غابت بالكامل داخله، نهض ليقف على قدميه متأملا جثة والده التي تقوست في مشهد عجيب وقد جحظت عيناه وتدفقت الدماء غزيرة من فمه المفتوح بأقصى اتساعه.

وهنا شاهد ذلك التجسد يتحول إلي صورة كلب قبيح اقترب منه وسمع ذلك الصوت الرنان يقول:

ستقضي هنا أربعين يوما وليلة وستردد القسم والعهد عشرة آلاف مرة في الليلة الواحدة وبعدها ستظهر "بصقة الشيطان" على جلد بطنك على هيئة شامة سوداء ومعها سنسخر لك مائة من الخدم سيكونون لك من الطائعين لستين عاما فقط قبل أن تدفع الثمن.

قالها ليختفي التجسد ويتطلع "فودة" إلى الجثتين أمامه بثبات من يشعر أنه في بداية الطريق نحو القوة المطلقة.

***

للمجتمعات النائية المغلقة قوانين عرفية غير مكتوبة، هناك عادات وتقاليد وقيم متعارف عليها عليك أن تحترمها ولا تحاول أن تقترب من حدودها حتى تستطيع أن تواصل حياتك في سلام.

2 - محافظة قنا

مركز نجع حمادي

الرحمانية قبلي

قرية بطن الجبل

5 أكتوبر 1965

يتذكر كل سكان قرية "بطن الجبل" تلك الأمسية التي زحف ليلها سريعا كعادة ليالي الشتاء، لتغرق شوارع القرية في ظلام مسطح نقي لم تنجح أعمدة الإنارة المتخاذلة في دفع جزء من ثقله عن صدور الجموع التي خرجت من منازلها بالآلاف، الجموع كانت تتحرك في بطء شديد وقد حمل البعض مصابيح زيتيه أضافت المزيد من الظلال على المشهد المتجهم، للجموع تأثير مدوخ لمن يراقبها عن بعد، كانوا يتحركون مرتدين جلابيبهم المتفاوتة الألوان والخامات وقد أعطت العمائم لرؤوسهم حجما يماثل ضعف حجمها الطبيعي مما أعطاهم سمتا مهيبا فبدوا ككائنات أسطورية تتحرك تحت ستار الظلام وقبس من ضوء النجوم الشحيح الذي عجز عن عبور تلك الغيمة التي سيطرت على السماء لتضيف مزيدا من الكآبة إلى المشهد، يتقدم الرجال المسيرة رافعين مصابيحهم ومشاعلهم التي تطايرت شعلاتها مع الهواء الذي هب في أنسام رقيقة قادما من جهة النيل، في حين اكتفت النساء بالسير في ذيل الموكب متشحات بالسواد وقد تصاعد من وسطهن صوت بكاء ونحيب مكتوم.

وعند بوابة المبنى الرمادي متساقط الطلاء الذي ثبتت على واجهته لافتة مضيئة تحمل اسم "مستشفى بطن الجبل العام" كانت سيارة الإسعاف تقف محاطة بسيارتي شرطة من طراز "بوكس فورد"، ومع اقتراب الموكب من السيارات هبط مجموعة من الجنود من صندوقي السيارتين ليصنعوا حاجزا ممتدا حال بين الموكب وبين السيارات وقد أشهروا بنادقهم الآلية في وجوه القادمين.

هبط من كابينة أحد السيارتين ضابط برتبة لواء يرتدي منظارا شمسيا عقد ساعديه أمام صدره ليصيح في غضب:

- هل تعتقدون أنكم ستجبروننا على تنفيذ ما في رؤوسكم؟ أين رؤوس العائلات؟

صدرت العديد من الهمهمات من وسط الجموع ميز اللواء منها عبارة واحدة رددها العشرات:

- "لن يرحل من هنا.. لن تغادر السيارة بطن الجبل"

خرج من وسط الجموع رجلان على قدر عال من المهابة والوجاهة بعباءاتهم الفاخرة وعمائمهم البيضاء الناصعة، صافحهم اللواء واقترب منهم ضابط برتبة نقيب وهو يشير إليهم ليقول:

- الشيخ "رضوان التهامي" والشيخ "حسن النجومي" كبار عائلات "بطن الجبل".

رحب بهم اللواء ليطرق نافذة كابينة أحد السيارتين ويقول:

- تفضل بالهبوط يا سيد "ركن الدين".

هبط من السيارة شاب في العشرينيات يرتدي حلة سوداء أنيقة ورابطة عنق سوداء، وقد بدت على ملامحه السمراء الوسيمة سمات الحزن الشديد ودلت عيناه الحمراواتان علي إنه لم يتوقف عن البكاء منذ ساعات وبدا عليه عدم الفهم وهو ينظر إلى الآلاف الذين يحيطون بهم من كل

جانب، فربت اللواء على كتفه في تعاطف وتأمل الخوف الممزوج بالقلق في عينيه ليشير إلى مبنى المستشفى قائلا:

- سنجلس جميعا في استراحة المستشفى وسنصل إلى حل بإذن الله.

دخلوا إلى المستشفي واتجهوا إلى قاعة انتظار المرضى ليجدوا عددا من المقاعد المعدنية غير المريحة وانسحب طبيب الاستقبال بمجرد أن رآهم يدخلون إلى المستشفى فجأة، ومع جلوسهم في شبه دائرة جاءت عاملة بدينة بأكواب الشاي الأسود التي قام اللواء بتوزيعها على الجالسين، وضع الشيخ "رضوان" كوب الشاي بعد أن رشف منه رشفة واحدة، ونهض بقامته المديدة وجسده الذي يميل إلى الامتلاء في غير بدانة ليتجه نحو الشاب ليمسك بيده ويجذبه في رفق ليقف على قدميه، قبل أن يحيط جانبي وجهه بكفيه النحيلتين ليقول في صوت متهدج:

- مصابنا جليل يا ولدي، والدك كان والدنا جميعا.

قطع عبارته وتهدج صوته وهو يواصل:

- لن يمكنك أن تتصور مقدار ما نشعر به من..

قطع عبارته ثانية ليحتضن الشاب الذي فقد تماسكه وانفجرا في البكاء.

نهض الشيخ "حسن" بقامته المتوسطة الطول ولحيته المنمقة التي أحاطت بوجهه لتعطيه سمتا من الطيبة الممزوجة بالوقار واتجه مع اللواء إلى حيث وقف الشاب مع الشيخ "رضوان" ليربتا علي كتفيهما ويساعداهما على التماسك والشيخ "حسن" يقول:

- كان سيد الناس جميعهم، أياديه البيضاء كانت تغمر الجميع، أنفق على عشرات الأسر التي فقدت عائلها، وهو الذي بني وجدد المسجد الكبير والمدرسة الثانوية والمستشفى.

هز اللواء رأسه في أسف وجفف دمعة خانته ليقول:

- الشهيد العميد "علوان" كان حالة فريدة لم تمر بنا في وزارة الداخلية من قبل، كان القائد الماهر الهمام لكل قوات الشرطة التي قادها، حتى عندما أصبح مأمورا لقسم "بطن الجبل" كان يقود كل الضبطيات والحملات بنفسه، هذا غير ثروته التي أنفق أغلبها على فقراء القرية والأوقاف التي أوقف أموالها على مصالح الفقراء والمحتاجين مما جعلنا نواجه ما نواجهه لأول مرة في تاريخ الوزارة.

قلب الابن كفيه في حيرة ليقول:

- وما علاقة ما تحكونه عن والدي بمنعكم لنا من الخروج بجثمانه من القرية للذهاب به إلى مدافننا في "القاهرة"؟

بدا من النظرات التي تبادلها اللواء مع الشيخين إنهم يتفهمون موقفه ولكن المشكلة تتلخص في شرح الأمر له، فنظر إليهم في تساؤل قبل أن يميل نحوه الشيخ "رضوان" ليقول:

- جد والدنا الشهيد "علوان" له أصول صعيدية من جهة الأم، وقد قضى الشهيد ما يقرب من العشرين عاما كضابط في "قنا" يتنقل بين عدة أقسام قبل أن يتولى رئاسة قسم "بطن الجبل"، وكما قلنا لك كل أهل القرية يعتبرونه أبا لهم.

صمت ليتيح الفرصة للشيخ "حسن" الذي نهض من مقعده واتجه نحو النافذة ليشاهد الجموع التي استقرت في دائرة كاملة حول المستشفى ودار ليواجه الابن ليقول:

- "بطن الجبل" كانت مستباحة للمجرمين والمطاريد الذين كانوا يهبطون من الجبال لينهبوا ويقتلوا ويفرضوا الإتاوات حتى قرر العميد "علوان" مواجهتم وقاد الحملات بنفسه للقضاء على شرهم، لقد أصيب خمس مرات في مواجهاته مع العناصر الخارجة عن القانون واستشهد في مواجهته الأخيرة ولهذا كل أهل القرية يتوسلون إليك بصفتك عميد عائلته من بعده وابنه الذكر الوحيد أن تتركه ليدفن هنا.

خفض "ركن الدين" عينيه أرضا وصمت لدقائق قبل أن ينهض ويهز رأسه ويقول وقد حسم أمره:

- يجب أن يكون والدي بجوارنا في "القاهرة"، ما تطلبوه مني غير مقبول تماما، يجب أن أعود بجثمان والدي إلى "القاهرة".

نهض الشيخان واتجها نحو الباب قبل أن يلتفت الشيخ "حسن" إلى الخلف ليقول في عصبية:

- لن يسمحوا لكم بالخروج به من القرية.

نهض "ركن الدين" وقال في غضب:

- إنه يهددنا يا سيادة اللواء.

واتجه نحو الباب وهو يلوح بكفه:

- يجب أن تجبروهم على التراجع، أطلب من الجنود تفريقهم بإطلاق الأعيرة النارية للتهديد.

وجلس في سيارة الشرطة، فهز اللواء كتفيه في استسلام وصاح في الجموع:

- شهيدنا يجب أن يدفن في "القاهرة" بناء على رغبة ابنه، أفسحوا الطريق.

قالها وانتظر منهم أن يخضعوا لرغبته ولكنه فوجئ بجلوسهم جميعا في أماكنهم وبدأوا يرددون في خفوت:

- سيدنا.. سيدنا.. سيدنا

شعر اللواء بالغضب لعدم طاعتهم الأوامر فصاح في الجنود الذين وقفوا في صف يحولون بينهم وبين الجموع:

- أطلقوا الأعيرة النارية في الهواء

رفع الجنود بنادقهم العتيقة وأطلقوا عدة طلقات في الهواء تردد صداها كالرعد وملأت الهواء برائحة البارود.

نظر اللواء إلى الجالسين وقد ملأوا الأفق بالكامل ليصيح:

- العميد "علوان" رحمه الله علمكم أن تنصتوا لصوت القانون، تفرقوا وإلا أطلقت عليكم الرصاص الحي.. ورفع مسدسه نحوهم ليصرخ:

- قلت لكم تفرقوا.

تصاعد صوتهم في نغمة تتعالى رويدا رويدا بدون أن يتحركوا من أماكنهم

- سيدنا.. سيدناااا.. سيدناااااااااا

وتجمد الموقف تماما..

"ركن الدين" كان عاجزا عن فهم ما يحدث حوله، التصميم في عيون الرجال وبكاء السيدات ورائحة البارود مختلطة مع طنين في طبلتي أذنيه نتج عن صوت الرصاصات التي أطلقها الجنود، اللواء يلوح بمسدسه في وجوههم الصماء وقد آثر كبار العائلات الاختلاط بالجموع بعد أن فشلت المفاوضات.

كان الكل على يقين بأن اللواء لن يجرؤ على إطلاق الرصاص على صدور الأهالي.. التوتر يزداد والهتاف يتردد حزينا:

- سيدنا.. سيدنا

وفجأة صدر أزيز جهاز اللاسلكي مع صوت يختلط بتشويش قوي:

- القيادة من "القاهرة" تتحدث، سيادة اللواء "فرجاني" هل تسمعني؟

تناول جهاز اللاسلكي من نافذة السيارة ورفعه نحو فمه ليقول:

- أسمعك بوضوح.

كان لديه إحساس داخلى أن الحل سيأتي عبر موجات الراديو ولهذا نظر إلي عيني "ركن الدين" الحائرتين، والصوت يتردد واضحا:

- ما يحدث عندك ليس له إلا حل واحد، ستنتظر حتى نرسل لك قوة ضخمة من قوات مكافحة الشغب وستصلك صباح الغد في تمام السادسة.

رأي الذهول يرتسم على وجه الفتى وهو يهمس في رهبة:

- لهذه الدرجة.. ستحدث مذبحة بدون أدنى شك.

رأي اللواء نظرة استسلام في عينيه، عرف معناها بخبرته فقال في الجهاز:

- أطلب من القيادة مهلة نصف ساعة قبل أن يصدروا الأمر بتحرك القوات.

اتجهت يد الشاب إلى مقبض الباب المجاور له وبدا على ملامحه أنه يخوض صراعا داخليا مريرا، قبل أن يفتح الباب ويهبط ليزيح جنديين ويفتح لنفسه ثغرة ويتجه نحو الأهالي.

وقف لدقيقة صامتا يتأمل وجوههم الصلبة وقد بدا الحزن جليا وصادقا في عيونهم التي تجمدت فيها الدموع قبل أن يقول في صوت مرتجف:

- أين الشيخ "رضوان التهامي"؟

نهض الشيخ من مجلسه وشق الصفوف نحوه وقد تهدل كتفاه فبدا أكبر سنا وبدا على ملامحه قلق وخوف لم يستطع أن يخفيهما.

وضع الفتى كفه على كتف الشيخ ليقول في خفوت:

- وأين ستدفنوه إذا وافقت على مطلبكم؟

ارتسمت ابتسامة فيها فرحة الكون كله علي شفتيه وارتجف صوته وهو يقول في مهابة:

- البناءون كادوا أن ينتهوا من بناء مقبرة خاصة جرانيتية الجوانب مزينة بالرخام المستورد في مبني ملحق بالمسجد الكبير الذي قام بتجديده، سندفنه أفضل دفنة وسيسير الآلاف في جنازته فهو كان سيدنا وتاج رؤوسنا جميعا وسيظل كذلك.

نقل الشاب بصره بين عيون الجموع وطفرت دموعه قبل أن يقول في صوت مختنق:

- سأفتقده للغاية... لا أعرف كيف س.... ارتج عليه القول لينفجر في البكاء فأحاطه الشيخ بذراعيه وضمه إلى صدره ضمة قوية وهو يهمس في أذنه:

- جميلك وحسن صنيعك وقرارك الحكيم سيجعلنا جميعا مدينين لك طيلة العمر.

رفع الشاب عينيه نحو الجموع ليقول:

- سأزوره كثيرا، سيكون أمانة بين أيديكم ولن يغادر "بطن الجبل".

صاح الرجال جميعا صيحة فرح واحدة جلجلت في الفضاء واندفعوا نحو الشاب ليفسح لهم الجنود الطريق وهم يحيطون به ويقبلون يديه آلاف القبل وهتافهم يتصاعد:

- سيدنا.. سيدناااا.. سيدناااااا

***

نرتدي طيلة حياتنا على الأرض مجموعة متنوعة من الأقنعة، ويجب أن نميز جيدا تلك اللحظة الفارقة التي تحتم علينا أن ننزع قناعا قبل أن نرتدي الآخر، فلن نستطيع أن نتحرك ونحن نرتدي قناعين في نفس الوقت.

3 - القاهرة

حلوان

19 أغسطس 2005

شرائط بلاستيكية صفراء تمتد بين أعمدة معدنية وحواجز حكومية المظهر تحيط بمربع كامل من المباني القديمة وتقطع عددا من الشوارع أمام حركة السيارات والمشاة، وهناك سيارة إسعاف فاخرة المظهر تقف عن بعد محاطة بعدد من سيارات الشرطة والتدخل السريع، وسيارة سوداء تحمل ما يشبه الطبق المعدني الضخم الذي يدور حول نفسه باستمرار، عشرة من رجال العمليات الخاصة المقنعين يقفون بأزياء واقية سوداء حديثة يحملون مدافع رشاشة قصيرة مستعدين للتدخل في أي وقت.

يتحرك جندي نحيل ذو ملامح ريفية يحمل صفحة يعلوها فنجان من القهوة وكوبا مملوءا بالماء المثلج الذي تكاثف بخاره على جدار الكوب الخارجي، ويقترب من إحدى السيارات التي تحمل شعار "قوات التدخل السريع" ليطرق الزجاج الداكن ويقول:

- القهوة يا "أمجد" باشا.

فتح باب السيارة شاب طويل القامة، متين البنيان، حليق شعر الرأس تماما نامي اللحية مما يدل على أنه لم يحلقها منذ عدة أسابيع، وتأمل ملامح الجندي بعينيه البنيتين الحادتين اللتين تتوسط وجهه المربع القوي القسمات والذي يجلس مرتديا زي القتال بالكامل بتلك الدروع التي يحيط

بها صدره وركبتيه ومرفقيه، شعر الجندي بالارتباك من نظرة الضابط الحادة التي شعر بها تنقب عميقا داخل مخه والضابط يقول في لهجة متراخية:

- يجب أن تمر على مستشفي الشرطة، اذهب إلى د/ "موافي" واخبره أن يحولك إلى معمل التحاليل لتحديد نسبة "الهيموجلوبين" في دمك يا "بسيوني"، أنت شاحب الوجه تماما يا رجل.

وتناول كوب الماء ليجرعه بالكامل ثم أشعل سيجارة ليلتهم ربعها وهو يمتص دخانها في نهم.

فهتف "بسيوني":

- القهوة السادة قبل الإفطار ستحرق جوفك يا باشا.

ربت "أمجد" على كتفه وأخذ يرشف من فنجان القهوة وهو يتطلع إلى الخيمة الميدانية التي يعرف أن القادة يجتمعون داخلها.

خيمة بلاستيكية منصوبة في موقع يتوسط ما بين الحاجز وتجمع المباني المهجورة، ذلك التجمع الذي تتحصن بداخله خلية إرهابية اشتبكت القوات معها منذ يومين وعادت بخسائر في الأرواح، أجازته لم تنته بعد وكان قد قرر أن يمدها مرة أخرى ولكنه فوجئ باتصال من رئيسه المباشر يطلب منه قطع أجازته والحضور فورا، تطلع إلى الأفق حيث بدأت الشمس رحلتها نحو المغيب لتصبغ المرئيات بهالة حمراء أثارت توتره فأشعل سيجارة أخرى وهو يشعر بأمعائه تتقلص مع سريان القهوة بها كما حذره "بسيوني".

- نقيب "أمجد" تعالى فورا إلى خيمة القيادة.

جاءه الأمر بصوت رئيسه المباشر المقدم "شريف" فزفر في قوة وهو يقول بصوت عصبي:

- علم وجاري التنفيذ.

قالها وعقد حزام سلاحه حول خصره وتناول زجاجة مياه معدنية من المقعد المجاور ليسكبها بالكامل على رأسه وهو يهزها في قوة ليعيد تدفق الدماء إلى ذهنه المكدود.

وسار في خطوات سريعة إلى مدخل الخيمة ليعتدل الجندي الذي يقف علي بابها ويؤدي له التحية فبادله إياها ودخل ليؤدي التحية العسكرية لعدد من الضباط الذين يحملون عددا كبيرا من النجوم والنسور والسيوف المتقاطعة على أكتافهم ويقف معهم حول مائدة تحمل نموذجا مصغرا يمثل المنطقة ومجمع المباني الذي يحاصرونه وضابط برتبة عميد يرتدي منظارا طبيا يتحدث وهو يشير بمؤشر معدني إلى مجمع المباني:

- المجموعة تتحصن بهذا المبني والإخبارية التي وصلت تقول إن ثلاثة منهم من أخطر المطلوبين أمنيا وهم يختبئون منذ أسبوعين تقريبا في مجمع مباني (بدر) المهجور، ذلك المجمع الذي لم يستطع مالكه مد خطوط الكهرباء والماء له لخلافات مع المحافظة.

قال عبارته وأشار إلى ضابط برتبة مقدم ليقول:

- المقدم "شريف" قاد فرقة محدودة للهجوم الخاطف ولكنهم كانوا مستعدين وأطلقوا الرصاص بكثافة ليستشهد رقيبي شرطة ويصاب ضابطين، مما جعل من الموضوع أولوية قصوى لدي القيادة.

وصمت ليدور بعينيه في وجوههم ويقول في صرامة:

- سينتهي الموضوع اليوم مهما يكن الثمن.. هل تسمعون؟

تبادلوا النظرات وتقدم المقدم "شريف"ليقول:

- لدي حل قد يضع حدا للمزيد من إراقة الدماء.

دارت عيونهم لتستقر على وجهه المثلث الذي أعطاه سمت الثعلب المتحفز للهجوم دائما، كان يمتلك جبينا عريضا ينتهي بحاجبين مشعثين قد ضم ما بينهما في تقطيبة بدت جزءا من شخصيته وأشار لـ "أمجد" الذي دخل لتوه ليقول:

- النقيب "أمجد ركن الدين" تلقى دورة مكثفة في "إنجلترا" لاقتحام وتطهير الأوكار الإرهابية وأنا أرى أن نترك له الفرصة للتحرك أولا.

انتقلت كل الأنظار لتلتقي على وجه "أمجد" الذي نظر إليهم وبدا عليه التردد والضيق.

تأمل اللواء ملامحه السمراء الوسيمة وشعره الحليق بالكامل مما أعطاه سمتا صارما وكأنه جندي عاد لتوه من جبهة القتال، وعندما لمح التردد في عينيه السوداوتين الواسعتين قال:

- هل يمكنك أن تتحرك بمفردك لتؤمن لنا الطريق قبل أن نتحرك كما يقول رئيسك المباشر؟

نظر "أمجد" إلى رئيسه المقدم "شريف" نظرة بدت مليئة باللوم والعتاب فتجاهل نظرته وأشاح بوجهه، فنقل اللواء بصره بينهما قبل أن يومئ المقدم برأسه تجاه "أمجد" الذي شد قامته وهو يقول في ثبات:

- امنحني نصف ساعة فقط سيدي وبعدها ابدأوا الاقتحام سواء عدت أم لا.

ربت اللواء كتفه وتأمل بنيته المتينة وعضلاته البارزة وقال:

- سننتظر يا بني، ولكن لا داع للتهور.. احرص على سلامتك.

تحرك "أمجد" إلى خارج الخيمة واتجه نحو سيارة القوة المصاحبة ليبدأ في ارتداء قناعه الأسود الذي أخفى وجهه بالكامل، قبل أن يثبت خوذته المزودة بمنظار متطور للرؤية الليلية وثبت مسدسين على جانبي نطاقه مع عدد من خزانات الرصاص الإضافية، وفحص مدفعه الآلي القصير وبندقية مزودة بمنظار ضخم. ليجد المقدم "شريف" أمامه فأشاح بوجهه ليمسك بذراعه ويقول:

- يجب أن تخوض تلك المهمة لتستعيد توازنك، لقد قضيت ما يزيد على الشهر بعيدا عن الصفوف.

كان يعرف طبيعته المتمردة فربت على كتفه ليقول:

- لقد قدرنا جميعا مصابك الجلل ولكن بقاءك بمفردك يقتلك بالبطيء يا "أمجد" فأنا أعرفك وأعرف إنك حرقت خلال هذا الشهر طنا من التبغ وشربت عشرات الجالونات من القهوة، لن أتركك تنتحر.

منظار الرؤية الليلية حال بينه وبين أن يرى أثر عباراته على ملامح "أمجد" الذي

هز رأسه ليقول في خفوت:

- لست مستعدا يا سيدي فأنت تعرف الظروف التي....

قطع "شريف" عبارته ليقول:

- الحياة لم تنته بعد أيها النقيب، يجب أن تكون أقوى من ظروفك كلها، أنت ضابط من نخبة القوات الخاصة.

ضغط زرا ليصدر أزيز مصاحب لعمل جهاز الرؤية الليلية ويؤدي التحية العسكرية فأدرك "شريف" أنه يريد إنهاء الحديث، فأشار له ليبتعد في اتجاه المجمع السكني.

بدأ في صعود سلم أقرب البنايات إليه، ووصل حتى سطحها فزحف مقتربا من حافة السطح الذي كان بلا أسوار، مسح المنطقة التي خيم عليها الظلام الدامس بمنظاره الذي كفل له رؤية خضراء واضحة للمرئيات من حوله، المجمع السكني يتكون من عشرين بناية تقريبا متساوية الارتفاع يتكون كل منها من عشرة طوابق، بدأ يدير زرا بارزا في منظاره الضخم ليعمل على تقريب المشاهد، ويلتقط صورا رقمية دقيقة للمباني والنوافذ لينقلها لاسلكيا إلى مقر إدارة العملية في خيمة القادة.

وصوت "هناء" يتردد في أذنيه

- "أمجد".. أريد أن أتحدث معك قليلا.

كان يقف وقتها في الشرفة والكآبة والكدر يسكنان قلبه ويستعمران كيانه والسيجارة الإنجليزية الصنع الكريهة المذاق تسري كالسم في رئتيه، الأفق محمل بغيوم كثيفة رمادية داكنة ولمسة هواء بارد محببة للنفس تداعب وجهه، لم يلتفت إليها لأنه كان مشغولا بمراقبة سرب من طيور رمادية تحلق في تشكيل يشبه رأس السهم بنظام مدهش، لم يلتفت إليها لأنه كان يعرف الجملة التالية ويحاول تفاديها بقدر المستطاع.

هتفت في عصبية:

- من فضلك يا "أمجد".

دفن السيجارة وهي مازالت حية في مطفأة بلورية مستقرة على سور الشرفة والتفت إليها بعينين مفعمتين بالتوتر وقال في هدوء:

- غدا يا "هناء".. أعدك أننا سنتحدث لمدة طويلة للغاية وسأجلس أمامك وأشرح لك من جديد أن حبي لك أكبر من كل شيء.

رأى في عينيها العسليتين بركانا من الدموع على وشك الانفجار، فاستسلم ليدها التي جذبته من ذراعه ليسير خلفها حتى وصلا لغرفة المعيشة، فجلس مواجها لجهاز التليفزيون المسطح الذي يغطي مساحة لا بأس بها من الحائط المكسو بورق حائط برتقالي اللون.

جلست مواجهة له وهي تقول:

- لماذا لا تريد أن تحقق لي أعز أمنية تتمناها أي زوجة في الدنيا؟

كان يشاهد "إسماعيل ياسين" يهز شفتيه العملاقتين ويرتجف مع الخروج الطيفي للعفريت من المصباح القديم.

- لماذا لا تريد أن تجعلني أحمل طفلك أو طفلتك؟

التفت إليها ليقول ونظرة عجيبة تلمع في عينيه ميزت فيها حبه لها وخوفه عليها وعتابه لها وهو يقول:

- "هناء"يا حب عمري وصديقة حياتي ورفيقة دربي، لقد حسمنا هذا الموضوع منذ أول أعوام زواجنا، لماذا تريدين أن تجددي النقاش في هذا الموضوع مرة أخرى؟

نهضت لتجلس على ركبتيه بجسدها الفائر الأنوثة ولامست خصلات شعرها الناعم المعطر جانب وجهه وهي تقول في مزيج من الدلال والحزن:

- لقد تقدم الطب في هذا العامين الأخيرين و د/ "مهدي عمار" الذي كان يتابع حالتي قال لي أن حالة قلبي تحسنت ويمكن أن أحتمل الحمل والولادة.

نظر إلى عينيها الساحرتين وتأمل ثوبها المنزلي الذي يشف عن كنوزها الحلال ليقول:

- أريدك أنت فقط، أريدك بجواري ولا يهمني الأطفال، فأنت طفلتي الجميلة المدللة التي أخاف عليها من النسيم، ولقد اقتنعنا بأن الحمل خطر على حياتك، فلماذا تصرين على فتح هذا الموضوع من جديد؟

مالت نحوه لتقول في خفوت مدوخ:

- سنعيش شهر عسل جديد ولن أستعمل الحبوب المانعة للحمل.

وقادته في نعومة وإغراء نحو غرفة النوم....

.

.

هز رأسه لينتزع نفسه من ذكرياته، وصوت رئيسه يصله عبر السماعة المثبتة بخوذته يقول:

- الصور التي أرسلتها توضح عدة ظلال تتحرك خلف نوافذ الشقة التي تحتل الطابق السابع بالبناية رقم (6)، هل ستتمكن من التصدي لهم بمفردك أم تريد من فرقة التدخل السريع أن تتحرك في نفس التوقيت؟

كان يشعر بتوتر وغضب بالغ ويتوق إلي سيجارة وفنجان آخر من القهوة ولكنه قال في هدوء:

- أريد نصف ساعة فقط وبعدها تحركوا.

قال عبارته وعاد يتطلع إلى النوافذ قبل أن ينزع المنظار، ويرفع بندقية القناصة المتطورة التي يصطحبها معه ليتطلع عبر منظارها المزود بتقنية الرؤية الليلية، وبدأ يمسح النوافذ بعينيه وسبابته تداعب الزناد وهو يراقب نمط تحرك الظلال خلف النوافذ وبدأ في ترديد سورة قرآنية قصيرة قبل أن يطلق الرصاصة الصامتة الأولى ويميل بذراعه ليطلق الرصاصة الثانية فالثالثة بفارق زمني يقل عن أجزاء من الثانية.

راقب الظلال الثلاثة التي تكومت أرضا، قبل أن يدوي صوت سيالات متصلة من الرصاص التي بدأ باقي الإرهابيين في إطلاقها عشوائيا من جميع النوافذ.

فقال في جهاز الاتصال:

- تمكنت من ثلاثة منهم ومن زوايا إطلاق الرصاص أستنتج أن هناك أربعة آخرين، قال عبارته وهو يرفع بندقية مثبت بها سهم معدني ذو بداية حلزونية، رفع البندقية نحو البناية رقم 6 وضغط الزناد فانطلق السهم وهو يدور في الهواء ويسحب خلفه حبل قوي أسود اللون ومع قوة الاندفاع غاص السهم في جدار البناية بالقرب من سطحها فقام بتثبيت طرف الحبل الآخر بباب معدني بجواره وتأكد من ثبات الحبل قبل أن يقول:

- أنا في طريقي إليهم وسأتحرك وفقا للخطة "باء".. فلن أترك أحياء.

جاءه صوت قائده يقول :

- بالتوفيق يا "أمجد"، عد إلينا سالما.

قالها وهو يترك معظم ما يحمله من عتاد ليكتفي بمسدسين آليين وخزنتي رصاص إضافيتين، وتأكد من وجود خنجره مثبت في جرابه قبل أن يمسك بطرف الحبل وينزلق تدريجيا نحو البناية التي تبتعد عنه ما يقرب

من العشرين مترا، كانت البناية الهدف تقترب وهو يتحرك في هدوء وثبات متشبثا بالحبل وينقل قبضتيه واحدة تلو الأخرى، وعندما اقترب من سور سطح البناية قفز في رشاقة وبدأ يتحرك عبر مدخل السطح إلى الدرج ومنظار الرؤية الليلية يكفل له رؤية واضحة، رفع المسدسين أمامه وهو بتحرك في هدوء نحو الطابق السابع.

***

وجهها الشاحب وأنفاسها المتلاحقة وتلك الكبلات التي تتصل بجسدها بممصات مطاطية لتنقل كل مؤشراتها الحيوية إلى عدة شاشات تحيط بفراشها الطبي، ابتسامتها التي تحاول أن تطمئنه بها ويدها الباردة المرتجفة التي يحيطها بكفيه أثناء جلوسه بجوارها على مقعد بلاستيكي غير مريح، زجاجة المحلول الشفافة التي تنتهي بأنبوبة بلاستيكية تمتد لتغوص في أوردتها عبر إبرة طبية "كانيولا" لتنقل إلى جسدها مجموعة من الأدوية التي يحاولون بها ضبط حالة قلبها قبل أن تدخل إلى غرفة العمليات لتمر بالجراحة "القيصرية".

همست في صوت ضعيف:

- سأعود إليك ومعي "فدوى" وستكون أجمل طفلة في العالم لأنها ابنة أكثر رجال العالم وسامة.

منع دموعه من خيانته بالكاد وهو يقول لها مبتسما:

- بل لأن أمها هي أجمل أنثى خطت بقدميها على تلك الأرض التعيسة، لتزيل عن حياتي كل الكدر والضيق والحزن، ولأني أعشق أمها وأقبل كل يوم ظلها على الأرض، وتهدج صوته ليقول ودموعه تغادر عينيه لتغرق وجهه:

- ولأني.. ولأني سأنتظر خروجك بسلامة الله لأن ليس لي عيش على وجه الأرض بدونك.

اقترب منهما د/ "مهدي عمار" ليبتسم قائلا:

- لقد حان الوقت.. هيا بنا أيتها البطلة.

أفلت كفها والممرضون يدفعون فراشها خارج غرفتها ويتجهون نحو غرفة العمليات.

وضع كفه علي كتف الطبيب ليقول في رجاء:

- ستعيدها إلي سالمة.. أليس كذلك؟

ربت الطبيب علي كتفه مطمئنا وابتعد.

***

زفر في ضيق ليخرج من عتمة ذكرياته وهو يواصل الهبوط ومع وصوله للطابق السابع لمح ذلك المسلح الذي يقف مستندا إلى مدفعه الآلي يدخن سيجارته في صمت، فرفع مسدسه ليرديه بطلقة صائبة اخترقت رأسه فسقط كالجوال وقف يتأمل المسلح الذي غادرته روحه لتوها وبقعة الدم تتسع أسفل جمجمته المثقوبة، وسحب شهيقا طويلا إلي صدره ليقفز ويتحرك في خطوات سريعة إلى الطابق السادس، ومع وصوله لباب الشقة المغلق ثبت كبسولة متفجرة برتاجه البدائي واحتمى بممر جانبي قبل أن يفجر الكبسولة بصوت مكتوم وانطلق كالإعصار، عنصر المفاجأة كان في صالحه تماما وهو يقفز داخل الشقة وسط الدخان ليردي رجلين بطلقتين محكمتين في الرأس والعنق ويركل الثالث ليسقطه أرضا قبل أن يغوص بخنجره في عنقه.

هب من سقطته وبدأ يفتش باقي غرف الشقة لتأمينها ويقول في جهاز الاتصال:

- تم تصفية كل العناصر المحتمية في الشقة والسيطرة علي نقطة تمركزهم.

جاءه صوت رئيسه يهتف بفرحة:

- رائع يا "أمجد".. سنصل إليك بعد دقائق.

بدأ يتفقد الجثث وتوقف عند جثة لشاب ضئيل الحجم ملثم بقناع صوفي لا يظهر منه إلا عيناه، هبط على ركبتيه ونزع لثامه ليتراجع إلى الخلف في ذعر أولي قبل أن يتحرك علي ركبتيه مقتربا من ضحيته التي اخترقت طلقته جانب عنقه والذي لم يسلم الروح بعد، كان صبيا في الثالثة عشر من عمره على أقصي تقدير يرتجف كالذبيح والدم يتدفق من عنقه وفمه وهو يطلق شهقات متقطعة يحاول بها سحب الهواء إلى رئتيه، كانت عيناه زائغتين والتشنجات تجعله ينتفض وهو يمد يده له مستنجدا، وجد نفسه يقترب أكثر ويبعد في حرص المدفع الآلي الذي سقط منه ويمسك بيده ليشد عليها في قوة، كانت عينا الصبي تنظران له في أمل وشفتيه ترتجفان وهو يحاول أن يقول شيئا ما، قبل أن ينتفض انتفاضته الأخيرة ويهمد جسده إلى الأبد.

***

د/"مهدي" يقترب منه في صمت، فنهض من مقعده ووضع المصحف الذي كان يقرأ فيه علي منضدة قريبة وقال في لهفة:

- كيف حالها؟ وكيف حال المولودة؟

رأى الطبيب يغلق عينيه ويسحب شهيقا عميقا إلى رئتيه ليقول في خفوت:

- أنت رجل مؤمن.. وهي إرادة الله، حالة قلبها تدهورت بعكس كل التوقعات ولم نستطع أن ننقذها وكانت حالة الجنين متدهورة فلم نستطع أن نحافظ على حياته.

صرخ في هلع ممزوج بالغضب:

- لا.. أنت تكذب وقبض علي كتفيه ليرجه رجا وهو يواصل الصياح:

- أين "هناء"؟.. وأين "فدوى"؟

قالها ليتراجع إلى الخلف وهو ينفجر في نوبة بكاء عارمة وترك نفسه ليسقط أرضا ليستند إلى الجدار ويواصل النحيب مرددا:

- أنا السبب.. أنا الذي قتلتها..

***

تراجع ليستند بظهره إلى الجدار المكسو بالأسمنت والدم وجلس يتطلع إلى ما صنعت يداه ولم يشعر بأفراد القوة الذين بدأوا في الدخول إلى الشقة.

يتحرك الإنسان دوما مدفوعا بوجه نظر قاصرة، ينظر دوما تحت قدميه بدون أن يضع في اعتباره إنه ترس صغير في آلة عملاقة أو نقش ضئيل يزين تلك اللوحة الكونية الخالدة.

4 - محافظة قنا

مركز نجع حمادي

الرحمانية قبلي

قرية العلوانية (بطن الجبل) سابقا

5 أكتوبر 2005

يمكنك أن تدخل إلى قرية "العلوانية" من جهتين، فهناك الجسر الذي يعبر فوق ترعة الري القبلية ويمر بمساحات زراعات القصب التي تمتد موازية لحضن الجبل، وهناك ذلك المدق الموازي لمصنع السكر الذي يعمل به نسبة كبيرة من أهل القرية، هناك عدد محدود من أعمدة الإنارة التي تحاول بكل قوتها أن تبدد ظلام الليل ذلك الضيف الثقيل الذي يفرض نفسه فرضا على القرية مبكرا في الشتاء، قبل أن تصل إلى ساحة المسجد الكبير ستمر بالسوق الذي يتسم بالنظافة حيث يبتاع أهل القرية ما يحتاجونه من الخضر والفاكهة والبقالة وينتظرون يوم الثلاثاء من كل أسبوع عندما تأتي اللحوم الطازجة من "الرحمانية"، وبرغم أطباق استقبال القنوات الفضائية التي استعمرت أسطح أغلب المنازل تجد أن سكان القرية كلهم ينامون قبل الثانية عشرة مساء ليستيقظوا مبكرا للعمل في الحقول وفي مصنع السكر، بعد الثانية عشرة مساء لا يوجد إلا مقهى "عتوقة" ملاذا لعشاق السهر حيث يمكنك أن تجلس مستمتعا بالهواء البارد القادم من جهة الترعة لتشاهد فيلما أجنبيا أو مسرحية قديمة أو مباراة لكرة القدم يعرضها التليفزيون الضخم الذي يثبته "عتوقة" خارج

المقهى، هناك تجد عمال السكة الحديد يجلسون ليستعينوا على السهر بكراسي المعسل الممتاز الذي يجيد "عواد" في تجهيز النارجيلات (صبي الشيشة) رص قطع الفحم المتوهج فوقه باحترافية، هناك عمال التعتيق الذين سيكون عليهم تحميل عربات قطار البضائع الذي سيأتي في تمام السابعة صباحا بأجولة السكر، هناك ضحكة أو ضحكتين تصاحبان ضربات أحجار الدومينو والطاولة و"عتوقة" يراقب سير العمل في المقهى من خلف مكتبه الذي يحتل يمين المكان ويلاحظ توقف الضحكات وأصوات الترحيب فيرفع عينيه ليشاهد دخول ذلك الرجل طويل القامة الذي دلت طريقة سيره على اعتلال صحته والذي قام أحد الشباب ليدعوه للجلوس وهو يقول:

- صول "فهيم" تفضل لقد زارنا النبي.

تأمله الرجل في صمت وأشار إلي "عواد" نظرة فهمها، فأسرع يجذب نارجيلة خاصة ذات قمة فضية وثبت كرسي المعسل ليزينه بقطع الفحم المتوهج ووضعها أمام الصول الذي هز رأسه شاكرا، وهو يضع مزيدا من قطع الفحم المتوهج بأصابعه العارية حتى تأكد من جودة احتراق المعسل فبدا يسحب أنفاسا طويلة من الدخان المعطر وينفثها في احتراف.

نهض "عتوقة" من خلف مكتبه وتأمل شعر الصول الأشيب المتناثر في غير نظام حول رأسه الضخمة التي يحملها عنقه النحيل علي كتفيه النحيلين ولحيته النامية التي لم يحلقها منذ أسبوع على الأقل واقترب منه ليقول:

- يسعدنا تشريفك لنا كل ليلة يا صول "فهيم"، ويزيدنا شرفا على شرف.

رفع "فهيم" عينين رماديتين كسولتين نحوه ليقول بصوته الخشن قليلا:

- أمسية جميلة يا "عتوقة".. قضاء أمسيات كهذه وسط هواء بكر غير ملوث هو ما يساعدنا على احتمال أيامنا الكريهة.

تأمل صاحب المقهى مياه الترعة التي تألقت كالفضة المذابة مع انعكاس ضوء القمر ليقول:

- هذا المقهى يعتبر أجمل وأكثر مناطق القرية هدوءا وسكينة.

تأمل الصول الأفق المظلم قبل أن يقول هامسا:

- هل ما زلت تذكر تلك الليالي التي كانت تظهر فيها - اللهم أحفظنا - الشياطين والعفاريت؟

اتسعت عينا "عتوقة" رعبا وتلفت حوله وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ليقول معاتبا بصوت مرتجف:

- ولماذا تلك السيرة المسمومة أيها الرجل الطيب؟

شرد "فهيم" ببصره في الأفق المحاط بسلسلة الجبال ليقول وهو يحرك رأسه يمينا ويسارا في خشوع:

- لقد طردهم سيدنا وحده شر طردة.. مدد يا سيدنا مداااااد.

وهنا بدأ ينتبه أن صاحب المقهى متردد ويريد أن يتحدث في أمر ما فقال في صرامة:

- ماذا تريد يا أيها العجوز البخيل؟ فهي المرة الأولي التي تنهض من مكانك وتأتي لتتحدث معي مدة طويلة.

ابتسم وتراجع برأسه إلي الخلف ليتأمله وهو يجلس كذئب عجوز يرتدي الزي الرسمي الأسود وقال في تملق:

- منتهى الذكاء والفطنة.. ما شاء الله.

قالها وجذب مقعدا ليجلس مواجها له ليقول في خفوت:

- أريد منك خدمة يا صول باشا، أنت تعرف "فرج أبو إبراهيم"....

قاطعه وهو ينفث سحابة الدخان في وجهه:

- الحشاش!

- لقد حرزوا (ثمناية) حشيش فقط كانت معه للاستخدام الشخصي، وأنت تعرف إنكم إذا قمتم بإلقاء القبض علي كل من ستجدوا (سوليفانة) حشيش في جيبه فستضعون نصف رجال القرية في الزنزانة.

ضحك "فهيم" وقال وهو يضرب فخذ "عتوقة" بقبضته:

- ولماذا لم يتخلص الأبله من (السوليفانة) قبل دخوله إلي الكمين.

- ساعة القضاء تعمى الأبصار.

وهز "فهيم" كتفيه ليستطرد:

- لقد ألقى النقيب "بهجت" القبض عليه، وسيتم عرضه على النيابة غدا صباحا وانتهى الأمر.

رجع "عتوقة" برأسه إلى الخلف ليقول:

- الكل يعرف أن الضابط "بهجت" طلب أن يرجع إلى "القاهرة"، وسيأتي ضابط جديد لاستلام رئاسة نقطة شرطة القرية.

بصق "فهيم" وهو يقول في سخط:

- إنه عسكري الكلب "محمدين"، لا يوجد غيره هو الذي سرب الخبر.

ضحك "عتوقة" ليقول:

- أنت بركتنا يا حضرة الصول، سيفقد الرجل وظيفته لو وصل المحضر إلى النيابة.

أغلق الصول عينيه وبدا مستمتعا بتوسلاته ليقول:

- سنرى ما يمكن فعله.. سنرى.

كاد صاحب المقهى أن يواصل توسلاته وتملقه قبل أن ينتبه لظل الرجل الذي عبر الجسر لتوه وبدأ يقترب من الممشى المؤدي إلي المقهى، رفع الصول عينيه نحو القادم الذي بدا غاية في الأناقة بسترته الجلدية الفاخرة التي كشفت عن عضلات صدره القوية وسرواله المصنوع من قماش الجينز

الأزرق، كان يحمل بيسراه حقيبة ضخمة ولم تتبين ملامحه بوضوح بسبب منظار الشمس الأنيق الذي يرتديه.

وصل الرجل إلي مجلسهم ليضع حقيبته أرضا ويقول في صوت قوي:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

نهض "عتوقة" ليقترب من الرجل ويقول:

- وعليكم السلام.. تفضل..

نزع الرجل منظاره الشمسي ورفع عينين بنيتين حادتين نحوه وهو يمد يده ليصافحه قائلا:

- أريد أن تشرحوا لي كيفية الوصول إلى نقطة الشرطة.

ترك "فهيم" مقعده وتقدم بملابسه الرسمية السوداء نحو الرجل وتأمل ملامحه الوسيمة بأنفه المستقيم وشفتيه الملتقيتين في صرامة غير مبررة وشعره الحليق ليقول:

- أنا الصول"فهيم".. من أنت ولماذا تريد الذهاب إلى النقطة؟

مد الرجل كفه ليصافحه وهو يقول:

- النقيب "أمجد ركن الدين علوان" رئيس النقطة الجديد ولقد جئت لتوي من "القاهرة".

ظلت كف "أمجد" معلقة في الهواء وهو يراقب ملامح "فهيم" التي حملت مزيجا غريبا من الذهول والرهبة والتأثر واللهفة وهو يتأمل ملامحه، قبل أن يتقدم نحوه ويتحسس ملامحه في حنان بالغ ومال نحوه ليقول:

- الغالي ابن الغالي ابن الغالي، سيدنا وابن سيدنا وحفيد سيدنا.. قبل أن يحتضنه في شوق وهو يربت ظهره ويبكي بصوت مسموع.

دفعه "أمجد" في رفق ليقول مستنكرا:

- ماذا هناك يا حضرة الصول؟

أشار (فهيم) نحوه وهو يقول بصوت متهدج:

- حفيد مولانا "علوان".

كان "أمجد" يقف في غير فهم وهو يرى الجميع يقفون في احترام ويتجهون نحوه يتحلقون حوله في دائرة ويهتفون في صوت قوي:

- سيدنا.. سيدنا.. سيدنا

***

هناك حقب زمنية قام المؤرخون بوصفها جيدا ونقلوا إلى الأجيال القادمة كل تفاصيلها، ولكنهم لم يدخلوا إلى الكواليس الخفية لتلك الفترات ومهمتنا هي كشف النقاب عن تلك الخفايا المظلمة التي تجمد تفاصيلها الدماء في العروق.

5 - القرن الرابع الميلادي

مكان ما في قلب الصحراء

جنوب مصر

الهدوء يسود تلك البقعة من بقع الصحراء، نحن نقترب الآن من عدة مشاعل مغروسة على مسافات متساوية في قوس واسع يحيط بمدخل كوخ خشبي بسيط التكوين يدل على البؤس والفقر الشديد، هناك مدخنة مرتفعة تطرد دخانا أسود اللون ليرتفع في الهواء لمسافة كبيرة قبل أن يتبدد، ولو استطعنا أن ندخل إلي الكوخ فسنجد ذلك الرجل ذو الرأس الحليق المسربل بالسواد الذي يقف يتأمل سائلا يغلي في إناء نحاسي ويتصاعد منه الدخان الذي رأيناه خارجا من المدخنة، الرجل يترك الإناء ليمرر سبابته على سطور مخطوطة صفراء اللون تحمل حروف لغة قبطية قديمة، سنقترب أكثر منه لنرى تلك النظرة العجيبة في عينيه المكتحلتين، نظرة تحمل مزيجا من الشغف والحماس واللهفة والخوف، كان يخوض ذلك الصراع الشهير الذي عبر عنه علماء النفس بمصطلح (إقدام/ إحجام)، يضع المخطوط جانبا ويفتح مجلدا آخر ليخط ببوصة عدة أسطر مستخدما حبرا أحمر، ثم يتحرك نحو فأر ضخم رمادي اللون مقيد من أطرافه الأربعة إلي سطع دائرة معدنية مجاورا لفأر أبيض اللون مثبت بنفس الطريقة على سطح دائرة معدنية أخرى وبدأ يرسم عدة رموز علي محيط الدائرة التي تحيط بالفأر الرمادي الذي أخذ يحاول تحرير أطرافه من قيوده المعدنية، انتهى من رسم الرموز وتراجع إلى الخلف ليقارن الرموز

التي رسمها برموز مماثلة مرسومة بالأسود على لوحة مثبتة على جدار الكوخ، ارتسمت ابتسامة ما على شفتيه وهو يخرج نصلا فضيا رفيعا للغاية ويقترب من الفأر الرمادي ليغوص بالنصل في صدره فأطلق صرخة ألم رفيعة، ليقلب الرجل ساعة رملية ويتأمل حركة الفأر الذي أخذ يرتجف وهو يسلم الروح وبدأ يراقب حركة الفأر الأبيض بشغف، كان يحسب مقدار الرمل المتدفق وهو يراقب حركة الفأر الرمادي قبل أن يشهق برعب وكأنه رأى الشيطان ذاته وبدا عليه الذعر الأولي وهو يهتف:

- رباااااه.. ما الذي فعلته!

وبدأ يدون عدة أسطر في المجلد قبل أن يقطب حاجبيه ويقترب من باب الكوخ لينصت السمع، دعنا نقترب من الباب لنسترق السمع معه.. نستمع الآن إلي صوت سنابك خيل تأتي من بعيد مقتربة من الكوخ. يتراجع الرجل ويبدأ في جمع بعض أوراقه وكتبه ومجلداته ليضمها إلى بعضها البعض برباط مصنوع من الجلد المدبوغ. وبدون تردد دفع بيده داخل السائل الملتهب داخل الإناء ليخرجها من غير سوء ممتلئة بمسحوق جاف أسود اللون. وثبت الرباط الجلدي المحيط بكومة المخطوطات إلي ظهره وتحرك في ثقة نحو باب الكوخ ليفتحه ويتحرك نحو حاجز المشاعل الذي يحيط بالكوخ ليقف في ثبات يتطلع إلى عشرة فرسان يتقدمون نحوه علي خيولهم القوية ومع اقترابهم منه توقفوا، ليترجل أحدهم ويتحسس مقبض سيفه المثبت إلى خصره ويقول بصوت قوي:

- أيها الراهب "أبشالوم" هناك استدعاء رسمي لك إلى قصر الحاكم.

ارتسمت ابتسامة ميكانيكية على وجهه ليقول بصوته الحاد:

- وماذا يريد الحاكم الروماني من شخصي المسكين الذي يستحق العطف؟

- ترجل فارس آخر وبدا في سحب سيفه من غمده ليقول:

- ستعرف كل شيء في القصر، ولا داعي للمقاومة فالمطلوب إحضارك حيا أو ميتا.

تقدم نحوهم ليقول في هدوء:

- ومن يحتاج إلى المقاومة يا قائد الشرطة، قالها ورفع كفه الممتلئة بالمسحوق الأسود ليردد عدة كلمات قبل أن ينفخ المسحوق في وجوههم ليتجمدوا في أماكنهم. تأمل وقفتهم الصامتة كالتماثيل قبل أن يتقدم نحو حصان أسود كان قد ترجل فارسه ليقفز إلى ظهره في مهارة ويجذب عنانه ليبتعد نحو الشمال في سرعة. ظل يعدو بالفرس لما يقرب من النصف ساعة قبل أن يظهر أمامه ذلك الدير الذي يرتفع فوقه صليبا حديديا يلتمع في ضوء القمر، فهبط عن الجواد ليتحرك نحو باب الدير المقام عند سفح جبل يشكل أحد جدران الدير الكبير جميل التصميم. وتوقف أمام بابه ليستدير متأملا الأفق قبل أن يطرق باب الدير طرقتين ثم ثلاث طرقات تبعهم بفترة صمت قبل أن يطرقه طرقة واحدة، هنا فتح الباب شيخ ملتحي تصل لحيته إلي أعلي صدره يرتدي زي الرهبنة وتأمله لحظة قبل أن يقول مستنكرا:

- "أبشالوم".. ما الذي جاء بك إلي بيت الرب؟ لقد اتفقنا على أنك محروم من دخول الدير بعدما قررت الاستمرار في طريقك الملعون.

تأمل ملامحه المتغضنة ليقول:

- لم أحضر لأنال الغفران أيها الراهب "أرسانيوس"، لقد جئتك في أمر عظيم فجنود الحاكم قد حسموا أمرهم أخيرا وقرروا التحرك للزج بكل "العرفانيين"[1] إلى غياهب السجون وربما إلى أقفاص السباع.

[1] (1)العرفانية هي مدرسة عقائدية أو فلسفية حلولية نشأت حول القرن الأول الميلادي، ويعتقد البعض أن لها جذورا وبدايات تعود إلى القرون الثلاث الأخيرة قبل الميلاد في المجتمع السكندري لتبرير انتشار الديانة المصرية القديمة في الإمبراطورية الرومانية بجانب الديانات المحلية. أخذت الغنوصية طورا جديدا لدى ظهور المسيحية لإثبات تواؤم المعتقدين. وكانت لا تتعارض مباشرة مع الديانات التوحيدية. كالمسيحية واليهودية ولكنها تم مقاومتها وقمعها من قبل الكنيسة منذ فترة مبكرة.

قطب "أرسانيوس" حاجبيه وتراجع خطوة ليقول:

- ما الذي تقوله أيها العاق؟ الحاكم لم يجهر لنا بالعداء من قبل وتركنا لنمارس عباداتنا في سلام.

أشار "أبشالوم" إلى الأفق وصاح:

- لقد عطلتهم قليلا ولكنهم في طريقهم إلى هنا، أطلب من الكهنة والرهبان الفرار نحو الجبال مع ما تستطيع جمعه من مخطوطات وكتب.

قال عبارته ووضع كفه علي كتف "أرسانيوس" ليقول:

- هناك شيء مخيف وصلت له يا صديقي، شيء أثار الذعر في قلبي الذي رافقني في أكثر الدروب سوادا ولم يرتجف كما ارتجف تلك المرة.

كاد أن يقاطعه ولكنه وضع كفه على فمه برفق وهمس:

- هناك عدد من المخطوطات التي سأعهد بها إليك.

قال عبارته وهو ينزع الرباط الجلدي الذي يثبت به المخطوطات ودفع بها إليه

- ستقوم بإخفاء تلك المجلدات والمخطوطات، لو تسرب ما كتبته فيها ستتغير طبيعة الحياة بالكامل على وجه الأرض كلها، وستتحطم كل قوانين الكون التي عهدناها منذ بدء الخليقة.

رأى التردد على وجه "أرسانيوس" فقال:

- أنت تعرف جيدا حقيقة العلوم التي توسعت في دراستها وأنا لم أنكر يوما أنني تبحرت في العلوم الباطنية والخيمياء والهرمسية لما يزيد على العشرين عاما، ولكن ما اختبرته اليوم وقمت بإثبات صحته أخطر من كل تصوراتك، ولو سقطت تلك المخطوطات في يد آثمة فأنا أتوقع أن ينتهي العالم كله كما نعرفه اليوم.

قالها ودفع بالمخطوطات إلي صدره فتناولها مرغما وهو يقول في قلق:

- ولماذا لم تقم بحرقها أو تدميرها؟

- تحرك مبتعدا نحو الحصان الذي وقف ينقل قدميه الأماميتين في توتر وقال :

- لقد حاولت أن أحرقها عدة مرات ولكنني عجزت عن ذلك وقلت لك أنني لا أريدها أن تقع في يد آثمة، وقفز ليستقر علي ظهر الحصان ليقول وهو يبتعد:

- وداعا يا صديقي.. اهرب وكأن الشيطان يطاردك فلن يكتفوا بالقبض عليكم أحياء.

قال عبارته وانطلق بحصانه بأقصى سرعة، وعندما اختفى خلف سلسلة الجبال، دخل الراهب إلى الدير ليصيح:

- جند الحاكم في طريقهم إلى هنا، لقد أمرتهم الكنيسة بالتحرك ضدنا، هيا سننطلق نحو جوف الصحراء. تحول الدير إلي شعلة من النشاط والرهبان يحزمون كل ما يهمهم حزمه ويتخلصون من عشرات المخطوطات، و تناول "أرسانيوس" إناء فخاريا ضخما وبدأ يحشوه بعدد كبير من المجلدات والمخطوطات ثم تذكر مخطوطات "أبشالوم" فأشاح بوجهه قبل أن يتردد في أذنيه تحذيراته من خطورتها فحسم أمره ودس المخطوطات المحاطة بالرباط الجلدي في الإناء ليغلقه بغطائه ويحيط الغطاء بمزيج من الطين والماء لتثبيته وحمل الإناء ليخرج به من الدير، وقف ينظر إلى الرهبان وهم يضعون أغراضهم البسيطة على متن عدة عربات تجرها البغال والخيول ليسرج حصانه ويثبت الإناء إلي السرج ويقول:

- سألحق بكم بعد قليل.. تحركوا بسرعة.

بدأوا التحرك نحو الشمال، في حين تحرك هو نحو الجنوب، انطلق بفرسه حتى بدا له سهلا جبليا فاتجه نحوه وقد بدأ وقع سنابك الخيل يصل إلى أذنيه، ترجل عن الفرس واتجه نحو سفح الجبل وبدأ يحفر الرمال بيديه العاريتين، أصوات الجنود تصل إلى أذنيه ودقات قلبه ترتفع وتكاد أن

ترج صدره رجا، يردد بعض الآيات المنجيات وقد تحول إلى آلة حفر وهو يلهث حتى صنع حفرة وجد أن عمقها مناسبا فدفع بالإناء الثمين داخل الحفرة وبدأ يهيل الرمل ويموه حواف الحفرة بمجموعة أغصان جافة وتأمل النتيجة فوجدها مرضية، فنهض وابتعد بجواده بقدر المستطاع وفجأة وجد خيول الجنود تحاصره من كل اتجاه فرفع بصره إلى السماء ليبتسم، وهو شعر بالراحة تهيمن على قلبه الوجل فقد قام بمهمته الجليلة وحفظ خلاصة علمهم بعيدا عن أعدائهم إلى الأبد، وعندما رفع قائدهم سيفه ليطيح بعنقه بضربة واحدة ليتدحرج رأسه أرضا ظلت شفتيه محتفظتان بنفس الابتسامة.

***

عندما تضيق بنا السبل نحاول وقتها أن نقتبس ضوءا شاردا من ماضينا البريء، نحاول أن نجد لمحة من الطهر لتغسل نفوسنا من درن الواقع المتداعي ولكن احتمالات الخطأ واردة.

6 - محافظة قنا

مركز نجع حمادي

الرحمانية قبلي

قرية العلوانية

5 أكتوبر 2005

مطفأة مترعة بأعقاب السجائر وخمسة فناجين فارغة من القهوة تحمل آثار البن متناثرة فوق مكتبه، جلس في صمت متأملا في اللاشيء فلم ينتبه لدخول رئيسه لمكتبه، فاقترب منه ليقول:

- "أمجد"...

انتبه لنفسه ووقف مؤديا التحية العسكرية ليشير له المقدم "شريف" بالجلوس ليشير إلى مكتبه ويقول في ضيق:

- لو كنت تسعى نحو الانتحار بـ"النيكوتين" و"الكافيين" فسيستغرق ذلك وقتا طويلا، وأشار إلى مسدسه الراقد أمامه على حافة المكتب وأردف:

- يمكنك أن تفجر رأسك برصاصة في سقف الحلق.

رفع عينين محتقنتين تحيطهما ظلال كثيفة نحوه ليقول بصوت مختنق:

- لقد قتلت طفلا صغيرا.

قالها وضم قبضته ليضرب الجدار وهو يهتف:

- لم أتمكن من النوم منذ ذلك اليوم.

وصمت قليلا قبل أن يشير إليه ليقول:

- ولقد طلبت منك ألا أشترك في تلك المهمة، كنت تعرف إنني فقدت زوجتي وكنت تعرف مكانتها في نفسي والذنب الرهيب الذي ارتكبته عندما وافقت على حملها، لقد شردت أثناء العملية وكنت أفكر في أسباب تدهور علاقتي بها، وعندما اقتحمت الشقة كان يجب أن أنتبه قبل أن أطلق الرصاص علي حنجرة طفل صغير.

زفر المقدم "شريف" وتناول سيجارة من علبة "أمجد" ليشعلها وينفث دخانها ويربت كتفه ليقول:

- لقد تحركت قبل الاقتحام بيومين كما تعرف نحو الشقة التي يتخذون منها وكرا وتعرضنا لإطلاق نيران كثيف وفقدنا رقيبي شرطة وأصيب ضابطان، ومع مطابقة الطلقات التي استخرجناها من جثامين الشهداء مع الأسلحة التي وجدناها بجوار الإرهابيين - الذين قمت بتصفيتهم - فوجدنا أن المدفع الذي كان بجوار الفتى الذي قتلته قد خرج منه ثلاث طلقات اخترقت صدر الرقيب الشهيد "سيد الطواف"، وقد لقى ربه تاركا خلفه زوجة وثلاثة أطفال أصغرهم في الثالثة من عمره، الفتي القتيل كان ابن الإرهابي "أبو فرج المصري"، لقد أنقذت مصر من خلية إرهابية غاية في الخطورة ومنحك معالي الوزير نوط الشجاعة من الطبقة الأولى.

- أريد أن أترك مكافحة الإرهاب وأعود إلى الشرطة مؤقتا، أريد وظيفة هادئة فلن أستطيع أن أستمر في الخدمة قبل أن أتخلص من عقدة الذنب التي تطاردني.

- كل مطالبك مجابة بالطبع، هل تريد أن ننقلك إلى مديرية الأمن في وظيفة إدارية مثلا.

شرد قليلا ومر بذهنه مشهدا لقصر قديم وحديقة واسعة مهملة فوجد نفسه يقول بدون ذرة تفكير:

- لقد كان جدي – رحمه الله –قائدا لنقطة شرطة بـ"نجع حمادي" بـ"قنا" أريد أن أترك القاهرة كلها وأذهب للعمل هناك..

***

هز رأسه ليتخلص من طوفان الذكريات وهو يتأمل الجدران الرمادية لمبني نقطة الشرطة الذي تسلم رئاستها اليوم، كان قد قضى ليلته في استراحة الضباط الملحقة بالنقطة على فراش غير مريح ولكنه نظيف على الأقل، والغريب في الأمر إنه نام بعمق لأول مرة منذ تلك الليلة المشئومة التي يتمنى أن ينفق كل ما يملك من أجل محوها من تاريخه كله، قام الصول "فهيم" بتجهيز إفطار فاخر من الجبن والعسل والبيض والفطير فتناول ما تيسر وتبعه بكوب من الشاي الأسود، وبدأ في تفقد مبنى النقطة الصغير الذي يتكون من استراحتين للجنود والضباط ومكتب "النوبانجية" وغرفة "السلاحليك" وغرفة الحجز ومكتب رئيس النقطة ومكتب لمعاون النقطة، مبني من مباني فترة الأربعينيات كان استراحة لأحد الإقطاعيين وتم تأميمه ليصبح مخزنا لوزارة الزراعة ثم تم تحويله إلى مبنى لنقطة شرطة "العلوانية" وتم افتتاحه في الخمسينيات، أشعل سيجارة بنكهة النعناع ليدخنها واقفا يتأمل مظاهر البؤس المحيطة بالنقطة وشاهد الصول "فهيم" قادما نحوه فأشار إلى المبني ليقول:

- أريد ملفات كل القضايا المفتوحة على مكتبي على الفور.

ثم صمت قليلا قبل أن يقول:

- ما هو الاسم الأصلي للقرية قبل أن يطلق عليها "العلوانية" تكريما لجدي رحمه الله؟

- كانت ملامح الشرطي العجوز تعكس مقدارا كبيرا من الطيبة والحب وهو يتطلع إليه قائلا:

- كانت تحمل اسما سخيفا وهو "بطن الجبل" قبل أن نشرفها بحمل اسم مولانا قدس الله سره.

قال عبارته وأشار إلي سيارة متوقفة على بعد مائة متر تقريبا ليقول:

- الشيخة "إحسان" عرفت إنك هنا وتريد أن تتحدث إليك.

مط شفتيه وبدا عليه التفكير ليقول:

- عمتي! ومن أخبرها بقدومي؟ من الذي يقوم بدور العصفورة من رجال النقطة؟

تحرك نحو السيارة القديمة السوداء موديل السبعينيات التي تجثم كالكابوس وهو يستعد للمواجهة التي كان يحرص على تأجيلها قدر المستطاع منذ طلب من رئيسه نقله إلي نقطة الشرطة التي خدم بها جده قبل استشهاده في الستينيات، وصل إلي السيارة التي هبط منها سائقها ودار حولها ليفتح الباب المجاور للراكبة المتشحة بالسواد التي هبطت بوقار مستندة على عصا أبنوسية مطعمة بالفضة، لتقف أمامه بجسدها الممشوق برغم ملامح وجهها التي تدل على تخطيها لمنتصف الخمسينيات من العمر. ورفعت كفها المعروقة أمامها لينحني في احترام ويقبلها ويقول وهو يتحدث خافضا عينيه:

- لقد أوحشتني للغاية يا عمتي "إحسان".

أشارت إليه ليخفض رأسه أمامها لتلمس رأسه الحليقة بكفها وتربت عليها وتقول بصوتها الخافت:

- ابن أخي العاق الذي لم يتصل بعمته منذ شهور والذي جاء ليبيت في النقطة ولم يحضر مع حقيبته إلى قصر جده.

أمسك بكفها وأشار إلى النقطة ليقول:

- تفضلي في مكتبي سنتحدث، لا يمكن أن تقفي هنا بدون أن.....

مالت نحوه لتقول في صرامة:

- ستأتي بحقيبتك لأن قصر جدك في انتظارك، وإذا لم تأت معي الآن فعليك أن تعتبر أن عمتك قد ماتت وسأعتبر أن أخي لم ينجب ذكورا.

نظر إلى كتلة العناد والحزم والمهابة الواقفة أمامه ليخفض رأسه في احترام جم ويقول:

- أوامرك يا عمتي.

قالها ليشير إلى "فهيم" ليجده قد قام بحزم حقيبتيه وجاء يعدوا نحوهما وهو يبتسم ابتسامة ذات مغزى ويهتف:

- لقد أضأت المكان كله يا سيدتنا، ولا يصح إلا الصحيح، لا يوجد مكان لـ"أمجد" باشا في وكر البراغيث هذا، مكانه هو القصر الكبير.

تطلع إليه في غضب ونقل بصره بينهما ليقول:

- وكنت أتحدث معك منذ دقائق عن العصفورة التي في النقطة.

فر "فهيم" بعينيه بعيدا عنه لتقول عمته في هدوئها المعتاد:

- "فهيم" يعرف الأصول جيدا ويعرف أن مكانك هو قصر جدك يا "أمجد"، هل تريد أن يلوك أهل القرية سيرتي ويتحدثون عن سيدة القصر التي تركت ابن أخيها ليبيت في استراحة الضباط كالغرباء؟

نقل بصره بين الشرطي المسن الذي يبتسم في مزيج من الحنان والتبجيل وبين عمته التي وقفت تتحدث في كبرياء أصيل غير مفتعل وقد أحاطت بها هالة من "الكاريزما" تليق بزعيم أمة كاملة، قبل أن يهز رأسه في استسلام ليجلس علي المقعد الخلفي للسيارة التي فتح بابها "فهيم" الذي وضع الحقيبة علي شبكة السيارة العلوية لتنطلق السيارة مثيرة خلفها سحابة من التراب، ووقف "فهيم" يراقب السيارة وهي تبتعد مبتسما في حنان بالغ.

***

قلنا من قبل أن الشر يضرب بجذور قوية عميقة ليستقر ويؤمن بقاء فروعه عبر السنين، ولكننا الآن نتحدث عن تلك الفروع التي فاقت في قوتها الجذور التي تحملها، نتحدث عن الشر الممتد عبر العصور.

7 - محافظة قنا

مركز نجع حمادي

الرحمانية قبلي

قرية العلوانية

6 أكتوبر 2005

تحركت فتاة سمراء مليحة الوجه تحيط وجهها بخمار أسود عجز عن السيطرة على ضفيرتيها اللتين انسدلتا على ظهرها تتأرجحان أثناء حركتها خطوة بخطوة وهي تسند بذراعها شيخا مسنا يسير مستندا إلى عصاته، اتجها معا إلى منزل من طابقين تحيط به حديقة مسورة ترتفع في أركانها أشجار الموالح وهناك أحواض زهور حسنة التنسيق تحيط بالممر المفضي من باب الحديقة المصنوع من الحديد المشغول حتى باب المنزل المطلي باللون الأخضر، تمر برجل يحمل مدفعا آليا على كتفه واقفا بجوار باب الحديقة فتكشف وجهها لتقول:

- لدينا ميعاد مع الشيخ "فودة".

أشاح بوجهه وعاد يتأمل الطريق خارج أسوار الحديقة والفتاة تهمس في أذن الشيخ:

- ستنتهي كل معاناتك اليوم يا والدي فالشيخ "فودة" رجل مبروك وله مريدون يأتون إليه من كل أنحاء الدنيا.

هز الشيخ رأسه وقال بصوت متحشرج:

- لقد قمت ببيع كل ما تمتلكين من ذهب ومجوهرات يا ابنتي.

ساعدته على عبور باب المنزل لتستقبلهما فتاة محجبة جميلة الملامح قامت بتمرير جهاز مسطح علي جسديهما ثم سمحت لهما بالمرور لتقول:

- ستدخلان إلي خلوة الشيخ وبالداخل لا تنظران إلي وجهه إلا إذا أمركما، ستتطلعان إلى الأرض فقط وستجدا خطا أخضر يفصل بينكما وبين شيخنا لا يجب أن تعبراه وعند الانصراف تنصرفان سيرا للخلف، لا يجب أن تديرا ظهريكما إلى مولانا.

صمتت لتتأملهما قبل أن تشير لهما بالدخول.

رائحة عطرية هي مجموع كل ما تحتويه كل أنواع البخور في العالم من أريج وضوء أبيض نقي يأتي من اللامكان مع أرض بلورية شفافة يجري من تحتها نبع ماء صافي بصوت خرير مريح للأعصاب، ساعدت والدها علي السير وهما ينظران إلى الأرض ويتقدمان ببطء ولا ينظران إلى الأمام حسب التعليمات وهنا سمعا صوته:

- تفضلي يا "صالحة".. تفضل يا شيخ "عتمان" على الرحب والسعة.

كان صوته يتسلل إلى أذنيهما في يسر ونعومة ليتخلل كيانهما كالمخمل

ظل الشيخ خافضا بصره يتأمل الأرض البلورية وقال بصوت متحشرج:

- لقد طفت بكل عيادات الأطباء وقد حاروا جميعا في أمري وها هو السقم يلتهمني بشراهة مستمرة وجئنا إليك طمعا في علمك وكرماتك يا مولانا.

أحاطت الفتاة كتفي والدها بحنان وقالت باكية:

- لقد سددت كل المبلغ المطلوب لمساعدتك يا شيخنا ونحن طامعين في عطيتك.

- تقدما إلى الأمام.

قالها فنقلا أقدامهما في وجل وتردد حتى وصلا إلي خط أخضر براق يمتد بعرض الغرفة ليقول:

- ارفعا أبصاركما فأنا راض عنكما.

رفعا عيونهما في بطء ليجدا شيخا مهيب الطلة ذا شعر فضي طويل ينسدل على كتفيه ولحية كبيرة تمتد لتغطي أعلى صدره وفم به أسنان جميلة بيضاء وتركزت أبصارهما على عينيه العميقتين الآسرتين اللتين أحاطهما بخطوط كحل أسود كثيف، ابتسما في اطمئنان عندما شاهدا وجهه الذي يكاد يضيء وهو يقول مواصلا الابتسام:

- لقد جئتما في الوقت المناسب ولوح بسبابته نحوه ليقول:

- لأنك رجل طيب يا "عتمان" وتستحق كل الخير، تقدمي يا بنيتي يمكنك أن تعبري الخط الأخضر مطمئنة فأنت في معيتي.

ورفع كفه نحوها لتندفع الفتاة وتقبل كفه في لهفة وحب وهي تقول:

- عشمنا كبير يا مولانا.

كانت الفتاة مبهورة بكونها قد اقتربت إلى هذا الحد من الشيخ الجليل الذي تتحدث القرية كلها عن كراماته وقدرته على فك الأعمال وشفاء المرضى ورد المطلقات وجلب الرزق، طلته المهيبة وعيناه النفاذتان وذلك العطر المدوخ الذي تضوع به ملابسه، كان يتطلع إلي عينها فى ثبات وهي تنحني لتقبل ظهر كفه اليمنى وهو يربت على كتفها بكفه اليسرى، وهنا خيل للفتاة أن هناك يدا خفية تتحسس فخذها أسفل ملابسها وشهقت عندما شعرت بيد رابعة تعتصر ثديها الأيمن، تراجعت إلى الخلف وقد شعرت بالانتهاك الممزوج بالذعر وعدم الفهم، الشيخ "فودة" يرمقها بثبات وابتسامته الآلية ثابتة على شفتيه وهو يقول:

- لقد نضجت "صالحة" وصارت عروس فاتنة يا شيخ "عتمان".

نهض من مقعده وفتح درج مكتبه ليخرج قارورة تمتلئ بسائل أخضر زيتي القوام وقطعة من القماش مثلثة الشكل وورقة صفراء مطوية ليعطيها للفتاة ويقول:

- اخلطي محتويات القارورة بـ (لتر) من الماء ليشرب منها كوبا قبل النوم، وينام وهذا الحجاب أسفل وسادته ويقوم بتلاوة العزيمة التي في الورقة ألف مرة قبل الصعود للفراش كل ليلة لمدة أسبوعين كاملين، تناولت منه تلك الأشياء في خوف وهو يرمقها بتلك النظرة التي بدأت تشعر بلزوجتها تلوث روحها.

تراجعت مع والدها إلى الخلف بدون أن تفارق عيونهم وجهه، ومع تراجعها للخلف وعقلها لم يستوعب بعد طبيعة ما تعرضت له من انتهاك شعرت بأنفاس حارة بالقرب من أذنها اليسرى مع صوت يهمس في أذنها:

- سأزورك قريبا وستستقبليني في فراشك يا امرأة.

اتسعت عيناها هلعا وهي تتطلع إلى الشيخ "فودة" الذي لم يغادر مقعده

ويده اليمنى تحرك حبات مسبحته الكريستالية، ومع خروجهما دلفت مساعدته ومالت نحوه لتقول:

- مولانا هناك خبر يتردد في أنحاء القرية أراهن أنك ستهتم به.

نهض وهو يضم برباط مطاطي رزمة ضخمة من الأوراق المالية ليقول:

- أنت دائما ما تميلي لتضخيم الأمور يا "نجاح"، لقد كانت حصيلة اليوم مجزية بحق.

ابتسمت لتقول:

- أراهن على هذا الخبر تلك المرة.

قالت عبارتها وصمتت قليلا لتضمن انتباهه الكامل بعد أن أودع النقود في خزانة خفية بالجدار خلف مكتبه. فتحرك نحوها بقامته الطويلة وجسده الممتلئ القوي بالرغم من عمره الذي اقترب من الثمانين وقال وهو يضع كفه على كتفها:

- تحدثي ولا داع للأحجيات.

- لقد جاء من القاهرة رئيس جديد لنقطة شرطة "العلوانية"، يقولون إنه طلب بنفسه أن يأتي إلي هذا المنفى الجنوبي.

هز كفيه وهو ينزع عباءته الفاخرة ويعلقها على مشجب خشبي ليقول:

- لا أحد يأتي إلى هنا بإرادته يا فتاة، وما الشيء المهم في هذا الخبر يا بلهاء؟

اتسعت ابتسامتها وهي تقول:

- اسمه يا مولانا.. اسمه "أمجد ركن الدين علوان"

صمت قليلا وهو يستوعب الاسم قبل أن تلاحظ حبيبات العرق التي نبتت بغزارة علي جبهته وهو يرتجف ويستند بكفه إلي مكتبه ليقول:

- يا للشيطان.. هذا الاسم الملعون ثانية، هل هو.....

قاطعته لتقول:

- إنه حفيد سيدنا "علوان".. قاطعها بصرخة غضب وشاهدت انقلاب ملامحه الودودة إلى ملامح شيطان وقد احتشدت لترات دمه بالكامل في وجهه حتى كاد أن ينفجر وهو يصرخ:

- الملعون نسل سلسال الملاعين.. لقد جاء بقدميه إلى حتفه.

شعرت بالرعب من غضبه فتراجعت إلى خارج الغرفة قبل أن يغلق الباب ويدير مقبض أحد أدراج مكتبه لينشق باب خفي في الجدار، فدفع الباب ودخل إلى الغرفة السرية ليتطلع إلى صورة بالأبيض والأسود مثبتة في إطار خشبي علي الجدار المقابل وسط رفوف عديدة تحمل كتبا ومجلدات كثيرة، واقترب من الصورة التي يظهر فيها رجل متين البنيان ذو شارب ضخم يبتسم للكاميرا في ثقة وظل يتأملها لدقائق قبل أن يقول في مقت:

- يبدو أن القدر يرسم لنا ملامح فصل جديد من الصراع يا مولانا وتلك المرة سننتزع أخر جذور نسلك الملعون إلى الأبد.

- الجدران ليست مجرد أحجار مكسوة بالجص والطلاء فقط، الجدران لها شخصية مستقلة وذاكرة تراكمية لا تكل، وجدران القصر لم تعتاد على وجودك بعد، فهي الآن تتطلع نحوك في شك وتسجل كل ملاحظاتها عنك في ملف مستقل.

8 – قصر (علوان) الكبير

قرية العلوانية

النوم هدف مراوغ صعب المنال يتقافز في جميع أنحاء غرفة نومه الواسعة التي خصصتها له عمته في الطابق الثاني لقصر جده، في حين اكتفت هي وابنتها "سلوى" بغرفة النوم التي في الطابق الأول والمخصصة للضيوف، الفراش كان غاية في الراحة والنظافة بطرازه القديم وأعمدته النحاسية الأربعة وقد أضافت المدفأة الحجرية التي تتألق نيرانها وسط ظلام الغرفة لمسة دفئ إلى ليل أكتوبر البارد الذي لا يرحم في بلدان الصعيد.

الماضي يطل برأسه ليرسم أمامه لوحات تستغل الظلام شبه المسطح كشاشة سينما تنعكس عليها خواطره السوداء

"هناء" ترمقه في عتاب وتسلط عليه دوما عينان تفيضان باللوم كضمير ملتهب

- "أريد أن أنجب منك طفلا أو طفلة يا "أمجد".

والده يربت على كتفه ليهمس:

- "لن أستطيع أن أجبر عمتك على بيع القصر فهي مسألة جذور وهيبة وعرض بالنسبة لها."

- "يجب أن تسحق متاعبك الأسرية بقدمك فلقد أنفقت عليك بلدك بغير حساب وهي تحتاج إلى مهاراتك الآن، تحرك أيها النقيب."

ها هو الفتى يرتجف ارتجافة الاحتضار الأخيرة والدم يتفجر من عنقه وهو ينظر لي تلك النظرة التي هي مزيج من الكراهية والخوف والاستعطاف والأمل.

***

نهض من الفراش وهو يزفر في غيظ..

أشعل سيجارة ونفث دخانها قبل أن يتذكر ما أخبرته به عمته من أن مكتب جده يحتوي على مكتبة ضخمة، فقرر أن يهبط ليقوم بانتقاء كتاب مناسب يمكن أن يصاحبه في رحلة السهر الإجباري التي يعاني منها.

ارتدى روبا منزليا وبدأ في هبوط الدرج الرخامي الداخلي وعيناه تتأملان النقوش والمنمنمات الثمينة التي يمتلئ بها السقف والأعمدة المحاطة بطبقات من النحاس والفضة في مزيج أثار إعجابه، وبدأ يفهم سبب تمسك عمته بالقصر مما تسبب في خلاف وقطيعة بينها وبين والده – رحمه الله – عرف من عمته قبل أن تفارقه إلي غرفة نومها أن القصر من الداخل حجمه صغير، فهو لا يزيد علي طابقين ويحتوي علي سبع حجرات فقط، الطابق الأول عبارة عن صالة كبيرة وثلاث حجرات، اثنان منهما للضيافة والثالثة استعملها جده كغرفة مكتب، أما الطابق العلوي فيتكون من أربع حجرات للنوم ولكل حجرة حمام ملحق بها، أما البدروم (السرداب) فكان به المطبخ والجراج وحجرات الخدم. صنعت أرضيات القصر من الرخام وخشب الأرو حيث تم استيرادها من إيطاليا وبلجيكا، وقد أصر على أن تكون الزخارف العربية الإسلامية هي وحدات الزخرفة الأساسية ليتم توزيعها على الأسقف والجدران والأعمدة كما تنتشر أيضاً على جدران القصر الخارجية والنوافذ، كانت مصممة على الطراز العربي، وهو يضم تماثيل وتحفاً نادرة مصنوعة بدقة بالغة من الخشب والنحاس والبرونز، بخلاف التماثيل المستمدة من تاريخ عدة ثقافات مختلفة. وعلى درابزين (سور) السلالم نقوش من الصفائح البرونزية دقيقة النحت. وقد صمم القصر بطريقة تجعل الشمس لا تغيب عن حجراته وردهاته أبداً،

واستخدم في بنائه المرمر والرخام الإيطالي والزجاج البلجيكي البلوري الذي يرى من في الداخل كل من في الخارج ولا يسمح بالعكس، وكان الطابق الأخير من القصر هو المكان المفضل لجده ليتناول الشاي به وقت الغروب وكان حول القصر حديقة فناء بها زهور ونباتات نادرة.

- لم تستطع النوم مثلي؟

انتفض عندما جاءته العبارة بصوت رقيق.

فالتفت ليجد "سلوى" ابنة عمته جالسة على مقعد من الطراز الذي يحتوى الجالس بالكامل في ضوء شمعدان جميل التكوين تحتسي شيئا ما في كوب خزفي.

فابتسم ليقول:

- إنها ليلتي الأولى هنا والأرق يلعب معي ألعابا غير عادلة، ولكن لماذا لم تنامي بعد؟ الساعة تجاوزت الثالثة بعد منتصف الليل.

كانت "سلوى" تمتاز بعينين واسعتين للغاية مما يخيل للناظر إليهما أنها تحتل ثلث وجهها الذي يتوسطه أنف دقيق التكوين أسفله شفتان صغيرتان كشفتي طفلة في العاشرة من عمرها، وعندما نهضت ظهرت قامتها الممشوقة التي تميل للقصر التي انتظمت منحنياتها البديعة لتصنع منها تحفة أنثوية فاخرة التفاصيل، نهضت لتتقدم نحوه وترمقه متفحصة مما جعله يشعر بعدم الراحة قبل أن تقول بصوتها ذي النبرات الناعمة المقاطع:

- أنت "أمجد" الذي كانت تتحدث عنه أمي دائما؟

ابتسم وهو يشير إلى صدره ليقول في لهجة رسمية:

- مع سيادتكم النقيب "أمجد ركن الدين علوان" الذي يشغل حاليا منصب رئيس نقطة "العلوانية" يا فندم.

نظرت له دون أن تبتسم، فتنحنح وهو يقول متظاهرا بالحرج:

- يبدو أنني ثقيل الظل بعكس ما كنت أعتقد.

كانت صامتة تماما وتنظر له مبتسمة بدون أن تجيبه فوجد نفسه يحدق في عينيها بدون إرادة ليردد بخفوت:

- سبحان الخالق المبدع.

لم تنتبه لعبارته وهي تقول:

- لماذا كنت تريد البقاء في استراحة النقطة وفضلتها على المبيت في قصر جدك؟

كان يريد أن يذهب ليقتنص كتابا ويعود لغرفته سريعا، إلا أنه وجد نفسه يعقد ساعديه أمام صدره ليقول وهو يعاود النظر إلي عينيها:

- خلاف قديم بين والدي رحمه الله وبين عمتي أدى إلى قطيعة سخيفة لست مسئولا عنها، ولم أكن طرفا فيها وعندما جئت إلى هنا برغبتي كنت أريد تأجيل اللقاء مع عمتي قدر المستطاع حتى أجد مبررات مناسبة لعدم التواصل معها طيلة السنوات التي تلت وفاة والدي، أنا معترف بخطئي ولكنها الدنيا التي تدفعنا في دروبها المعقدة ولا تدع لنا أي فرصة لصلة الرحم خاصة مع بعد المسافة بيني وبينكم.

وضعت الكوب على منضدة صغيرة بجوارها لتقول مبتسمة:

- عرفت من والدتي أنك تزوجت منذ عدة سنوات، لماذا لم تصطحب زوجتك إلى هنا؟

أشاح بوجهه وقد شعر بغصة تكاد أن تشق حلقه وصمت قليلا ليقول في خفوت:

- لقد فضلت الرحيل لتقيم بمعية رب كريم في عالم أفضل من عالمنا.

اتسعت عيناها أكثر وبدا الحزن جليا فيهما وهي تتقدم نحوه لتمد يدها مصافحة، وهي تقول:

- تقبل مني أحر التعازي وبالغ الأسف.

قالت عبارتها وأشارت إلى غرفة المكتب المغلقة لتقول محاولة أن تنتشله من أشجانه:

- ما رأيك أن أصطحبك في جولة داخل مكتبة مولانا "علوان"

أفلت أصابعها الرقيقة وهو يقول مبتسما:

- كنت أفكر في استعارة كتاب لأقرأ قليلا فلا أستطيع النوم كما قلت لك.

تقدمت أمامه إلى غرفة المكتب لتقول:

- أنا جعلت من نفسي مسئولة عن سلامة المكتبة وصيانة كتبها دوريا وقد أضفت إليها بعض الكتب والروايات.

وتطلعت إليه وهي تفتح الباب لتقول:

- هل أنت مستعد؟

قالتها بلهجة تشويقية وفتحت الباب الضخم فجأة وأضاءت الثريا العملاقة التي تتوسط سقف غرفة المكتب.

دلف خلفها قبل أن يقف في صمت تام وعيناه تتنقلان في صمت بين جدران القاعة الأربعة، كانت غرفة المكتب مستطيلة الشكل تبلغ أبعادها قرابة الخمسة عشر مترا طولا والثمانية أمتار عرضا وتغطي جدرانها الأربعة رفوف خشبية تحمل عددا مهولا من الكتب والمجلدات والمخطوطات، تحرك نحو المكتب الذي كان تحفة فريدة من الخشب المعشق وشرائط النحاس المنقوش ولمسه بيده ليعود للتجول ببصره في رفوف الكتب وظلت هي محتفظة بابتسامتها وهي تتأمل انبهاره وذهوله قبل أن تقول:

- تحتوي علي ما يقرب من الخمسين ألف كتاب ومجلد ومخطوطة، لقد تلقينا عروضا بمبالغ تصل إلى المليوني جنيه مقابل الكتب ولكن والدتي رفضت، فتراث مولانا "علوان" لا يقدر بمال.

اتجه إلى ركن المكتبة الذي يحمل لافتة صغيرة مكتوب عليها بخط أندلسي:

"الروايات والملاحم والسير"

وبدأ في تفقد العناوين ليلتقط رواية "الطوف الحجري" لـ "ساراماجو" ويربت عليها ليقول:

- سأكتفي بتلك الدرة لعلها تكون رفيقي إلى عالم النوم الوردي.

أشارت إليه لتقول:

- أحسنت الاختيار فأنا التي أضفت تلك الرواية للمكتبة وقد قرأتها عدة مرات.

هز رأسه على سبيل التحية وهو يمنع نفسه من النظر إلى عينيها ولم يستطيع أن يقاوم السؤال، فالتفت نحوها ليقول:

- لماذا لم تنامي حتى الآن؟

ظلت محتفظة بابتسامتها وهي تتأمله لتقول:

- أنا من ضيوف الليل الدائمين، لا أنام إلا بعد الشروق كمصاصي الدماء يا ابن الخال.

ضحك وهو يشير إليها بسبابته دليلا على جودة دعابتها ومال برأسه قائلا:

- أتركك الآن لتستعدي للعودة إلى التابوت المبطن بالمخمل.

اتسعت ابتسامتها وقالت بخفوت:

- قصر جدك لم يبدأ في الترحيب بك بعد، تذكر عبارتي جيدا.

ضاقت عيناه وهو يسترجع عبارتها ليقول:

- لم يبدأ في الترحيب بي! ما الذي تقصدينه؟

ابتسمت وهي تميل نحوه قائلة:

- الجدران ليست مجرد أحجار مكسوة بالجص والطلاء فقط، الجدران لها شخصية مستقلة وذاكرة تراكمية لا تكل، وجدران القصر لم تعتاد على وجودك بعد، فهي الآن تتطلع نحوك في شك وتسجل كل ملاحظاتها عنك في ملف مستقل.

- الجدران لها شخصية مستقلة؟!

- نعم

- وتمتلك ذاكرة ورفوف تحمل سجلات عن كل الشخصيات التي تعيش هنا!

- لقد بدأت تفهم الآن

كان قد وجد الأمر طريفا وأراد أن يجاريها في جنونها فقال مبتسما:

- وهل أخبرتك الجدران عن تلك الملاحظات التي دونتها في ملفي؟

اتجهت نحو أحد الجدران لتمسه بأناملها وتغلق عينيها لتقول بعد ثوان من الصمت بصوتها المنغم:

- تقول إنك شخص طيب للغاية تتظاهر بالقسوة برغم تلك الروح الشفافة التي تضمها بين ضلوعك، هناك حزن دفين يحتل أعماقك ويتسلل رغما عنك ليطل من شرفتي عينيك قبل أن يختفي فجأة كطفل شقي يلعب.

ضحك وهو يقول في سخرية لم يستطع أن يقاومها:

- وهل أخبرتك الجدران عن لوني المفضل؟

بدا إنها لم تسمعه وهي تواصل في نفس النبرات:

- وهناك دماء تلوث كفيك وتجعلك تشعر بذنب يطاردك ويمنع النوم عن جفونك ولكنك منه بريء..

كان الأمر قد بلغ ذروته فصاح في غضب:

- كفى.. توقفي عن العبث.

فتحت عينيها فلمح دموعها الحبيسة قبل أن تقول بلهجة حالمة وابتسامتها تتسع على شفتيها:

- عندما تشعر نحوك بالألفة ستبدأ أحاديثها معك، تذكر عبارتي جيدا.

قالتها ودارت على عقبيها لتبتعد نحو غرفتها فتأمل قامتها الممشوقة وخصرها البديع وثوبها الأنيق، قبل أن تلتفت نحوه لتقول:

- مرحبا بك في قصر جدك يا "أمجد".

قالتها لتدلف إلى غرفتها وتغلق الباب فمط شفتيه في عدم فهم ليهمس لنفسه:

- ما الذي تعنيه تلك المخبولة؟

قبل أن يصعد الدرج متجها نحو غرفته وهنا خيل له إنه يلمح ظلا ما على جدار الممر الذي كاد أن يدلف إليه، كان ظلا لرجل طويل القامة بطريقة غير عادية، فاعتقد لأول وهلة إنه أحد الخدم يتحرك هناك ولكنه حين وصل إلى الممر لم يجد أحدا، التفت إلى موضع الظل على الجدار فلم يجده.

فزفر ليقول في غضب:

- سأصاب بالجنون إذا لم أظفر بعدة ساعات من النوم.

قالها ودخل إلى غرفته ليبدأ رحلة مطاردة النوم المراوغ.

***

هناك من يحاولون طيلة الوقت نشر كثير من العلوم التي ضررها أكثر من نفعها، وعبر التاريخ أدرك العقلاء أن ترك تلك العلوم في أيدي العامة أكثر خطرا من بيع القنابل النووية على قارعة الطريق.

9 - الفاتيكان

ساحة القديس بطرس

أكتوبر 2005

أسراب كاملة من الحمام الأبيض تهبط لتلتقط الحبوب التي ينثرها الزوار على أرضية الساحة كان ضوء الشمس معتدلة الحرارة الرحيمة بالزائرين ينعكس علي صليب مسلة "كاليجولا" فيتألق ببريق رائع، سار مبتسما ممسكا بكاميرا تصوير ضخمة من طراز باهظ الثمن يوجه عدستها الشبيهة بالتليسكوب إلى المعالم الساحرة التي تحيط به من كل جانب وأخذ يلتقط صورا عديدة لنافورتي "ماردينو" و"فونتانا"، كان فاره القامة يرتدي سروالا من الجينز الأزرق وسترة من الجلد الفاخر البني اللون يتحرك من زاوية إلى زاوية وهو يلتقط عشرات الصور، وبحركة بدت عادية للغاية بدأ يهبط بتليسكوب الكاميرا ليفتش في وجوه الجالسين أزواجا وأفرادا على المقاعد التي تتناثر هنا وهناك حتى شاهد ذلك الرجل الستيني الذي يرتدي الزي الرسمي لكرادلة الفاتيكان يلوح له بيده مبتسما، فضغط زرا بالكاميرا قبل أن يعلقها بعنقه ويتجه نحو الرجل الذي كان يبتسم في بشاشة ويواصل نثر الحبوب للطيور التي تجمعت عند قدميه تلتقطها، صافحه ومال ليقبل ظهر كفه في تبجيل وهو يقول في احترام بالغ:

- امنحني بركتك يا أبانا الجليل.

ربت على مقدمة رأسه الصلعاء ليقول:

- بوركت يا "مانويل".. كيف حالك يا بني؟

خفض رأسه في احترام وهو يقول:

- أعتذر عن التقصير يا سيدي، ولكنه زخرف الدنيا الذي يبعدنا عن طريق الرب.

هز الرجل رأسه بمعني (هون عليك) واتسعت ابتسامته لتنير وجهه المائل إلى الحمرة ليقول:

- نحتاج إلى خدمة جديدة منك.

انتبهت حواس "مانويل" وجلس في اعتدال ليقول:

- في خدمتكم دائما يا نيافتكم.

بدأت ابتسامة الرجل تتلاشى تدريجيا وهو يقول:

- أنت بالتأكيد تعرف حساسية وظيفتي.

هز "مانويل" رأسه قائلا:

- بالطبع أنا على علم بمهام وظيفتك كقيم على مكتبة "الفاتيكان"

لوح بسبابته في وجهه ليقول:

- ما لا يدركه العامة أن مكتبة "الفاتيكان" المتاحة للزوار وضيوف الرب هي قمة جبل الجليد، فهناك مكتبة أخرى غير متاحة للجميع.

كان "مانويل" يعرف أن هناك مكتبة سرية خاصة تضم تراثا إنسانيا غير متاح للعامة، ولكنه لم يكن يعرف أكثر من الخطوط العريضة للموضوع فاكتفى بالصمت وتركه يواصل.

- هناك من يحاولون طيلة الوقت نشر كثير من العلوم التي ضررها أكثر من نفعها، وعبر التاريخ أدرك العقلاء أن ترك تلك العلوم في أيدي العامة أكثر خطرا من بيع القنابل النووية على قارعة الطريق.

ودس يده في نطاقه ليخرج علبة فضية أنيقة فتحها ليخرج سيجارة أشعلها ونفث دخانها ليقول:

-هناك الكثير من الكتب التي تباع علنا ويقبل عليها العامة معتقدين أنهم عن طريق مطالعتها وتطبيق ما بها من تعليمات سيتمكنون من السيطرة على قوانين وثوابت الكون.

كان "مانويل" يتابع كل حرف يخرج من فم الرجل بكل حواسه وكأنه يستمع إلى نصوص دينية وإن لم يتمكن بعد من فهم ما يرمي إليه.

واصل نفث المزيد من الدخان وهو يقول:

- وهم لا يعرفون أن أغلب تلك الكتب محرفة، لأننا لا يمكن أن نضع علبة أعواد الثقاب في متناول أطفالنا يا بني.

هز رأسه في فهم وتركه يواصل ما بدا له تمهيدا للموضوع الأساسي.

أشار الرجل إشارة مبهمة إلى اليسار ليقول:

- نحن نحتفظ بأغلب تلك العلوم التي استغلها البعض قديما في الشر ونعمل على دراسة بعضها في أروقة مكتبتنا السرية ولكن هناك ركنا بتلك المكتبة نطلق عليه (الركن الأسود).

وصمت لينثر بعض الحبوب للطيور ويردف وهو ينظر إليه بعينيه الزرقواتين الصافيتين:

- هذا الركن لا يجروء على الاقتراب منه إلا أشداء القلوب والراسخون في العلم من علمائنا لأنه يحتوى على علوم ومعارف يمكنها أن تحول مسار الحياة مائة وثمانين درجة إلى الأبد.

وصمت ليميل نحوه قائلا وهو ينزع منظاره الطبي عديم الإطار:

- هناك علوم سوداء يا "مانويل" وهناك علوم أخرى أكثر سوادا وقتامة من كل تخيلاتك.

بدت الحيرة على وجه "مانويل" فطبيعته العملية جعلته تواقا للتفاصيل والدخول سريعا في صلب المواضيع وبدا من حركة قدميه شعوره بالملل فحسم الكاردينال أمره عندما قرأ في عينيه تساؤلاته وقال:

- هناك عدة مخطوطات ظهرت آثارها في القرن الرابع الميلادي ثم اختفت تماما، لتظهر في منتصف القرن الماضي لفترة ولكن الفترة التي ظهرت فيها تركت آثارا رهيبة لفتت أنظار علمائنا الذين تعاونوا مع بعض العناصر ليحجموا تلك الآثار الملعونة، ثم اختفت مرة أخرى ولكن هناك مؤشرات ودلائل تقول لنا بوضوح أن تلك المخطوطات تتأهب للخروج إلى العلن مرة أخرى.

وربت علي ركبته ليقول:

- تلك المخطوطات يجب أن تحتل مكانا في الركن الأسود من مكتبتنا يا بني، يجب أن نمنع تطبيق ما بها من علم شيطاني ملعون وإلا فستكون العواقب وخيمة.

وأشعل سيجارة أخرى و"مانويل" يقول في خفوت:

- سأحضر لك تلك المخطوطات حتى ولو كانت في فم الشيطان، ولكن بالنسبة للقيود التي تفرضونها وحدود التمويل ..

أشار إليه ليصمت لينهض ويخرج مظروفا أبيض مغلف بالبلاستيك ومختوما بخاتم شمعي أحمر يحمل شعار "الفاتيكان" الرسمي ودفعه نحوه وهو يقول:

- لا توجد أي قيود ولا حدود للتمويل وكل التفاصيل ستجدها في هذا المظروف.

انحنى "مانويل" ليقبل ظهر يده اليمنى ويقول في هدوء:

- خادم الرب "مانويل" سيكون عند حسن ظنكم كعهدكم به دائما.

قالها وانصرف بقامته الفارهة ليتأمله الرجل قبل أن ترتسم ابتسامة رضا على شفتيه ويعود لنثر الحبوب أمام الطيور.

***

فنحن لا نختار مصائرنا يا "أمجد" ولكننا نولد ونحن نحمل خريطة كاملة لدروبنا التي سنسلكها، وقد قال الإمام الشافعي – رضي الله عنه – "مشيناها خطى كتبت علينا.. ومن كتبت عليه خطى مشاها."

10– قصر (علوان) الكبير

العلوانية

2005

وقف "أمجد" يتأمل مكتبة جده من جديد ولكن "سلوى" لم تكن بصحبته تلك المرة بغموضها وابتسامتها الغريبة التي تجمع ما بين السخرية والمرح، المكتبة مقسمة إلى عدد كبير من الأقسام يميزها عن بعضها لافتات أنيقة مثبتة بالرفوف، مر ببصره على اللافتات ليقرأ:

فيزياء

جيلوجيا

كيمياء

فسيولوجي

أنثروبولوجي

أديان مقارنة

ميثولوجي

فلك

علوم باطنية

لغات قديمة

روايات وملاحم وسير

تصوف

هز رأسه بغير فهم وهو يتذكر كيف صافحه "فهيم" وقبله وهو يقول:

- سيدنا وابن سيدنا وحفيد سيدنا

يتحدثون عن مقام جده الذي تحول إلى مزار مقدس بالقرية...

من هو "علوان" الكبير؟

والده لم يتحدث عنه كثيرا، كل ما عرفه أن جده كان رئيسا لنقطة الشرطة وكان ذا أياد بيضاء على كل أهل البلد لدرجة إنهم منعوهم من دفنه في "القاهرة" وأصروا على دفنه بال "العلوانية".

كيف استطاع أن يجمع ما بين عمله وبين القراءة في كل تلك المجالات؟

سحب سلما رأسيا يتحرك على عجل مخصصا للوصول إلى رفوف المكتبة العلوية وتسلقه ليسحب مرجعا قديما في علم الفلك، وهبط ليغوص بجسده في مقعد مريح للغاية وأضاء مصباحا مريحا للعينين فشعر بأنه منعزل عن العالم في جزيرة مضيئة وسط محيط من السواد.

بدأ في تقليب صفحات المجلد ليطالع صورا ملونة وخرائط قديمة مرسومة يدويا بالحبر الأسود للكواكب وللمجموعات الشمسية.

لقد مر بيوم شاق مع ساعات نوم قليلة مما جعل من المرجع الثقيل أفضل مرآة تنعكس عليها أفكاره قبل أن يجد النعاس طريقا ممهدا مفروشا بالورود إلى عينيه.

هنا وجد أن جدران المكتبة تتلاشى وهناك مساحة عملاقة من الفراغ تمتد على مدى البصر، رمال صفراء متوهجة بحرارة شمس لا تعرف الرحمة وهناك سلسلة من الجبال المرتفعة تحيط بالمشهد في قوس كامل...

ثم ظهر هو، رجل ضخم الجسد يرتدي الزي الرسمي للشرطة ويحمل رتبة عقيد (قائم مقام) - بمسميات ما قبل ثورة يوليو - ذهبية براقة على كتفيه

شعر بالارتياح والطمأنينة عندما شاهد ملامح الرجل الوسيمة وشاربه الضخم الذي زاده مهابة، كان أشيب الرأس تماما ذا وجه مربع متوهج بالدماء وملامح تشبه ملامحه تقريبا، وكان يتحدث إلي مجموعة من الضباط والجنود - الذي خيل له أن أحدهم ذو ملامح مألوفة بالنسبة له- ويشير إلى سلسلة الجبال بيساره ويمسك بمسدس حكومي ضخم بيمينه، وخيل له أن الرجل قد شاهده عندما التفت نحوه وابتسم وبدأ يتقدم إلى الأمام ليقف منتصب القامة ويقول في صوت عميق:

- أنت "أمجد" لا يمكنك أن تتصور مقدار فرحتي بلقائك كل مرة يا حفيدي الحبيب.

اتسعت عيناه وهو يحدق في ملامح جده بغير فهم وهمس في صوت خافت:

- جدي !

هز الرجل رأسه ليقول:

- جدك يا ابن "ركن الدين" الغالي، جدك الذي كان يريد أن يراك ويحملك على ذراعيه، ولكنها تصاريف القدر.

نهض من مقعده وبدأ يقترب من جده في غير تصديق ويتأمل ملامحه ليقول:

- تماما كما تخيلتك يا جدي، ولكن كيف نتحدث وجها لوجه الآن؟ أنت في معية الله الآن.

رفع جده ذراعيه ليشير إلى الفراغ الهائل حوله حيث بدأ الجنود يتحركون ليقول:

- أنا الآن في عالمي الخاص وأنت تقف على الحافة يا بني، تلك الحافة التي تفصل بين عالمينا ولكن لن يستطيع أحدنا أن يتجاوزها إلا بإذن الله.

وابتسم وهو يميل نحوه قائلا:

- تخلص من شعورك بالذنب يا "أمجد" فأنت لم تخطئ وقمت بتأدية واجبك وأنا فخور بك يا بني، لا تثريب عليك لقد أخذت بإذن الله روحا خبيثة، وقد حققت قصاص الله في الأرض.

شعر براحة نفسيه وسكينة تسرى عبر خلاياه وزفر وقد أزاح حملا ثقيلا عن صدره ليقول في همس:

- أشكرك يا جدي شكرا جزيلا فحديثك قد ضمد جرحا غائرا كان ينزف في أعماقي منذ نظرت في عيني هذا الطفل الذي سلبته حياته.

بدت السكينة على وجه الجد وهو يقول في هدوء:

- أنت الآن على بداية الطريق لتحمل مسئولية ميراث عظيم القيمة يا بني، وأنا متأكد إنك ستكون أمينا على هذا الميراث، وبدأت ابتسامة تجد طريقها إلى شفتيه وهو يميل نحوه ليقول:

- كان يجب أن نلتقي يا حفيدي العزيز، فوالدك كان ذا روح حالمة شفافة ومنذ نظرت إلى عينيه وهو في مهده وأنا أعرف إنه سيسير في دروب آخرى غير الدروب التي قررت أن أسير فيها، فنحن لا نختار مصائرنا يا "أمجد" ولكننا نولد ونحن نحمل خريطة كاملة لدروبنا التي سنسلكها، وقد قال الإمام الشافعي – رضي الله عنه – "مشيناها خطى كتبت علينا.. ومن كتبت عليه خطى مشاها."

وصمت قليلا وهو يتطلع إلى ملامحه المبهورة ليتابع وهو يتنهد في راحة انعكست على نبرات صوته:

- ولكنني رأيت عينيك تلك يوم مولدك وفي تلك العينين لمحت مستقبلا حافلا ورأيت فيك وريثي وخليفتي الذي سيحمل العهد من بعدي والذي سيكمل بإذن الله تلك المسيرة.

كانت تلك العبارات التي يلقيها جده على مسامعه ببساطة شديدة وكأنه يتحدث عن ثوابت كونية أكثر من احتماله، فهتف في ضيق لم يستطيع أن يكتمه:

- أي طريق؟ وأي عهد يا جدي؟ أرجوك أريد أن أفهم.

- أنت ضابط شرطة مثل جدك يا بني، وتحلم بمجتمع مثالي خال من الشر ترتفع رايتي العدالة والحق فوق أعلى بناية فيه وهذا هو المطلوب كبداية و..

وهنا أتي إليهم صوت طلقات رصاص وهتف أحد الضباط الذين يقفون في خلفية المشهد:

- لقد بدأوا في الاشتباك معنا يا سيدي.

التفت الجد جهة المتحدث وقطب حاجبيه ونظر في ساعة معصمه ليبتسم ويقول:

- لكل شيء وقت محدد يا بني.

وأشار لرفوف المكتبة المتعددة ليقول مبتسما:

- لقد تركت لك بين رفوف تلك المكتبة كنوزا لا تقدر بثمن، اقرأ يا "أمجد" فإن حياة واحدة لا تكفي.

قال عبارته واندفع نحو جنوده ليهتف:

- يجب أن نثبت لهم أن سلطة الدولة ستنفذ إلى أوكارهم القذرة.

قال عبارته الحماسية وهو يتقدم القوة نحو سلسلة الجبال، "أمجد" كان يشاهد ما يحدث أمامه في غير فهم ومع تحول المشهد أمامه إلى ساحة اشتباك وجد نفسه يهب من مقعده ويندفع نحو الحدود الفاصلة بينه وبين الصحراء فدار جده بوجهه لينظر إليه مبتسما ويده تشير نحوه ليتوقف وهنا شاهد جسد جده يرتج في قوة وعدد كبير من طلقات الرصاص تخترق صدره وبطنه والعجيب أنه ظل محافظا على ابتسامته

صرخ "أمجد":

- جدي ... لاااااااااا

صرخ وصرخ لينتفض عندما أمسكت يد بذراعه فنهض من مقعده ليتلفت حوله وهو يلهث بقوة ليجد "سلوى" تقف أمامه ممسكة بكوب من الماء فتناوله منها ليجرعه دفعة واحدة فسالت خيوط من الماء علي عنقه وصدره ليقول مضطربا:

- ما الذي حدث؟

هزت كتفيها وقد ارتسمت نفس الابتسامة الهادئة على شفتيها وقالت:

- لقد دخلت منذ نصف ساعة تقريبا لتستعير كتابا من المكتبة ويبدو أنك استغرقت في النوم ورأيت في المنام ما أفزعك.

هز رأسه وانحنى ليتناول ذلك المرجع الثقيل الذي سقط أرضا بجوار مقعده ليقول:

- بالفعل لقد أحضرت هذا الكتاب لأطالعه واستغرقت في النوم ورأيته....

قاطعته وهي تقول في لهفة:

- رأيت "علوان" الكبير؟

ضاقت عيناه وهو يقول في دهشة:

- لقد رأيت جدي بالفعل في حلم عجيب، كيف عرفتي؟

تناولت منه كوب الماء الفارغ ومالت نحوه ليصل إلى أنفه عطرها الرقيق الذي وجده مألوفا بشكل ما لتقول وهي تبتسم تلك الابتسامة التي تزعجه دائما:

- لقد توقعت عندما رأيتك تدخل طواعية إلى القصر إنك ستلتقي به، ولكن الأمر حدث بسرعة لم أتوقعها. واقتربت منه لترفع أناملها وتمسك بذقنه المربعة وتتطلع إلى عينيه البنيتين.

لمح نظرة عجيبة في عينيها الواسعتين رأى فيها مزيجا من الشفقة والرهبة والغيظ، ذلك المزيج العجيب الذي يليق بشخصية غريبة الأطوار

كشخصيتها، ورغم حيرته شعر بالسكينة والسلام يتسللان إلى أعماق روحه مع ملامسة أناملها الرقيقة لوجهه قبل أن تقول في همس:

- هناك روح قلقة غير مستقرة تستقر في أعماقك يا ابن الخال، نغماتها بدأت في التوافق مع نغمات القصر وستعزفان مقطوعتكم الموسيقية معا ولكن اخبرني ماذا قال لك؟ ولماذا كنت تصرخ؟

نظر إليها وشعر أنها تخفي عنه الكثير وبدأ يعتقد إنها مستمتعة بحيرته وبهالة الإبهام التي تحيط بها نفسها فقرر أن يهديها القليل من الحيرة فترك لها المرجع الضخم واتجه نحو الباب قائلا:

- من الواضح إنك على علم بكثير من الأشياء التي أجهلها، حاولي أن تستنتجي سبب صراخي.

ولمح تلك التقطيبة التي ارتسمت على وجهها وهو يغادر غرفة المكتب.

***

هناك أساطير وأساطير، أساطير تجدها مرتبة أبجديا في مراجع أكاديمية يمكنك أن تطلع عليها بسهولة، وهناك أساطير يتناقلها الأفراد شفاهة وتحكيها الجدات لأحفادهن ليلا قبل النوم كنوع من أنواع التهويدات لتستقر في وجدانهم إلى الأبد.

11 - الرحمانية قبلي

نقطة شرطة قرية العلوانية

20 أكتوبر 2005

كان يقف كمثال مجسد للبؤس والضياع بجلبابه الذي حال لونه وتمزق نسيجه في أكثر من موضع، شعره مشعث وهناك تورم في إحدى عينيه شبه المغلقة.

نهض "أمجد" من خلف مكتبه وأمسك بفك الرجل الأربعيني الواقف أمامه ليتفحص وجهه ويقول:

- من الذي قبض عليه؟

شد شرطي يحمل رتبة عريف قامته وهو يقول:

- أنا الذي ألقيت القبض عليه يا سيادة النقيب، مع سيادتك العريف "مليجي".

رمقه بنظره نارية جعلته يتراجع في خوف وهو يتقدم منه قائلا:

- هل لطمته على وجهه مما تسبب في تلك الكدمة التي تغلق عينه؟

خفض الجندي رأسه ونظر إلى الأرض.

فصاح "أمجد":

- ستجمع كل زملائك وتخبرهم أن رئيس النقطة الجديد ضد ضرب المتهمين تماما، وكل من سيعتدي على متهم بالضرب سأقدمه لمحاكمة عسكرية.

أدى العريف التحية العسكرية هاتفا:

- أوامرك يا معالي الباشا.

التفت إلي ذي الجلباب وتأمله قائلا:

- لماذا سرقت قفص الدجاج يا "صميدة"؟

ارتجفت قسمات وجهه وهمس في ذل:

- الجوع يا معالي الباشا، لدي خمسة من الأطفال وأنا عامل باليومية ولم أجد عملا منذ ثلاثة أيام.

مط شفتيه ليخرج حافظة نقوده ويتناول منها عدة أوراق مالية ليعطيها لـ "صميدة" الذي انحنى ليقبل يده فمنعه وهو يربت على كتفه ويقول:

- اشتر لأسرتك طعاما وأريد منك أن تأتي لتنظف النقطة يوميا فلقد حصلت على وظيفة فراش النقطة.

رفع الرجل كفيه بالدعاء وهو يبكي:

- أطال الله عمرك يا كبيرنا، ورحم الله جدك.. مولانا الذي نعيش بكرمه.

أشار له لينصرف فهتف "مليجي" مستنكرا:

- ولكنه لص يا معالي الباشا:

ضحك ووضع يده على كتفه ليقول:

- تريد أن تحيل للنيابة رجلا سرق عدة دجاجات ليطعم أطفاله، اذهب وتناول كوبا من الشاي الحبر مع زملائك وبلغ الصول "فهيم" أنني أريده.

انصرف العريف ليشعل "أمجد" سيجارة ويتطلع إلى خارج النافذة قبل أن يدخل "فهيم" ليؤدي التحية العسكرية ليقول:

- أوامرك يا معالي الباشا.

أشار إليه ليجلس ورفع علبة السجائر نحوه فابتسم العجوز ليتناول سيجارة وأشار له ليشعلها فأشعلها ليقول له في ود:

- كنت تعمل مع جدي رحمه الله؟

ابتسم وهز رأسه ليقول:

- كنت برتبة نصف عسكري عندما تطوعت للعمل بالشرطة وعاصرت آخر سنة من رئاسة جدك لنقطة شرطة "العلوانية" قبل استشهاده.

- وكيف أصبحت على صلة قوية بعمتي لدرجة إنك سربت لها خبر قدومي بتلك الطريقة؟

خفض العجوز عينيه ليقول:

- إنها سيدتنا كلنا وبنت سيدنا ونحن جميعا في خدمتها ولا يمكن أن نتسبب في غضبها، هل كنت تريدني ألا أخبرها فتغضب وتحل على اللعنة في التو واللحظة.

كان "أمجد" يريد أن يتحدث إلى شخص يثق به وشعر أن "فهيم" محل ثقة فقال:

- لقد رأيت جدي في حلم غريب أمس..

قاطعه بصيحة فرح مفاجئة:

- الله أكبر هذا فضل من الله ومنة يا باشا، سيدنا لا يظهر في الرؤى إلا للصالحين، وهل تحدثت إليه؟ وماذا قال لك؟

نفث دخان سيجارته ونهض ليدور حول مكتبه ليجلس على المقعد المواجه لمقعد "فهيم" ويقول:

- جدي كان يقود حملة نحو سلسلة من الجبال وكانت معه قوة من الجنود والضباط وكان بينهم رجلا يحمل نفس ملامحك.

ابتسم وأغلق عينيه وهو يقول:

- لقد رأيت والدي يا باشا، المساعد أول "حمزاوي" أكثر من رافقوا مولانا "علوان" في حملاته الأمنية وهو الذي جعلني أتطوع للخدمة في الشرطة.

- هل والدك مازال على قيد الحياة؟

أشار إلى الخارج ليقول محافظا على ابتسامته:

- يجب أن نذهب لنقص عليه رؤيتك بالكامل يا باشا، فهو بحمد الله مازال علي قيد الحياة رغم بلوغه الثمانية والثمانين من العمر، وهو يقضي يومه بالكامل في الجامع الكبير جوار المقام وأعود به ليبيت سواد الليل في المنزل قبل أن يعود للجلوس بجوار حبيبه مولانا "علوان".

كان "أمجد" منذ أن جاء إلى الصعيد هربا من مطاردة الذكريات وهو مطارد بتراث غامض لجد يقدسونه ويضعونه في مصاف أولياء الله الصالحين، كان يلمح نظرات الحب والود في عيون كل من يراه، والمشكلة الأساسية أنه لم يكن من المؤمنين بالأولياء والمقامات وتقديس الأعتاب فحاول في البداية أن يتفادى الحديث عن جده وما ينسبونه له من معجزات، ولكن ما حدث في الليلة السابقة وذلك الكابوس الذي مر به جعله يشك أن هناك شيئا ما غير مفهوم يحدث.

تذكر مشهد إطلاق الرصاص ونظر إلي "فهيم" وقال:

- لقد تم غربلة جدي برصاص مدفع آلي حرفيا في الحلم أو الرؤيا كما تسميها، هل تلك هي الحادثة التي استشهد فيها؟

صمت قليلا ليقول وقد بدت الدموع في عينيه:

- بالتأكيد فقد كان مقداما يتقدم الصفوف ويضرب لنا أكبر الأمثلة للفداء والتضحية.

ونفث دخان السيجارة قبل أن يقول:

ما بين عامي 1954 و1965 عانت قرية "بطن الجبل" وعدد كبير من القرى المجاورة من هجمات منظمة بدأ يشنها المطاريد الذين يختبئون في الدروب المعقدة المجهولة للجبال المحيطة بالقرى، كانوا يهبطون ليروعوا الأهالي ويفرضوا الإتاوات ويسرقوا الماشية، وقتها قيل إن الذي يتزعمهم يدعى "عزت دهلوك" و"عزت" هذا كان من عتاة القتلة المحترفين وقد حكم عليه غيابيا بالإعدام ست مرات، وقد بلغ بهم وقتها الفجر ذروته عندما قررت مجموعة منهم أن يهبطوا ليعيشوا في مجموعة من المنازل بالقرب من سفح الجبل، وقد هجموا بالفعل على مجموعة من المنازل وطردوا سكانها واحتلوها.

"علوان" باشا - رحمه الله – كان يخطط لشن هجمات منظمة بالتعاون مع قسم "نجع حمادي"، وعندما علم بهبوط المطاريد إلى حدود القرية قرر أن يتحرك بنفسه بدون انتظار الدعم من المركز، وهنا بدأت أول صداماته مع عصابات "عزت دهلوك"، تلك الصدامات التي انتهت باستشهاده.

نظر له "أمجد" نظرة فاحصة وهو يقول:

- جدي كان يحمل رتبة عميد عندما استشهد ولقد رأيته في الرؤيا يحمل رتبة عقيد، رأيته يسقط وقد اخترق جسده ما يقرب من الخمس عشرة طلقة ولقد تعافى بعدها ليعيش بكامل صحته ليستشهد عندما وصل لرتبة عميد، كيف حدث هذا؟

وصمت وهو ينظر إليه، فرفع "فهيم" كفيه إلى السماء وهو يهتف:

- مدد يا سيدي "علوان" مداااااااد.

قال الكلمة الأخيرة وهو يمطها كالمجذوبين، مما جعل "أمجد" يصيح في غضب:

- كف عن جهلك الذي تجاهر به، أريد إجابة لسؤالي.

صمت "فهيم" ونهض من مقعده ليميل نحوه ويقول وقد التمعت عيناه بدموعه:

- سيدنا "علوان" كان رجل ذا معجزات يشهد بها كل أهل القرية.

وصمت متأثرا ثم قال وهو يرتجف:

- لقد كنا نطلق عليه "أبو الكرامات".

لم يستطع أن يقاوم فضوله فقال في عصبية:

- ما طبيعة تلك الكرامات التي رأيتموها في جدي؟

مال "فهيم" نحوه ليقول همسا:

- كان مستجاب الدعوة مما جعل رؤوس العائلات تخشى غضبه وخاصة بعد دعائه على العمدة "أبو راجح"

زفر "أمجد" في ضيق ليقول:

- أريد وقائع محددة.. ماذا فعل أمامكم؟ هل طار في الهواء أو مشى على الماء؟

- لقد استطاع أن يشفي الكثير من المرضى الذي يأس الأطباء من شفائهم وهزم الموت عدة مرات حتى كدنا نصدق إنه لا يموت.

هتف في استنكار:

- هزم الموت! هل جننت؟

نظر الشرطي المسن إليه في أسى وحزن وهو يقول:

- القرية كلها تعرف عنه أنه قام من الموت عدة مرات، ومنذ وفاته وحتى الآن صارت قصته ملحمة ترويها الجدات لأحفادهن، وعندما يكبر الأحفاد ويتزوجوا وينجبوا أطفالا سيتعلم هؤلاء الأطفال تلك الملحمة لتظل خالدة أبد الدهر في القلوب.

نظر له في غير تصديق وكاد أن ينفجر في وجهه قبل أن يقول:

- هل هذا كل شيء؟

تلفت "فهيم" حوله قبل أن يهمس بخوف:

- ورآه أهل القرية جميعا وهو يتصدى للعفاريت والشياطين ويهزمهم.

- عفاريت وشياطين..

قالها وعاد إلى خلف مكتبه واستند بذقنه إلى قبضتيه ليقول في صوت قوي:

- أريد ملف خدمة جدي وملفه الطبي.

هز كتفيه ليقول في حيرة:

- لن تجد ملفا لجدك لدينا بالطبع، ولن تجده في "نجع حمادي" نفسها لقد مضى أربعون عاما علي استشهاده، قد تجده في مديرية أمن "قنا".

أشار إليه لينصرف ومشهد الرصاصات التي اخترقت جسد جده لا يزال يطارده وفكرة السفر إلى مديرية أمن "قنا" بدأت تلح عليه بقوة.

***

كتب التاريخ مليئة بالحقائق الناقصة، والمؤرخ يتعامل مع الأحداث التاريخية كالمصور الفوتوغرافي الذي يصور المشهد من زاوية واحدة فقط، وهنا تظهر أهمية الرواية التي تطالعها الآن لأنها تظهر لك الصورة كاملة مجسمة بكل تفاصيلها المخيفة.

12 – قنا

نجع حمادي

نقطة الشرطة

بالقرب من قرية "حمرة دوم"

1947

دلف شرطي يحمل رتبة شاويش إلى مكتب رئيس النقطة وأدى التحية العسكرية بثبات ليقول:

- الأستاذ الخوجة/ "راغب أندراوس" يريد أن يقابلك يا جناب المأمور.

كان الضابط الشاب يجلس في اعتدال خلف مكتبه بجسده الرياضي وشعره الأسود المصفف إلى الخلف وشاربه الضخم الذي حرص على تصفيفه جيدا فبدا مناسبا لمنصبه ورتبته التي تلتمع على كتفيه العريضين.

أشار له قائلا:

- دعه يدخل يا شاويش"حمزاوي"، فالأساتذة على عيوننا ورؤوسنا.

مضت دقيقة ليدلف رجل نحيل القوام يرتدى حلة كاملة ورابطة عنق خضراء زاهية اللون، وقد حرص على كي الطربوش الذي يرتديه فبدى غاية في التأنق وإن ترك لحيته شبه نامية وتقدم نحو المكتب لينهض الضابط ويدور حول مقعده ويصافحه ويشد على يده في احترام وهو يقول:

- أستاذنا "راغب" أيها الرجل الفاضل، كيف حالك؟ لقد أنرت القسم والله، كيف تحب قهوتك؟

تخلص الرجل من توتره وجلس حيث أشار الضابط الذي طلب من أحد الجنود قدحين من القهوة المضبوطة وختم عبارته:

- من البن المخصوص الذي أشرب منه صباحا.

ونظر إلى "راغب" ليقول:

- ستعجبك قهوتنا جدا.

ابتسم الرجل وساعده ترحاب رئيس النقطة على الاسترخاء قليلا قبل أن يقول:

- هناك شيء ما قد حدث ورأيت أنه من الواجب علي كمواطن مصري صالح أن أبلغكم.

ابتسم الضابط وربت على ركبة الأستاذ قائلا:

- أنت رجل محترم يا مقدس "راغب" والبلدة كلها تشهد بذلك، تحدث بدون قلق فكل مشكلة ولها حل.

جاءت القهوة فبدأ يرشفها على مهل ليقول:

- شقيقان من عائلة "السمان"، "محمد على السمان" و"خليفة على السمان" وجدا بالصدفة أثناء البحث عن السماد بسفح جبل "الطارف" زلعة كبيرة مدفونة هناك على عمق متر تقريبا، في البداية اعتقدا إنها مسكونة بالجن وكادا أن يتركاها ولكن "محمد" قرر أن يفتحها بأي طريقة عسى أن يجد بها ذهبا أو مجوهرات مدفونة بها، فقاما بكسر الزلعة وأصابهما الإحباط فقد كانت مليئة بالمجلدات والمخطوطات القديمة ولم يعرفا قيمة تلك المخطوطات في البداية لدرجة إنهما قالا لأمهما أن تستعمل المجلدات لإشعال نار الفرن.

نهض الضابط من مقعده المواجه له ليعود إلى مقعده الكبير خلف مكتبه ورشف ما تبقى من قدح قهوته ليبدأ في تدوين ملاحظات بقلمه وأشار له ليكمل وهو يبتسم له ليطمئنه.

هز "راغب" رأسه وواصل:

- ومن الواضح إنهما انتبها لأهمية المخطوطات لأنهما عهدا بها إلى القس "باخوم" زوج أختي لثقتهم في أمانته، وقررا مغادرة القرية اليوم لأنهم هاربين من ثأر مع عائلة "مساعد" وقد عرفا أنهم على وشك التوصل إلى مكانهما.

قلب كفيه ليقول:

- لقد انتهت المشكلة إذن، المخطوطات مع أبونا "باخوم" ويجب أن يتم تسليمها لوزارة المعارف لتحديد أهميتها.

- لقد قررت أن أسافر إلى القاهرة غدا فأنا أعتقد أن المخطوطات مكتوبة باللغة القبطية فسأصطحب أحد المخطوطات معي إلى صديقي الدكتور "جورج صبحي" المتخصص في اللغة القبطية لنحدد مقدار أهمية المخطوطات [1]

ولكنني جئت لسيادتك في أمر آخر.

أشار له ليكمل.

- أنا وزوج أختي نعتقد إنهم يحتفظون بعدد آخر من المخطوطات وسيصطحبوه معهم في رحلة هروبهم.

نهض رئيس النقطة وصاح:

---

[1] (1) الأسماء التي ذكرت تقريبا حقيقية ولكن الأحداث بعد رقم (1) من خيال المؤلف، ففي عام 1947 وجد "محمد السمان" مع شقيقه بالصدفة تلك الجرة التي احتوت علي ما عرف بعد ذلك بمخطوطات "نجع حمادي" التي تم ضمها إلى المتحف القبطي بعد جمعها من عدة مصادر وترجمتها لتلقى الضوء على الديانة المسيحية في تلك الفترة المبكرة من تاريخ مصر، ويمكن مطالعة تفاصيل تلك المخطوطات في العديد من المراجع ومواقع الإنترنت.

- شاويش "حمزاوي" قم بتجهيز سيارتي وأطلب من العسكري "أبو راسين" أن يستعد فسنتحرك إلى "حمرة دوم" فورا.

وخلال ساعة كان الركب قد وصل إلى المنزل الذي دلهم على مكانه الأستاذ "راغب"، فطرق الضابط الباب بقوة وهو يصيح:

- افتح الباب يا "محمد" باسم القانون.

وقف الشاويش "حمزاوي" شاهرا بندقيته الضخمة في حين اكتفى العسكري "أبو راسين" بالجلوس بالسيارة الحكومية الطراز.

مضت دقيقة قبل أن يفتح الباب رجل في الخمسينيات يرتدي جلبابا قديما بهت لونه وبدا متهدلا عليه وكأنه يرتدي مقاسا أكبر من مقاسه مرتين.

تراجع إلى الخلف وهو يقول في جزع:

- ماذا هناك يا سعادة الباشا؟ نحن نعيش في ظل القانون ولم ....

قاطعه وهو يدخل إلى الدار ليتأمل تفاصيلها الفقيرة وأنتقى مقعدا سليما ليجلس ويشير للشاويش "حمزاوي" بالوقوف بالباب وقال:

- أرى أنكم تحزمون متاعكم.

قالها وهو يشير إلى عدد من الصناديق الخشبية المليئة بالمتاع وأواني الطهي.

- لقد جئتكم الآن لتتريثوا لأن "ضاحي مساعد" قد جمع رجاله وفي طريقه إلى هنا.

تراجع الرجل في فزع وخرج من غرفة داخليه رجل يشبهه وهو يهمس في جزع:

- سعادة البك نحن جنحنا للسلم ونريد الرحيل قبل أن تتفجر شلالات الدم، أرجوك نحن لم نرتكب أية أخطاء، ماذا تريد منا؟

نهض واقترب من الرجل ليمسك كتفيه وهو يقول:

- أنت "محمد السمان" أليس كذلك؟

هز الرجل رأسه في خوف وهو ينظر بعينيه اللتين تشبهان عيني الأسد في عينيه ليقول:

- تريد أن ترحل قبل وصول "ضاحي" ولكنني لن أسمح لك بالرحيل قبل أن تخرج من متاعك ما أخفيته من المخطوطات التي سرقتها والتي وجدتها في الزلعة التي قمت بكسرها.

فغر الرجل فاه في ذهول وهو يقول بصوت مرتجف:

- أية مخطوطات يا سعادة الباشا، لا أعرف عما تتحدث فأنا .....

جذبه من مجامع ثوبه وهزه في عنف وهو يصيح:

- تريد أن تسرق ممتلكات الدولة وأنا أحافظ على الأمن في تلك البلدة، أين المخطوطات التي أخفيتها ولم تعهد بها إلى أبونا "باخوم"، وإلا قسما بالله سألقي بك في زنزانة أنت وشقيقك وسأضع معكم كل أفراد عائلة "مساعد" وأترككم ليلة كاملة.

شهق وصاح شقيقه "خليفة":

- يا روح ما بعدك روح يا "محمد"، سعادة الباشا يعرف كل التفاصيل.

بدا في عينيه الخوف والاستسلام وتراجع نحو المتاع المحزوم ليخرج لفافة من القماش قدمها للضابط الذي فض طياتها ليخرج غلافا من الجلد المدبوغ يضم عددا المخطوطات الصفراء والبنية اللون.

نظر لهما في صرامة وقال:

- ولماذا قمتم باختيار هذا المغلف بالذات ولم تتركوه خلفكم؟

همس "خليفة":

- كان مختلفا في الشكل عن باقي المجلدات وكنا نعتقد إنه ثمين بما يكفي لبيعه وإنفاق ثمنه على مسكننا الجديد الذي سننتقل إليه.

أشار إليهما ليقول:

- أريدكما أن ترحلا في اتجاه "الأقصر" قبل غروب الشمس فلا أريد أية نزاعات ثأرية في منطقتي، هل تفهمان؟

هزا رأسيهما في استسلام. وفي السيارة ومع جلوسه في المقعد الخلفي كان المأمور يتصفح المخطوطات وقد بدا عليه الاهتمام الشديد حتى أنه لم ينتبه للعسكري "أبو راسين" وهو يتحدث إليه مما اضطره أن يرفع صوته فانتبه له المأمور وهو يقول:

- هل سنعود إلى القسم يا "علوان" باشا؟

نظر "علوان" إلى المخطوطات ليقول في خفوت:

- لا عد بي إلي القصر يا "أبو راسين" فأنا مرهق للغاية، قال عبارته وعاد لتأمل المخطوطات في اهتمام بالغ.

***

عندما تقرر أن تنقب داخل سراديب الماضي السحيق عليك أن تتذكر القاعدة التي تقول:

"هناك من الحقائق ما يجب أن تظل بعيدا عن أعين العامة، لأن العالم لن يحتمل أن يتعامل مع ما ستكشف الغطاء عنه."

13 - نقطة شرطة العلوانية

الرحمانية قبلي

30 أكتوبر 2005

جلس "أمجد" يدخن سيجارة وينفث دخانها في ضيق وبدأ يلوح بكفه في غير رضا وهو يتحدث إلى شخص ما في الهاتف الحكومي الأرضي:

- نعم ملف خدمة العميد "علوان عوف الأصيل".. لا لقد بدأ حياته كضابط في قسم "نجع حمادي" واستشهد سنة 1965 وهو يشغل منصب رئيس نقطة "العلوانية".. نعم الاسم بالكامل "علوان عوف الأصيل".. نعم مقدم الطلب هو "أمجد ركن الدين علوان" رئيس نقطة "العلوانية" الحالي.

صمت قليلا وهو يستمع لمحدثه ليصيح في غضب:

- ستجده، أعرف أن هناك أربعين عاما قد مضت ولكننا في مصر، هناك نسخ من كل الملفات موجودة في عدة أماكن، لا لست منفعلا أنا في كامل اتزاني الانفعالي.. سأنتظر أن تخبرونني أنكم وجدتموه.

أنهى الاتصال وهو يزفر محاولا السيطرة على أعصابه، ليرفع هاتفه المحمول ويبحث عن رقم ما ثم ترك الهاتف على مكتبه في تردد وهو يحدق في حروف الاسم الذي أمامه، قبل أن يحسم أمره ويضغط زر الاتصال ليقول مبتسما:

- سيادة المقدم "شريف" لقد أوحشتني للغاية، صدقني بعض المشاغل هي التي منعتني عنك وعن الاتصال بك.

ضحك وهو يتلقى دعابة خشنة من رئيسه السابق، فقال:

- رئيسي وأخي الأكبر ويحق له أن يسبني.

وضحك ثانية وصمت قليلا ليقول:

-أريد منك خدمة لقد تحدثت إلى إدارة الأرشيف في مديرية أمن "قنا"، أريد ملف جدي الخدمي والطبي لهدف ما، وهم هناك يقولون أن هناك أربعين عاما قد مضت منذ أستشهد ويؤكدون أن الملفات قد تم إعدامها، نعم الأمر مهم جدا بالنسبة لي وأريد تدخل "القاهرة"، أشكرك يا سيدي.. ألف شكر.

وضع هاتفه جانبا.

وسمع طرقات على بابه قبل أن يدخل الصول "فهيم" وهو يلهث ويؤدي التحية العسكرية قبل أن يضع ورقة رسمية أمامه ويقول في صوت مختنق:

- لقد جاءت الورقة من "نجع حمادي" لتوها.

قرأ الورقة لينهض ويضع مسدسه الحكومي في نطاقه ويقول:

- إنه طلب عاجل بإلقاء القبض على دجال ما يدعى "فودة الديناري"، جهز السيارة والقوة بسلاح خفيف.

نظر إلى "فهيم" فوجده يرتجف حرفيا فقال مستنكرا:

- هناك ما تعرفه ولا تريد أن تفصح عنه أليس كذلك؟

تقدم "فهيم" نحوه ليقول في صوت منخفض:

- منذ أيام ذهبت فتاة تدعى "صالحة" مع والدها المسن "عتمان" إلى الشيخ "فودة" وهو ليس دجالا - معاذ الله – ولكنه رجل مبروك، وقد أعطاها علاجا ما لأن الطب عجز عن شفاء والدها، وقد أبلغت القسم في

محضر رسمي وهي منهارة تماما أن والدها تناول علاج الشيخ "فودة" ليغرق في نوم عميق، وعندما صعدت إلى فراشها لتنام ...

قطع عبارته فصاح به:

- تحدث فاليوم بدأ بداية سيئة وأريد أن أنتهي منه بأي طريقة.

قال في تردد:

- الفتاة تقول إنها وجدت الشيخ "فودة" في حجرتها رغم أنها غلقت كل الأبواب، وحسب روايتها فلقد سيطر عليها بطريقة ما و.. واغتصبها طيلة الليل قبل أن تفقد وعيها وفي الصباح توجهت إلى المستشفي ومن هناك اتهمته في محضر رسمي و...

صاح "أمجد" في غضب هادر:

- لص الأعراض الحقير.. هيا بنا.

- الشيخ "فودة" يمتلك حراسة قوية مسلحة وهناك العديد من المريدين يحيطون ببيته وليس من الحكمة أن نذهب إليهم بقوة مسلحة، وأرى أن العقل يحتم علينا أن نستدعيه استدعاء رسميا ليحضر بنفسه أو نطلب دعما من المديرية..

منع "أمجد" نفسه من الانفجار في وجه الشرطي المسن فخفض بصره وقال:

- اذهب وسلح القوة بالمدافع الآلية. فسيبيت هذا الدجال ليلته بالحجز مثل النشالين.

كان "أمجد" يشعر بعدة مشاعر متضاربة أثناء جلوسه مرتديا قميصه الواقي من الرصاص في طريقهم نحو أطراف القرية، الرؤيا التي شاهد فيها جده يمزقونه بالرصاص وملف الخدمة الذي لم يجده حتى الآن وحديث القرية كلها عن جده وكرماته والآن ذلك الدجال الذي يتحدث عنه "فهيم" بخوف.

ومع اقترابهم من القصر الذي يعيش فيه الشيخ "فودة" وجدوا حلقة كاملة من أهالي القرية تحيط به، فتوقف العسكري "محمدين" بالسيارة ليهبط منها "أمجد" والعريف "مليجي" والصول "فهيم" الذي صاح بهم بصوت جهوري قوي:

- تفرقوا فنحن في مهمة رسمية.

التفت إليهم عشرات الرجال وبدوا في حالة غير طبيعية من التوتر والترقب ولاحظوا أن بعضهم يحملون العصي الغليظة وبعضهم يحملون أسلحة بيضاء تشبه السيوف.

مال "فهيم" نحوه ليهمس:

- ليس من الحكمة أن نشتبك معهم.

نظر له "أمجد" في غير تصديق وهز رأسه وهو يقول:

- أنا لا أصدقك فأنت تؤثر السلامة والانسحاب على أن تواجه مجموعة من الغوغاء.

وضحك ضحكة قصيرة ليفرغ توتره وأردف:

- أذهب إلى "إنجلترا" للتدريب على مكافحة الإرهاب واقتحام الأوكار المفخخة وأنتم هنا تريدون أن تعودوا إلى النقطة كي لا تشتبكوا مع عدد من أتباع هذا الأفاق.

همس "فهيم" وهو ينظر له متوسلا:

- قوانين القرية وأعرافها وعاداتها مختلفة تماما عن "القاهرة" يا باشا، وسيدنا "علوان" كان يعرف هذا جيدا.

- الحق والعدل لهم قوانين ثابتة في كل مكان يا حضرة الصول.

قال عبارته وانتزع مدفع "مليجي" وتحرك نحو الرجال مباشرة وصاح:

- أمامكم النقيب "أمجد ركن الدين" رئيس نقطة الشرطة والرجل الذي تحاولون حمايته يعمل بالدجل والشعوذة وقد انتهك عرض فتاة بريئة ويجب أن يمثل أمام النيابة، وأنا ممثل القانون والدولة في تلك القرية وسأدخل وأصطحبه معي إلى النقطة لأنه لص أعراض حقير.

قال عبارته ونظر في عيونهم ليرى التردد في بعض العيون، فرفع المدفع فوق رؤوسهم وأطلق سيال متصل من الرصاصات التي بدى صوتها كهزيم الرعد وسمعوا صوت صراخ عدد من النساء وفوارغ الطلقات تتساقط علي رؤوسهم وصاح "فهيم":

- إطلق الرصاص يا "محمدين".

وصوب مدفعه وتبعه "محمدين" فوق الرؤوس لتدوي أصوات الرصاصات من جديد فبدأت الحلقة تتشتت وبدأ الرجال يبتعدون عن المدخل المؤدي إلى الحديقة ليظهر عدد من الرجال المسلحين ليصيح قائدهم:

- تراجع يا صول "فهيم" واخبر ذلك الشاب حديث الخبرة أن "القاهرة" تختلف عن "العلوانية"، والقوانين التي جاء بها يجب أن ينتزعها من رأسه كما ينزع حذاءه قبل دخول المسجد، فأسلحتنا مرخصة ولن يخرج الشيخ "فودة" بتلك الطريقة حتى ولو سالت الدماء أنهارا.

أشار إليهم "أمجد" ليتراجعوا وألقى بالمدفع لـ "مليجي" ليخرج مسدسه ويعبر باب الحديقة ويتطلع إلى المسلحين ويبدأ في حصر أماكنهم ليقول:

- قبل أن أحضر إليكم كنت في مهمة لاقتحام وكر إرهابي ولعلمكم لقد كنت أعمل بفريق للتدخل السريع وهذا المصطلح يطلق على القوات التي يدفعون بها عندما تفشل الأساليب التقليدية، لأننا عندما نتدخل لا نترك خلفنا إلا جثثا هامدة.

قطع عبارته ليضحك ويشعل سيجارة وهو يهتف:

- لقد جئت إلى هنا باختياري ليسهم جو الريف في تهدئة أعصابي.. تخيلوا!

نفث دخان سيجارته وواصل تقدمه نحوهم ليقول:

- إنها آخر فرصة فاغتنموها.. قطع عبارته ورفع مسدسه وصوبه نحو قائد فريق الحراسة وقبل أن يتخذ أي منهم أي رد فعل كان قد أطلق أربعة رصاصات في أربعة اتجاهات في أقل من ثانيتين ليسقط القائد وثلاثة من رجاله يتشحطون في دمائهم وهم يطلقون صيحات ألم رهيبة.

ألقى الثلاثة الباقين أسلحتهم ليرفعوا أيديهم فوق رؤوسهم ليصيح "أمجد" استدعوا سيارة إسعاف للمصابين وقيدوا الثلاثة الباقين وألقوا بهم في صندوق السيارة.

كان الجميع ينظرون إلى ما قام به وقد بدا لهم كأحد معجزات الأولياء ليهتف "فهيم":

- الله أكبر.. إنه حفيد سيدنا "علوان".. الله اكبر.

نظر له "أمجد" نظرة نارية فقطع عبارته، فتقدم نحو بوابة القصر وهو يصيح:

- يا شيخ "فودة" لا داعي أن تدفعني لهدم بوابة الفيلا على رأسك لألقي القبض عليك.

وهنا شعر بغصة قوية تعتصر حلقه وشهق وقد خيل له أنه يرى ظلا ضخما يشبه تماما الظل الذي لمحه من قبل في الممر المفضي إلي غرفته في القصر، كان الظل تلك المرة يشبه ظل غوريلا عملاقة، فالتفت إلى الخلف فلم يجدها ورأى الكل يتطلع إليه في ترقب والغصة التي شعر بها تزداد وتحول الأمر إلى قبضة قوية خفية يشعر بها تعتصر حنجرته فمنع نفسه من إطلاق صرخة ألم وقد بدأ الخوف يجد طريقه إلى قلبه.

سمع صوت "فهيم" يقول في قلق:

- هل أنت بخير يا باشا؟

جاءه الصوت خافتا وقد بدا يشعر بطنين يغزو أذنيه

المرئيات تختفى من حوله وهناك أطياف سوداء منفرة الرائحة تخرج برؤوسها التيسية من بحر من الدم وشيء ما يقترب منه

شيء ما جعل عينيه تتسعان في ذعر لم يشعر به من قبل

أغلق عينيه وصوت يتردد في أذنه

- لقد أصابته لعنة الشيخ "فودة"

- سيسخطه إلى فأر مذعور

ووسط الطنين الذي يكاد يخترق طبلتي أذنه سمع صوتا كالفحيح يقول:

- ستموت بأبشع وسيلة يا حفيد الملعون.

وهنا شعر برجفة تجتاح جسده وخيل له أنه يشعر بمذاق حلو كالعسل في فمه قبل أن تهب عليه أنساما رحيمة لها رائحة كالمسك وتلك المشاهد المفزعة تتبدد ورأى ذلك الظل الضخم يرتجف قبل أن يتضاءل إلى حجم طفل صغير ويتبدد كالسراب.

- هل أنت بخير يا "أمجد" باشا؟

التفت إلى "فهيم" ليقول وقد قرر أن يتساءل فيما بعد عما حدث منذ قليل:

- أنا بكل خير يا صول "فهيم" ولكنني أنتظر أن يخرج بنفسه قبل أن أحطم الباب.

هنا سمع صوت عدة مزاليج تفتح قبل أن يخرج الشيخ "فودة" بمظهره المهيب وشعره الأبيض المنسدل على كتفيه ولحيته الضخمة وقد ارتدى حلة فاخرة سوداء اللون وابتسم وهو يقول:

لقد ترك الملعون خدمة هائلة وسخرها لتنتظرك أربعين عاما قبل أن تعمل على حمايتك.

وتقدم نحوه بعينيه النفاذتين وجسده الضخم برغم اقترابه من الثمانين

- كنت أنتظرك يا حفيد "علوان".. كنت أنتظرك منذ أربعين عاما.

تأمله "أمجد" في احتقار وتعمد إهانته بوضع الأصفاد الحديدية في رسغيه ليصيح محادثا "فهيم":

- فتشوا ذلك الوكر وصادروا كل ما ستجدونه من كتب ونقود.

وشهر مسدسه في وجوه من تبقى من الرجال الذين بدا عليهم الغضب وهم يرون الشيخ مقيدا بالأصفاد وقبل أن يصعد إلى صندوق السيارة مال نحوه ليقول:

- سأخرج من تلك القضية التافهة بأسرع مما تتصور لأجعلك تعلم حقيقة تلك الأوهام التي يحيطون بها جدك.

ضاقت عيناه و"فودة" يميل نحوه ليكمل:

- جدك الدجال الملعون.

قالها ليأخذ مكانه وسط رجال حراسته الذين ضاق بهم صندوق السيارة ووسط نظرات "أمجد" الحائرة بدأ يحرك حبات مسبحته الكريستالية ويسبح بصوت مرتفع.

***

"كلنا ننظر تحت أقدامنا يا بني ولا نعرف أننا قطعة صغيرة جدا في تلك المنظومة الربانية، اترك نفسك للقصر يا بني واتبع تعليمات جدك وستصل إلى الحقيقة كاملة."

من أقوال الشيخ/ "الحمزاوي"

14- قرية العلوانية

ساحة المسجد الكبير

31 أكتوبر 2005

سار "أمجد" مرتديا ملابس مدنية بسيطة مقتربا من ساحة المسجد الكبير الذي يعد أكبر مساجد القرية وتأمل حسن بنيانه، يقع المسجد الكبير في وسط قرية "العلوانية" بـ "الرحمانية قبلي" بالقرب من محطة الأتوبيس، كما يوجد بذات المنطقة سوق تجارى كبير يسمى "درب الدقاقين" الذي يشتهر بمحلات العطارة ولوازم السبوع وأعياد الميلاد كما يوجد بالقرب منه عدة أسواق أخرى حيث تعتبر المنطقة المحيطة بالمسجد سوق تجارى كبير يزدحم بعدد كبير من المقاهي والمطاعم التي تزدهر وقت المولد، يتميز المسجد الكبير بمساحته الكبيرة التي لا يضاهيها أي مسجد آخر بـ"الرحمانية" كما يتميز بالقباب والمآذن التي تستطيع رؤيتها من أى مكان بالمدينة لبنائه على أعلى نقطة بالقرية، يشتهر المسجد بكثرة النقوش الإسلامية والزخارف الملونة على جدرانه الداخلية، والكتابات الإسلامية التي تميزت بها المساجد فى مصر منذ عهد المماليك والعثمانيين، وللمسجد عواميد وكان لكل منها قارئ أو معلم مثل المسجد الأزهر وله خمسة أبواب أكبرها البوابة الأمامية ولم يكن المسجد بشكله المعتاد الذي عليه فى الوقت الحالى، أنشأ المسجد الأمير "إسماعيل بن محمد الهواري" الشهير بـ "صومع" وهو جد "الصوامعة" حيث قام ببناء المسجد في عام 1136م، كما قام الأمير "همام ابن يوسف الهواري" بتوسعته وزيادة مساحته وفرشه، وقد تم إعادة بنائه في عهد

الملك "فاروق" عام 1948م. ثم تمت توسعته سنة 1965 بضم مبنى الاستراحة إليه وبناء ضريح العارف بالله "علوان الأصيل" بالجرانيت والرخام المستورد والنحاس، وقد تمت آخر توسعة وترميم في عهد الرئيس "السادات" ليصبح كما هو عليه.

دلف "أمجد" إلى المسجد وتوضأ وصلى ركعتين تحية المسجد قبل أن يتجه نحو الضريح لتنعش برودة التكييفات حواسه ولمست قدماه جرانيت الأرضية الأملس ليشاهد المقصورة النحاسية التي كانت تحفة لا تقدر بثمن وتمتلئ بزخارف إسلامية وآيات قرآنية ولمح لوحة رخامية مثبتة بجانب المقصورة تحمل حروف أندلسية جميلة قرأ عليها:

- مولانا العارف بالله "علوان عوف الأصيل"، "أبو الكرامات"، نظر إلى المقصورة التي التف العشرات حولها يمسكون بأجزائها ويذكرون الله، وقد رفع بعضهم كفيه بالدعاء، ورفع كفيه وقرأ الفاتحة لجده وألقى إليه بالتحية. ثم بدأ يبحث عنه فحسب ما قاله "فهيم" فهو يجلس في مكان ما هنا، دار حول المقصورة فلم يجده وكاد أن يعود إلى المسجد قبل أن يشعر بيد تلمس ظهره، فدار إلى الخلف ليجد ذلك الشيخ المعمم المبتسم، كان يقف مستندا إلى عصا معدنية وبدا نحيلا للغاية وقد انحنى ظهره قليلا، وجهه كان متغضنا وقد تهدل جلده مما يدل على سنوات عمره التي اقتربت من التسعين، وبرغم ذلك كان يمتلك أسنانا سليمة بيضاء لمعت حين ابتسم وقد التمعت عيناه، ابتسامته وملامحه الودودة أزالت الكثير من التوتر الذي كان يسكن قلب "أمجد" ومد الشيخ كفه المفتوحة نحوه وهو يقول بصوت خشن ذو لهجة محببة للنفس:

- أنت تشبهه للغاية.

قال عبارته وهو يتناول يد "أمجد" الذي تركه يقرب أنفه من يده ويتشممها ليقول:

- أنت الكريم ابن الكريم حفيد الكريم.

ربت على كتفه وهمس:

- وأنت الشيخ "حمزاوي" والد الصول "فهيم" لقد جئت خصيصا إلى هنا للبحث عنك.

هز الشيخ رأسه وهو يتشبث بكفه ليقول وهو يهز رأسه مبتسما تلك الابتسامة التي خيل لـ "أمجد" إنها تضئ وجهه كله:

- أنا الذي كنت أجلس في انتظارك، وكنت أعرف إنك ستأتي. ولكني لي عندك عتاب يا ولدي، لقد جئت منذ أيام ولم تحضر لزيارته إلا الليلة.

ابتسم قائلا:

- متاعب المهنة والمنصب.

قاده الشيخ وأشار له بالجلوس في ركن بعيد عن المقصورة، ووضع كفه على فخذه ليقول:

- لقد جاءني أمس نبأ اعتقالك ل"فودة"– لعنة الله عليه –القرية كلها تتحدث عن اقتحامك لوكره وجندلتك لحراسته، هذا الفاسق الذي لن يشم للجنة ريحا، بالمناسبة لقد كان مولانا "علوان" يكرهه كالجحيم وقد سجن في عهده لمدة خمس سنوات، وخرج من السجن وتاب عن غيه حتى اطمأن بعد استشهاد جدك وعاد لضلاله القديم ولكن الشبل الذي أنجبه الأسد عاد ليبطش به من جديد.

نظر له "أمجد" وظل على صمته فتأمل الشيخ عينيه المحتقنتين ليقول:

هناك شيء يدور في رأسك ويتعارض مع ثوابتك الذاتية ولهذا تخجل أن تتحدث عنه.

ابتسم "أمجد" وتأمل عيني الشيخ اللامعتين ليقول:

- فراسة أحسدك عليها.

هز الشيخ رأسه في حكمة ليقول:

- ما الذي رأيته في منزل "فودة"؟

تراجع إلى الخلف في ذهول وهو يتأمل ملامح الرجل الطيب الذي أخذ يحرك حبات مسبحته الخشبية الحبات وهناك رائحة عطرية جميلة تتصاعد من يده، ثم هز رأسه في يأس ليقول:

- هناك ظلال ما رأيتها مرتين، مرة في قصر جدي ومرة قبل أن أقتحم باب منزل "فودة"، ظلال بلا أجساد، وهناك أمام باب منزله شعرت بأنني بلا حيلة بالكامل، وكأنني قد تحولت إلى دمية يلهو بها طفل عملاق، شعرت بيد خفية تحاول أن تخنقني و...

- وسمعت صوتا هو ما بين الطنين والفحيح؟

- أنت تعرف كل شيء يا شيخنا.

- أنت تصديت لشيطان رجيم يعمل في هذا المجال منذ ما يقرب من النصف قرن أو يزيد، وقد ورث العهد عن المقبور "الديناري" الذي كان من أكثر أهل الأرض شرا، ومثل هذا الرجل تجد أنه محاط بصورة دائمة بنفر من الشياطين والعياذ بالله، ولكن جدك لم يكن ليأتي بك إلى هنا ما لم يوفر لك الحماية الكافية.

- يأتي بي إلى هنا! ما الذي تعنيه؟ لقد اخترت أن يتم نقلي إلى هنا بنفسي.

نظر له الشيخ وابتسم ليقول:

- كل شيء معد بدقة يا ولدي، هل تعتقد إنك قد اخترت هذا المكان بالصدفة.

التفت نحوه في ذهول ليقول:

- ماذا تقول؟ لقد اخترت المكان بالفعل بعد عدة ظروف سيئة مررت بها، فأنا أعرف أن جدي خدم هنا وأعرف أن عمتي تعيش هنا و..

قاطعه وهو يشير نحو السماء:

- كلنا ننظر تحت أقدامنا يا بني ولا نعرف أننا قطعة صغيرة جدا في تلك المنظومة الربانية، أترك نفسك للقصر يا بني واتبع تعليمات جدك وستصل إلى الحقيقة كاملة.

تأمل الشيخ ملامحه المرهقة وعينيه المحتقنتين ليقول في حنان:

- يجب أن تنام يا بني، فأنت مرهق من الداخل تماما.

استند برأسه علي الجدار الرخامي البارد ليقول مغلقا عينيه:

- لقد رأيت جدي ثلاث مرات حتى الآن، وفي كل مرة تنتهي الرؤيا بإصابته إصابة قاتلة.

- إن جدك يرسل إليك تباعا أجزاء صغيرة من الحقيقة الكاملة، لأن عقلك لن يتمكن أبدا من الإلمام بالحقيقة دفعة واحدة، فلم يستطع أحد منذ بدء الخليقة أن يجمع ماء البحر بالكامل في إناء صغير.

شعر "أمجد" أن كلام الشيخ بلا رأس ولا ذيل وسيمضي بهم الحديث في تهاويم الصوفية وكرامات الأولياء فقال في ضيق:

- منذ قدومي إلي القرية ونظرات الاحترام والحب تحيط بي والكل يقول لي إنني حفيد "أبو الكرامات" في حين قال لي "فودة" عندما وضعت الأغلال في يديه:

- "سأجعلك تعرف حقيقة جدك الدجال الملعون"، ولقد رأيتك في الرؤيا ضمن القوة التي رافقت جدي قبل أن يسقط بوابل من الرصاصات.

وصمت قليلا قبل أن يقول وهو يميل نحو الشيخ:

- أريد أن أعرف الحقيقة يا شيخنا. هل هناك من البشر من يمكن أن نطلق عليهم أولياء بالفعل؟ وهل هناك كرامات مثبتة لهؤلاء الأولياء؟

تأمل الشيخ ملامحه المرهقة ليبتسم قائلا:

- كرامات الأولياء ثابتة عند أهل السنة والجماعة، ومن عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بكرامات الأولياء، وأنها حق، وهي خوارق العادات

التي يخلقها الله لبعض أوليائه، إما لحاجةٍ به، أو لإقامة الحجة على أعداء الله لنصر الدين، وإقامة أمر الله، فتكون لأولياء الله المؤمنين، تارةً لحاجتهم، كأن يسهل الله له طعامًا عند جوعه، أو شرابًا عند ظمأه، لا يدرى من أين أتى، أو في محلٍ بعيد عن الطعام والشراب، أو نحو ذلك، أو بركةٍ في طعام، تكون واضحة، أو غير ذلك من الخوارق للعادات، والميزان في ذلك أن يكون العبد مستقيمًا على الكتاب والسنة، لا تكون كرامة هذه خارقة؛ إلا إذا كان الشخص متبعا لشريعة. أما إذا كان الشخص منحرفا عن طريق الله فليست كرامة وإنما فتنة من فتن الشياطين، وكما قلت لك يا بني:

- تكون الكرامة لأولياء الله المؤمنين، الذين عرفوا بالاستقامة على دين الله، وإتباع شريعته، فما خرق الله لهم من العادات تسمى كرامة، ومن ذلك قصة ما جرى لـ"الصديق" في الطعام الذي قدمه لأضيافه، فصاروا كلما أخذوا لقمة؛ ربا من تحتها ما هو أكثر منها، حتى فرغوا من الأكل، وبقي الطعام أكثر مما كان، وهذا من آيات الله".

ومن ذلك ما جرى لـ"عباد بن بشر" و"أسيد بن حضير"، في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لما خرجا من عنده في ليلةٍ ظلماء، أضاءت لهما أسواطهما في الظلمة، فلما انصرف كل واحد إلى بيته؛ أضاء له سوطه حتى وصل إلى بيته، فهذا من كرامات الله لأوليائه، وهكذا ما أشبه ذلك مما يقع لأولياء الله.

قطع حديثه المتصل ليقول مبتسما:

- ولقد ذكر الصالحون أن الفرق بينها وبين خوارق المشعوذين والسحرة: فإن الكرامة إنما تكون رحمة للخلق ونصرة للحق، وصاحبها يكون معروفا بالاستقامة على الشرع وحفظ حدوده، وأما من خرقت له العادة وليس على هذا الوصف فليس فعله من باب الكرامة ولا كرامة، وقد ذكر "ابن كثير" في تفسيره عن "الليث بن سعد" و"الشافعي" . رحمهما الله . قولهما: إذا رأيتم الرجل يطير في الهواء ويمشي على الماء، فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة، وقال "أبو اليزيد البسطامي": لله خلق كثير يمشون على الماء

ولا قيمة لهم عند الله، ولو نظرتم إلى من أعطي من الكرامات حتى يطير، فلا تغتروا به حتى تروا كيف هو عند الأمر والنهي وحفظ الحدود.

- لقد صاحبت جدي ما يقرب من الثلاثين عاما تقريبا، حدثني عن تلك الكرامات.

هز الشيخ رأسه مغلقا عينيه وبدا عليه وكأنه يسترجع ذكرى عزيزة على نفسه قبل أن يقول:

- ويمكنني أن أقص عليك الكثير من كراماته يا بني ولكنني سأكتفي بأربع قصص لأقنعك، سأقص عليك قصته مع مطاريد جبل "أبو حزام" وقصته مع "أبو راجح" وقصته مع ابنته "إحسان" وقصته مع عفريت قهوة "عتوقة".

***

القدر يلقي في طريقنا يوميا أجزاء عديدة من الحقيقة الكاملة، والخطأ الأكبر الذي نرتكبه هو أن تعتقد الجزء الذي وجدناه هو كل الحقيقة، يجب أن نرتقي لنشاهد المشهد بالكامل من منظور الطائر، والأهم أن نحتمل في شجاعة ما سنراه.

15- الرحمانية قبلي

1955

هناك اختلاط شديد في ترتيب الأحداث داخل ذهن مكدود وإرهاق بلا حدود، أنا لا أتذكر إلا مشهدا بانوراميا لمنزل جميل من طابقين يتوسط حديقة موالح حسنة التنسيق، وعددا من الخفراء بزيهم الحكومي التقليدي يقفون وقد علقوا على أكتافهم بنادق عتيقة ذات تلقيم يدوي وقد أحاطت أحزمة الرصاص بصدورهم.

***

والمشكلة كانت تنحصر في أنني كنت جالسا منذ ساعة تقريبا مستندا على الجدار الرخامي الذي يشع برودة محببة في ضريح جدي أستمع إلى الشيخ "حمزاوي" الذي بدأ حديثه عن كرامات جدي.

الصداع قد تمكن مني وهزمني فانصرفت إلى القصر لأجد ابنة عمتي تتأملني في قلق وتعاطف لتمسك كفي وتهمس وقد اختفت ابتسامتها العجيبة المستفزة:

- يجب أن تصعد إلى غرفتك لتحظى بقليل من النوم يا ابن الخال.

أزحتها جانبا وتحركت نحو غرفة المكتب لأجد عمتي بابتسامتها الطيبة تضع يدها على كتفي وتقول في حسم:

- ليس الآن يا "أمجد".. اصعد إلى غرفتك فلن تطير غرفة المكتب.

جدي ينظر لي مبتسما وهو يشير نحو رفوف المكتبة ليقول:

- اقرأ فإن حياة واحدة لا تكفي.

أقبل يد عمتي وأدخل إلى غرفة المكتب..

***

المنزل يدل على الثراء والفخامة والخفر المنتشرين حوله يصبغون المكان بصبغة حكومية ما.

عربة مدنية تتوقف أمام بوابة المنزل فيتقدم نحوها الخفراء ليقول شيخهم في ترحاب وقد هش عندما شاهد راكبها الوحيد يترجل منها:

- "علوان" باشا.. ألف مرحب يا سعادة الباشا، لقد أضأت القصر.. هل أذهب لأخبر حضرة العمدة بقدومك؟

هبط جدي بقامته الفارهة وملامحه القسيمة وشاربه الضخم ولكنه كان يرتدي حلة مدنية تلك المرة ويثبت على رأسه طربوشا غاية في الأناقة وكأنه قام بشرائه لتوه.

ابتسم جدي ونظر لشيخ الخفر بعينيه اللتين تشبهان عيني الأسد ليقول:

- كيف أحوالك يا "حسن"؟ وكيف أحوال أهل بيتك؟

- يقبلون يدك يا باشا.

قالها وأفسح له طريقا ليعبر باب القصر إلى الداخل وقاده إلى المضيفة حيث جلبت له خادمة مبتسمة كوبا من الشاي وتركته ليحسوه منتظرا قدوم العمدة.

***

الرؤيا كانت واضحة ونقية للغاية وكأنني أرى المشهد على شاشة سينما مجسمة، أكاد أشم رائحة النعناع التي تفوح من كوب الشاي ليستنشقها جدي في سرور وهو يحسو الرشفة تلو الرشفة.

وفجأة وجدت جدي يلتفت نحوي ويبتسم..

كان يراني كما أراه بوضوح تام

وقبل أن أتحدث رفع سبابته أمام شفتيه ليطلب مني الصمت التام.

قبل أن يدلف هو، شعرت بانقباض في صدري عندما رأيته، ضخم الجثة ذا جسد لحيم وكرش بارز، يتحرك ببطء لفرط بدانته، عينان تدلان على غباء وخبث بلا حدود وهناك تلك الابتسامة الماجنة التي تتلاعب على شفتين زرقاوتين انفرجتا عن أسنان نخرة أتلفهم التدخين وسوء العناية، نهض جدي لمصافحته احتراما لمنصبه فشد العمدة علي يده وهو يقول بصوته الأجش:

- جناب المأمور "علوان" باشا بنفسه في منزلي، لقد زارنا النبي اليوم يا باشا.

وصفق بكفيه ليصيح:

- أطلبوا منهم أن يذبحوا كبشا سمينا فسيشرفنا الباشا على الغذاء اليوم.

شعرت أن جدي يجلس مضطرا من لغة جسده وجلوسه بغير استرخاء علي مقعده وبالفعل قال متظاهرا بالمرح:

- سنأجلها إلى يوم آخر يا جناب العمدة فلقد جئت إليك في أمر ما وأنت تعرف أنني لم أطلب منك أية مطالب من قبل ولا أريد أن تردني خائب الرجاء.

رأيت نظرة عجيبة في عيني العمدة وهو يقول:

- لقد عرضت عليك كثيرا أن تشرفني في مجلسي ولكنك كنت تختلق الأعذار حتى شعرت أنني أقل شأنا من أن يشرفني بالزيارة "علوان" باشا.

وقطع عبارته وهو يطرق الأرض بعصاته المعدنية المطعمة بالفضة ليقول:

. ولكنك جئت وشرفتني ولهذا اعتبر كل طلباتك مجابة يا باشا.

كنت أرى بوضوح أن جدي يكره ظل هذا الرجل على الأرض وأنه هنا برغم إرادته ورأيته يجبر نفسه على الابتسام ليقول:

- هناك مجموعة من الفلاحين من منتفعي الإصلاح الزراعي جاءوا أمس وقابلوني بطريقة غير رسمية، بمعنى إنهم لم يطلبوا تسجيل شكواهم في محاضر رسمية لأنهم قد تم تهديدهم بالقتل لو فعلوا، "حسين أبو جازية" و"محمدين الزامل" و"عوض إسماعيل" وغيرهم.

ومال نحو العمدة ليقول:

- هل سمعت هذه الأسماء من قبل يا حضرة العمدة؟

برقت عينا العمدة واحتقن وجهه وانقلبت سحنته فبدا كالشيطان وهو يقول:

- لقد باعوا أراضيهم الزراعية بعقود رسمية لابني "عسران" ولقد استلموا ثمن الأرض بالكامل.

استمر جدي محتفظا بابتسامته البلاستيكية وهو يقول:

- لقد مضوا عقود البيع وبنادق رجالك مصوبة إلى رؤوسهم يا "أبا راجح" ولقد ألقى لهم "عسران" مبالغ زهيدة تقل عن عشر ثمن الأرض الحقيقي.

مال نحوه العمدة ونظراته الثعبانية اللزجة تكاد أن تلوث حلة جدي النظيفة وقال مبتسما:

- تلك الأراضي كانت ملكا لجدودي قبل أن يصادرها العسكر ليعطي من لا يملك لمن لا يستحق، لقد عادت تلك الأراضي إلى حوزة عائلتي الزراعية وتلقى هؤلاء الرعاع ما يستحقونه بالمليم.

هز جدي رأسه وقال في هدوء:

- أنت بحمايتك ومباركتك لما يقوم به ابنك تحكم على هؤلاء الرعاع كما تصفهم بالإعدام، فكل منهم يتعلق بعنقه أسرة كاملة ولا يمتلكون أي مورد رزق آخر غير الأرض التي منحتها لهم الثورة.

- هل تعتقد أن منصبك قد يشكل فارقا في التعامل بيننا يا "علوان"؟

لاحظ جدي أن العمدة قد بدأ في مخاطبته بدون ألقاب، فعرف أن مسار الحديث سوف يتغير ولذلك قال في صرامة:

- لو استعملت صلاحيات منصبي لكنت استدعيت ابنك إلى القسم وقمت بتعليقه من قدميه حتى يعترف بفعلته، ثم أحضر عقودا جديدة وأجبره على توقيعها لنعيد الحق إلى أصحابه.

نهض العمدة من مقعده ليقول في صوت مختنق:

- تعلق ابني أنا يا "علوان"، هل تعرف من أنا ومدى قوة عائلتي؟ هل تعرف مقدار نفوذي؟

وصمت وهو يشير إلى الخارج ليقول:

- هل تريد أن تشعل حربا في القرية؟ أريدك أن تسأل أولا عن عدد من يمكن أن يتحركوا بإشارة مني ليشعلوا "بطن الجبل" نارا.

نهض جدي وهو يقول في عصبية:

- لا أحد فوق القانون يا "أبا راجح"

- أنا فوق القانون .

صاح بها العمدة بصوت كالرعد حتى أن شيخ الخفراء دلف إلى المضيفة في ذعر.

ولوح بعصاته في وجه جدي ليقول وقد أعماه الغضب:

- ولتعرف أنك تجلس في مكتبك في جهل كامل، فهي ليست المرة الأولى وهناك عشرات الأفدنة التي سوف نصادرها من الفلاحين الذين كانوا يعملون أجراء فيها مقابل قوت يومهم، قبل أن يستولوا عليها بأمر العسكر.

نظر جدي إلى شيخ الخفراء ليقول:

- هل ستشهد على ما قاله العمدة يا "حسن"؟

اكتفى "حسن" بالنظر إلى الأرض.

رأيت ملامح جدي تتغير ونهض وهو يقول:

- وهل تعتقد أن السماء ستدعك تمارس ظلمك وضلالك يا عمدة.

قال عبارته وخرج وهو يقول:

- للسماء جنود يا "أبا راجح"

كان يتحدث بصوت مرتفع للغاية حتى أن الخدم والخفر كلهم بدأوا في التجمع، العمدة كان يراقب ما يحدث في صمت المذهول فجدي لم يستعمل سلطته ولم يهدده بفتح تحقيق ما ولكنه وأمام الجموع التي تقاطرت قال وهو يشير إلى صدره:

- وأنا بعون الله جندي من جنود السماء، ولن تعصمك علاقاتك ولا نفوذك ولا أموالك مني.

بدأ العمدة يشعر بالقلق عندما أشار جدي إلى السماء ليقول:

أمامك مهلة أسبوع يجب أن يذهب ابنك ليمزق العقود ويعيد الأراضي إلى أصحابها، وإذا انقضى هذا الأسبوع دون أن يحدث هذا، فستهلك بأبشع طريقة يمكنك أن تتخيلها، ستفقد وزنك كله خلال أسبوع وستموت وأنت تصرخ في ألم لن يمكنك أن تتصوره أبدا.

لم أره من قبل غاضبا بتلك الطريقة وهو يواصل الصياح بصوت مرتفع:

ستموت ملعونا بالتدريج.

قالها وابتعد عن الدوار ليقول:

أسبوع يا عمدة.. أسبوع فقط.

***

شهيق

زفير

شهيق

زفير

أحاول أن أسحب هواء الكون إلى صدري وعرقي يغمرني ويسيل على جبهتي.

نهضت من مقعدي وتأملت أركان غرفة المكتب والكتب التي وقفت علي رفوفها تراقبني في صمت مندهش.

أحطت رأسي بكفي محاولا بث السكينة إلى نفسي..

هناك لغز ما يحيط بهذا المكان، أشعر الآن بكراهية لا توصف للقصر وأريد أن أغادره بأي طريقة، ولكنني أعرف أنني سأعود إليه تلبية لندائه، فالقصر بدأ يلقي لي بقطع متناثرة من الأحجية الكبرى ويجب أن أجلس كل ليلة في انتظار حل اللغز بالكامل.

وصوت الشيخ "حمزاوي" يتردد في أذني:

- "كل شيء معد بدقة يا ولدي، هل تعتقد أنك قد اخترت هذا المكان بالصدفة."

ألقيت بتحية سريعة لعمتي ولـ"سلوى" قبل أن أصعد إلى غرفتي لأحظى بحمام دافئ وأصلي ركعتي الصبح وأرتدي ملابسي الرسمية، وقبل أن أتجه للخارج صاحت بي عمتي:

- "أمجد" لقد أعددت لك عدة شطائر اصطحبها معك يا بني لإفطارك.

وجدت "سلوى" تعدو نحوي وتعطيني كيسا بلاستيكيا يحتوي على عدة شطائر، ابتسمت وفي ضوء الصباح البكر لم أعد أجد ابتسامتها سخيفة على الإطلاق، تبتسم وهي تنظر إلي عيني لتغمرني بحنان أنثوي كدت أن أنساه، الأنثى الخالدة التي لها طاقة غير محدودة على بث المشاعر والأحاسيس، هالة النور التي يمكنها غريزيا أن تحول حياتك وأيامك كلها إلى روضة من رياض الجنة لو كانت سعيدة، أو إلى حفرة من حفر الجحيم لو غضبت، تلك النظرة يا "سلوى" احذري من تلك النظرة فلن أستطيع مقاومتها طويلا.

***

- سيدنا "علوان" جاء بك إلى هنا لهدف ما يعرفه جيدا.

وقطعت عبارتها وهي تهمس مبتسمة:

- "أمجد".. أنت المختار لتحل كل الألغاز المستغلقة المختفية وسط جدران القصر

16 – قنا

إدارة المحفوظات

1 نوفمبر 2005

طلب من العسكري "محمدين" أن يتوقف أمام إدارة المحفوظات بعد أن قاد السيارة في رحلة طويلة إلى "نجع حمادي"، نظر له بعينيه الضيقتين ليقول في لهجة لمح فيها النعاس:

- هل تريدني أن أذهب معك يا سعادة الباشا؟

ربت على كتفه ليقول وهو يهبط من السيارة:

- سأذهب بمفردي يا "محمدين" عد بمقعد القيادة للخلف واحظى بساعتين من النوم.

أشعل سيجارة وتحرك نحو الدار التي يضمها مبنى عتيق خمسيني الطراز تصل إليه عبر سلالم حجرية تحمل طابع تلك الاستراحات الملكية التي أممتها الثورة لصالح الحكومة، تطلع الجميع بقلق إلى زيه الرسمي الذي حرص على ارتدائه، نظارته الشمسية الفاخرة أعطته سمتا من الغموض يحبه ويحب تأثيره الذي يفتح الطرق أمامه ويهدم جدران البيروقراطية العقيمة، تحرك مباشرة نحو مكتب مدير الإدارة فوقف الساعي المرابض بجوار الباب علي مقعده ليقول في قلق:

- خيرا يا حضرة الضابط..

قاطعه وهو يشير إلى الباب:

- أخبر المدير أن النقيب "أمجد ركن الدين" رئيس نقطة شرطة "العلوانية" يريد مقابلته.

فتح الساعي الباب ودخل ثم عاد بعد لحظة ليشير له بالدخول.

كان المدير من الطراز اللحيم مترهل الجسد الذي يعرق بغزاره، يرتدي منظارا طبيا سميك العدسات تظهر عيناه من خلفه متسعة للغاية، أصلع الرأس وقد حرص على إطالة خصلات شعره من أحد الجوانب ليصففه إلى الجانب الآخر محاولا إخفاء صلعته، وقد نهض من خلف مكتبه ليصافحه بحرارة وهو يقول:

- لقد زارنا النبي اليوم يا باشا. شاي أم قهوة أم تريد كوبا من الليمون المثلج؟

ابتسم (أمجد) ليقول:

- سأشرب كل تلك المشروبات ولكن حين تطلب منهم معاونتي في حل قضية كبيرة، وصدقني عندما رأيتك عرفت إنني جئت إلى الرجل المناسب.

قال عبارته الأخيرة مداهنا، ليهتف المدير:

- طلبات معاليك أوامر يا باشا.

جلس ونفث دخان سيجارته ليقول متصنعا الغموض:

هناك قضية ضخمة أعمل على حلها بالتعاون مع جهاز أمن الدولة..

قاطعه في رهبة:

- أمن الدولة.

نظر له في ضيق فالتزم الصمت ليواصل:

- أريد الإطلاع على ملفات تنتمي إلى الفترة الممتدة من عام 1950 إلى عام 1965 تقريبا.

صمت المدير وهو يتطلع إليه ليقول:

- لقد مضي وقت طويل للغاية.

- سأضطر للجوء إلى "القاهرة" لأخبرهم أن...

نهض من مقعده وهتف:

- ستخبرهم إنك وجدت ضالتك يا سيادة النقيب، من فضلك اتبعني.

ابتسم "أمجد" وتبعه إلى نهاية الممر ليهبطا الدرج إلى القبو وضغط زر إشعال مصباح نيون قديم صدر عنه صوت أزيز متقطع قبل أن يضيء القبو بضوء قوي، فرأى "أمجد"رفوفا خشبية تمتد من الأرض إلى السقف تمتلئ بالأتربة والصناديق والملفات القديمة المربوطة إلى بعضها البعض في رزم.

ونظر له المدير ليقول وهو يلهث ويفرز المزيد من العرق:

- نطلق على هذا المكان "المقبرة" لأن الملفات التي يحتويها لم يقترب منه أحد منذ سنوات.

ربت على كتفه ليقول في لهجة معسولة:

- أريد فنجانا من القهوة المضبوطة كل نصف ساعة حتى أخرج من هنا لأتصل بـ"القاهرة" وأخبرهم أن مدير دار المحفوظات بـ"قنا" رجل يمكنهم الاعتماد عليه.

ابتسم الرجل وبدا البشر على وجهه ليهتف:

- كل طلباتك مجابة يا سعادة الباشا.

وخرج يعدو من فرط السعادة.

بدأ "أمجد" البحث واستغرق منه الأمر ساعة كاملة ليفهم نظام تخزين الملفات، واستهلك ثمانية فناجين من القهوة وعلبة سجائر كاملة وهو ينتقل من رف إلى رف ويفتح صندوقا تلو صندوق حتى وصل إلى بغيته، وأشعل

آخر سيجارة في العلبة وهو يتأمل كومة ضخمة من الملفات قام بتجميعها فابتسم هامسا لنفسه:

- وها هما الروتين والبيروقراطية المصرية الصميمة يظهران لك وجههما الباسم يا"أمجد"، فليحيا الكاتب المصري الجالس القرفصاء.

قام "محمدين" بتحميل كومة الملفات على عدة دفعات إلى السيارة ولوح "أمجد" للمدير مودعا.

وعندما دخل إلى القصر مصحوبا بكل تلك الكمية من الملفات وقفت عمته مع "سلوى" يراقبان الأمر في دهشة وترقب، فقام بوضع الملفات في غرفة المكتب ليتجه إلى مجلسهما ويقول مبتسما:

- هناك سر تضمه جدران هذا القصر يا عمتى أليس كذلك؟

تبادلت "سلوى" نظرة ما مع والدتها فهزت عمته رأسها وهي تقول بعد لحظات من التردد:

. الأمر لا يمكن تفسيره بسهولة يا ولدي، الأمر غاية في التعقيد بدأ منذ وفاة جدك - رحمه الله - عندما رفض أهل البلد أن ينقل شقيقي "ركن الدين" الجثمان ليدفنه في "القاهرة"، وقتها كان من المنطقي أن نعود أنا ووالدتي إلى "القاهرة" مسقط رأسنا، وقد حزمت جدتك أمتعتنا بالفعل وقالت أن البقاء في "قنا" أصبح مستحيلا بعد وفاة الغالي.

وتناولت كوبا من الماء لتجرعه دفعة واحدة وتقول:

- ليلتها ذهبت إلى فراشي وأنا أبكي وأنتحب وأتذكر والدي ومدى رفقه بنا وأننا لن نراه مرة أخرى، ونمت وكانت المرة الأولى التي رأيته فيها في أحلامي.

ربتت "سلوى" كتفها برفق وهي تحاول إخفاء دموعها، وتمالكت نفسها لتكمل:

- طلب منى ألا نغادر القصر وقتها استيقظت وأسرعت إلى غرفة والدتي لأجدها مستيقظة وجالسة في الفراش لتخبرني أنها رأت نفس الحلم، وقتها عرفنا أننا لن نغادر القصر.

أشعل سيجارة ليقول وهو يلوح بكفه ناثرا دخانها في كل مكان:

- لم تحاولي مغادرة القصر حتى بعد وفاة جدتي؟ حتى عندما تقدم لك والد "سلوى" للزواج؟

نظرت في عينيه مباشرة لتقول في خفوت:

- لقد كان شرطي أن نتزوج في القصر وقد وافق عليه، الأمر أقوى مني يا ولدي لأن جدك لم يكن رجلا عاديا، لقد رأينا العديد من المعجزات تحدث على يديه، جدك كان وليا من أولياء الله صدقا وحقا وعندما يطلب مننا البقاء في القصر يجب أن نطيعه.

ابتسمت "سلوى" تلك الابتسامة التي أصبح ينتظرها لتقول:

- هناك عبارة كان دائما يرددها عندما كنت أقضي ليلتي في المكتبة وسط الكتب.

- "اقرأ فإن حياة واحدة لا تكفي."

قالها وابتسم متطلعا إلي عينيها الجذابتين.

فهزت رأسها لتقول:

- أصبحت حياتي مرتبطة بالمكتبة ويمكنني أن أقول لك إنني قرأت ما يزيد على نصف تلك الكتب ولكنني لم أصل حتى الآن إلى السر المتعلق بالقصر.

- هل فهمت الآن سبب رفضي أن أبيع القصر وسبب خلافي مع والدك رحمه الله؟

هز رأسه قائلا:

- فهمت يا عمتي.

- لقد أخبرني بإنك في طريقك إلى هنا. جدك أخبرني وأخبر "سلوى" وكان يبدو سعيدا للغاية.

نهضت "سلوى" من مقعدها وجلست بجواره لتضع كفها على رأسه وتقول في خفوت:

- سيدنا "علوان" جاء بك إلى هنا لهدف ما يعرفه جيدا.

وقطعت عبارتها وهي تهمس مبتسمة:

- "أمجد".. أنت المختار لتحل كل الألغاز المستغلقة المختفية وسط جدران القصر.

***

هناك صراعات متناثرة في مسار التاريخ اشتعلت وتركت آثارها الدامية ولم تنته بعد كما كنا نعتقد، ولكنها تنتظر الوقت المناسب لتبدأ مرة أخرى ووقتها قد تنتهي بتحول مسار الحياة بالكامل على وجه الأرض إلى الأبد.

17 - نجع حمادي

5 نوفمبر 2005

يجلس بلحيته البيضاء الكثيفة تحت مظلة خشبية يتناول وجبة دسمة من اللحوم والخضر في طرف حديقة غناء لفيلا من طابقين وعلى بعد متر منه كانت مياه حمام السباحة الصغير تترقرق تحت ضوء الشمس.

تلك الفتاة المحجبة المليحة الوجه تتجه نحوه لتعطيه بطاقة ورقية أنيقة تأمل المكتوب عليها قبل أن يبتسم ويتنهد في ارتياح وهو يقول للفتاة:

- بارك الله فيكي يا "نجاح" أطلبي منهم أن يسمحوا له بالدخول.

مضت دقيقة قبل أن يتقدم منه رجل مديد القامة يرتدي جلبابا أسود اللون ويلف حول عنقه كوفية بنية اللون وقد تعمم بعمة بيضاء ضخمة وان تناقض زيه بوضوح بوضوح مع ملامحه الأجنبية.

ضحك الملتحي وهو يصافحه فمال ذو الملامح الأجنبية ليقبل ظهر كفه الممدودة ويقول بلغة عربية سليمة المقاطع:

- مولانا الشيخ "فودة"، تشرفت بمقابلتك.

أشار له بالجلوس ليقول:

- تدعى "مانويل".. تنكرك مكشوف للغاية يا "مانويل".

قالها ودفع بطبق من الأرز واللحوم تجاهه فبدأ في تناوله مما دل على جوعه الشديد.

ورفع قطعة اللحم ليقول متلمظا:

- اللحم الضأن.. يمكنني أن أقطع نصف العالم من أجل قطعة لحم كهذه.

ضحك الشيخ "فودة" وهو يقول:

- أنت خواجة مصري جدا يا "مانويل".

رفع عينان حادتان نحوه ليقول:

- كيف خرجت من تلك القضية الأخيرة بعد أن زجوا بك في السجن؟

بدا الغضب والغل على وجهه وهو يقول:

- هناك أكثر من مائة شخص شهدوا أنني في الليلة التي قضيتها في فراش "صالحة" كنت أعالج فتاة ممسوسة، ذهبت إلى منزلها باستدعاء من أهلها وقد التقطوا لي بضعة صور بناء على طلبي، ولن يجدوا أي آثار يمكنهم تحليلها ومطابقتها.

ضحك "مانويل" ليقول:

- وكيف استطعت أن تتواجد في مكانين في نفس اللحظة؟

أطلق "فودة" صوتا حلقيا منفرا وهو يقول:

- أنت في معية ساحر يا خواجة، أم تعتقد أن خمسين عاما من الإبحار في بحار السحر الأسود قد ضاعت هباء؟

تناول "مانويل" المزيد من قطع اللحم وهو يواصل الضحك ليقول:

- ولماذا تلك الفتاة بالذات أيها الشيخ الشهواني؟

هز رأسه ليقول وهو يمرر لسانه علي شفتيه في تلذذ:

- الفتاة كانت تستحق ولقد قضيت ليلة من أجمل الليالي.

- إنه حفيد "علوان" أليس كذلك؟

انتبهت حواس "فودة" لتحول مسار حديثه المفاجئ وابتسم ليقول:

- عيونكم يقظة يا رجل، هيا لن نضيع وقتنا في تبادل الألغاز وإبهار بعضنا البعض ماذا تريدون تلك المرة؟

جفف "مانويل" كفيه بمنشفة نظيفة وقال:

- أطلب منهم إعداد أكواب الشاي بالنعناع يا مولانا حتى نستطيع أن نتحدث بتركيز بعد تلك الوليمة الدسمة.

جاءت أكواب الشاي بالنعناع فبدأ "مانويل" يحسو من الكوب في استمتاع قبل أن يقول:

- عندما انتهت المواجهة منذ أربعين عاما بمصرع "علوان" هل تركت خلفه أي ذيول قد يؤدي تتبعها إلى عودة ما كان يقوم به؟

أشاح بكفه ليقول:

- لقد أحرقت كل شيء وقمت بتفتيش المكان ولم أترك حجرا بجوار حجر ولكنني لم أجد المخطوطات أو التفسير لكل ما كان يقوم به، قضيت عليه وتسببت في قتله شر قتلة ولكن أصل الشر لا يزال في ركن ركين لا يعلم عنه أحد شيئا.

أشار "مانويل" إلى خارج الفيلا ليقول:

- ولكنهم متأكدين أن عودة الحفيد قد تعني رجوع تلك الظواهر مرة أخرى إلى السطح وهم لن يسمحوا بخرق التابوهات وقوانين الكون مرة أخرى.

مال "فودة" نحوه وحدق فيه بعينيه الذئبيتين المكتحلتين ليقول:

- الرجل مقاتل عتيد ولقد جندل حراستي في أقل من الثانية الواحدة وأتباعي من رجال الحكومة نقلوا لي حقيقته فهو ضابط قوات خاصة وتدرب في ....

قاطعه في هدوء:

- في "إنجلترا" كل هذا نعرفه عنه وزيادة، وأنا جئت مفاوضا في المقام الأول فهناك شيء ما يجب أن يختفي إلى الأبد وسننتظر فقط عودته إلى السطح قبل أن أتدخل وبمعاونتك كما فعلتها أنت منذ أربعين عاما.

مد كفه إلى الأمام فصافحه "فودة" قبل أن يقول بصوت يشع كراهية:

- يجب أن يجهزوا ضريحا جديدا للحفيد ليستقر إلى الأبد بجوار الجد..

وقطع عبارته قبل أن يتابع في مقت:

- ذلك الملعون الذي لم ابدأ انتقامي منه بعد، فأنا أنوي أن أقتله هو وكل سكان ذلك القصر الملعون.

ضبط "مانويل" هاتفه المحمول على وضع المسجل ووضعه علي المنضدة أمام "فودة" ليقول في هدوء:

- يصرون أن تقص عليهم مرة أخرى كل الذي رأيته في المغارة سنة 1965.

أشاح بوجهه في ملل ليقول:

- لقد أخبرتهم بكل شيء منذ أربعين عاما.

قلب "مانويل" كفيه وقال:

- إنها الأوامر، ولا نملك إلا الطاعة.

قطب حاجبيه ليبدأ في استعادة ذكريات المواجهة الأخيرة وبكل التفاصيل.

***

يقال أن الملائكة تقف بلا خيارات على أعلى سلم الخير، في حين تمرح الشياطين في قاع الشر ولكن هناك من البشر اختاروا بإرادتهم أن يغوصوا إلى القاع حيث يثيروا اشمئزاز الشياطين ذاتهم.

18 - الرحمانية

1955

تلك المركبة الخشبية التي يجرها حصان أسود عجوز تتحرك على طريق غير ممهد تكسوه الحجارة مما جعل العربة التي تحمل الركاب تقفز كل عدة أمتار فتكاد رؤوس ركابها أن ترتطم بسقف العربة لتصيح سيدة متشحة بالسواد:

- سنموت يا "سعد".. برفق يا رجل، فالدنيا لن تطير.

قطب الحوذي حاجبيه وألهب ظهر الحصان بسوطه وهو يهمس:

- يعتقدون إنهم اشتروني بالمليمين.

كانت السيدة تحتضن فتاة صغيرة نحيلة الجسد للغاية وقد برزت عيناها وجحظتا مما يدل على أنها مصابة بداء عضال، الفتاة تمسك بيمناها دمية بلاستيكية جميلة الملامح ترتدي ثوبا ورديا وتراقب الدروب الجبلية التي تسير بها العربة وهي شاردة تماما، السيدة تخفي ملامح وجهها بنقاب لا يظهر إلا عينيها المحتقنتين بدموعها وهي تهمس في أذن الفتاة:

- الشيخ "فودة" ذو سر باتع يجيئون إليه من أقاصي الأرض وسنجد الشفاء عنده بإذن الله، فلقد خذلنا الأطباء ولم يعد أمامنا إلا بركات الأولياء وكرامات العارفين.

العربة بدأت تتوغل في ممر جبلي ضيق قبل أن يتوقف الحوذي ليقول بصوته الأجش:

- لقد وصلنا يا ست.

هبطت السيدة وساعدت الطفلة الصامتة على الهبوط وسارت نحو مدخل منزل مستند على سفح الجبل تماما لتقول له:

- ستنتظرنا وسأجزل لك العطاء.

تمتم بجملة غير مفهومة وهي تسير في رهبة وتوجس نحو مدخل المنزل المضاء بمشعلين معلقين على جداره بحلقتين معدنيتين ليستقبلها رجل نحيل ذو عينين خبيثتين رمقها بهما لتشعر باشمئزاز يفعم أنفها من رائحته المنفرة فقالت له:

- طامعة في لقاء الشيخ "فودة".

رفع نحوها كفا طويلة الأظافر ليقول:

- ستدفعين جنيها كاملا قبل دخولك إلى خلوته وضعف المبلغ عند خروجك.

أخرجت رزمة مالية تدل على أنها ميسورة الحال لتعطيه جنيها وهي حريصة ألا تلمس كفه القذرة، تطلع في لهفة إلى رزمة النقود واختطف الجنيه ليشير لها بالدخول.

دخلت إلى غرفة جدرانها مغطاة بجلود لحيوانات مختلفة وعدد من الرؤوس المحنطة لكباش وغزلان وذئب وحيد، آثار هذا الجو رعب الفتاة فدفنت رأسها تقريبا في ملابس والدتها فقالت وهي تكاد أن تبكي:

- أنا خائفة يا أمي هيا نرجع.

كان الشيخ يقف في انتظارهما مديد القامة تكاد لحيته السوداء أن تصل لأعلى صدره ليقول مبتسما:

- لا داع للخوف يا أم "إحسان" فكل من جائني مكسورا عاد مجبورا.

وهنا وقبل أن ينطق كلمة أخرى سمعوا صوت ضجة شديدة ودوى صوت طلقة رصاص قبل أن يقتحم الغرفة رجل يرتدي ملابس الشرطة

ليصوب مسدسه نحو الشيخ الذي وقف في ذهول من لم يستوعب الصدمة بعد وشهقت السيدة وهي تهمس:

- يا ويلي ! كيف عرفت يا "علوان".

تراجع "فودة" وهو يصيح:

- ما دخل الشرطة بعملي؟ وكيف تقتحم منزلي بتلك الطريقة؟

كان الغضب قد حول "علوان" إلي غول قادر على البطش بكل من أمامه فوضع فوهة المسدس الحكومي الضخم في فم الدجال ليقول في مقت:

- هل تعتقد أن ما تمارسه سيظل بعيدا عن عيوننا يا خسيس، ستجدني هنا في أي وقت وقريبا جدا سيصدر أمر من النيابة بإلقاء القبض عليك.

ورمق السيدة بغضب وهو يهمس:

- اتبعاني للخارج.

بدأت السيدة في البكاء وهي تتشبث بذراعه قائلة في صوت متقطع:

- العفو والسماح يا "علوان".. شعرت أننا سنفقد ابنتنا فقررت أن أحاول محاولة أخيرة.

نقد الحوذي أجرته مضاعفة وأمره بالانصراف قبل أن يقودهما إلى سيارة حكومية تحمل شعار الشرطة وانتظر حتى تحركت السيارة وسط صمت الفتاة وبكاء السيدة، قبل أن يقول:

- لولا أنني عدت إلى القصر مبكرا واستجوبت الخادمة وعرفت منها مخالفتك لأوامري بعدم الذهاب لذلك المشعوذ لما كنت لحقت بكما قبل فوات الأوان.

ظل يقود في صمت وزوجته تختلس نظرات سريعة إلى وجهه المكفهر ودقات قلبها تواصل الارتفاع فهي تعرف تلك النظرة التي تراها في عينيه الآن

وتدرك مغزاها جيدا، هناك قرار رهيب يحاول أن يمنع نفسه من اتخاذه الآن ولكنه لا يستطيع.

وعندما حاولت أن تنشغل بمراقبة معالم الطريق بعد خروجهم من الدروب الجبلية وبعدما لاحظت أن ابنتهما قد تكورت على نفسها علي المقعد الخلفي واستسلمت للنوم سمعت صوته يقول وكأنه يتحدث إلى ثالث يجلس بينهما ولا تراه:

- البنت ستموت.. أعرف أن النار تحت الرماد منذ أكثر من خمسة عشر قرنا ولكنني سأفقدها.

همست في خوف:

- هل توجه لي الحديث يا "علوان"؟

ضغط فرامل السيارة والتفت إليها ليقول:

- هل تثقي بي؟

نظرت إلى عينيه وتراجعت للخلف في ذهول عندما لمحت دموعا حبيسة تترقرق في مقلتيه وتأبى الاستسلام، هي تعرف أنه غاية في الصلابة كصخر الجبل وطيلة سنوات زواجهما لم تلمح يوما دمعة في عينيه.

ربتت على كفه لتهمس:

- أنت زوجي وأبي وحبيبي وإذا طلبت منى أن ألقي بنفسي في النيل مقيدة لأنك ستنقذني فسأفعلها.

تفادى النظر إليها وهو يقول:

-لقد اقتربنا من القصر.. ستهبطين هنا وسأصطحب "إحسان" في رحلة قصيرة مدتها أسبوع تقريبا.

قال عبارته ورأى اتساع عينيها وتلك الشهقة التي كادت أن تنفلت منها فوضع كفه على وجنتها ليقول:

- لا يوجد حل آخر يا أم "إحسان" فالبنت ستموت فلقد وصل معها مرض "السرطان" إلى مراحله الأخيرة وقد قدر لها الأطباء شهرا واحدا فقط قبل أن..

قاطعته في جزع:

- هل ستذهب إلى صاحب كرامة آخر غير الشيخ "فودة"

نظر إلى الخلف حيث ترقد ابنتهما في وهن ليقول مبتسما في شحوب:

- لا ولكن الوقت قد حان لظهور صاحب كرامات جديد.

.

.

شهقت بقوه وأنا أنهض من مقعدي

شهيق

زفير

شهيق

زفير

دخول "سلوى" وكوب الماء التقليدي لأجرعه في جنون

تربت كتفي في تعاطف لأقول لها في لهفة:

- أين عمتي "إحسان"؟

سألتها لأعدو نحو باب غرفة المكتب وأبحث عنها بعيني لأجدها تجلس تحسو فنجان القهوة في هدوء والتفتت نحوي في دهشة لتجدني أجلس بجوارها وأتطلع إلى عينيها لأجد ملامح وجه تلك الفتاة السقيمة التي كانت تنام في ضعف على مقعد السيارة الخلفي.

رأيت عمتي ترفع أصابعها لتمسح دمعة سالت على وجنتي بدون أن ألاحظ لتقول في لهفة ممزوجة بالقلق:

- ماذا هناك يا "أمجد".. هل رأيت رؤيا جديدة؟

عانقتها في لهفة وأنا أقول وسط ذهولها:

- ألف حمدا لله على سلامتك يا عمتي الحبيبة.

***

إن العلم الآن والمنطق والعقلانية سيتم وضعهم على المحك، هل سيتمكنون من فرض سيطرتهم ومد نطاق نفوذهم ليستوعبوا ما جئتكم به؟ أم سيقفوا ليشاهدوا في صمت وعدم فهم؟

19 – القاهرة

مستشفى قصر العيني

8 نوفمبر 2005

غرفة اجتماعات صغيرة وعدد من الأطباء يجلسون حول مائدة مستطيلة يتناولون أنواعا من الحلوى ويحتسون أكواب الشاي وأقداح القهوة وهناك اثنان يدخنان ويتبادلان النكات في حين يراقب طبيب مسن ما يحدث حوله في صمت وهو يطالع عددا من التقارير ويمهرها بتوقيعه وارتفع صوت أحدهم يتساءل في ملل:

- لقد شربنا لترات عديدة من الشاي والقهوة والتهمنا طنا من الحلوى ولم نعرف سبب اجتماعنا هنا حتى الآن؟

نظر له الطبيب المسن من فوق إطارات منظاره الطبي الذهبي ليقول في هدوء:

- كنت تطالب بساعة من الراحة وسط نوباتجيتك يا دكتور "فكري" وعندما تمنحك الوزارة راحة مدفوعة الأجر بالإضافة إلى أجر استشاري ستستلمه بشيك مقبول الدفع ذي أصفار عديدة تشتكي من الملل.

أشعل د/"فكري" سيجارة أخرى وغادر مائدة الاجتماعات ليتأمل الساحة الداخلية للمستشفى عبر النافذة، قبل أن تفتح الباب ممرضة حسناء مبتسمة ليتبعها اثنان من طاقم التمريض يدفعان عربة متحركة عليها عدد من الصناديق الثقيلة. ودلف رجل يرتدي حلة كاملة وقف له

الجميع احتراما قبل أن يتبعه رجل طويل القامة حليق الرأس أسمر الملامح ذو عينين بنيتين حادتين يبدو عليه التحفز.

تحدث الرجل ذو الحلة وهو يشير إليهم ليجلسوا:

- لقد تحدث إلي ضابط ذي رتبة رفيعة في مديرية الأمن بصفتي مدير المستشفى وطلب منى تسهيل مهمة النقيب "أمجد ركن الدين" الذي يريد مناقشتكم في قضية ما يقوم بالتحقيق فيها.

تقدم "أمجد" ليصافحهم فردا فردا بود وهو يبتسم ليخفف من توتر الموقف ورئيسهم يقول:

- عندما تحدثت إلى سيادة النقيب وعرفت طبيعة الاستفسارات التي يريدها قمت باختياركم بدقة عالية لكي تكونوا خير عون له.

اطمأن المدير عندما شاهد "أمجد" يتبادل معهم الدعابات فنظر إلى الطبيب المسن الذي أومئ له برأسه لكي يطمئن إنه سيخلفه وسيعمل على تنظيم حلقة الحوار في غيابه.

جلس "أمجد" بعد أن نزع سترة حلته المدنية وابتسم ليقول:

- أنا ضابط شرطة أشغل منصب مهم في جهاز أمني رفيع خاص بمكافحة الإرهاب وقد قررت بإرادتي الحرة أن أقضي فترة ما بعيدا عن القاهرة واخترت قرية في "نجع حمادي" بـ"قنا" كان جدي يخدم بها منذ ما يقرب من النصف قرن.

وأشعل سيجارة أخرى لينفث دخانها ويقول:

- هناك وسط القضايا البسيطة وفي ظل مجالس عرفية ذات سيادة ساهمت في انتهاء ظاهرة الثأر تقريبا فوجئت بعدة قضايا متشابكة معا في عقد طويل كعقود المجاذيب، تلك القضايا تطلبت مني البحث خلف ملفات وسجلات قديمة للغاية لدرجة أنني طلبت من قيادتي في القاهرة أن تساعدني في تتبع تلك الملفات في دور المحفوظات.

وأشار إلى الصناديق ليقول:

- هذا كل ما وصلنا إليه، وأنا هنا طامع في نصيحتكم ورأيكم المهني السديد فهل أنتم مستعدون لنبدأ؟

أشاروا له ليبدأ والطبيب المسن يقول وهو ينهض من مقعده:

- معك د/"صديق الحجار" يمكنك أن تعتبرني نائب المدير في اجتماعنا هذا.

نهض "أمجد" وفتح أحد الصناديق ليخرج ملفا ويقول:

- هذا الملف يضم تقارير وإشاعات تصف بدقة الإصابة التي تعرض لها ضابط برتبة عقيد أثناء مواجهته لعصابة من المطاريد اعتادت على الهبوط من وكرهم بقلب الجبل والإغارة على القرى والعودة في سلام، تلك المرة قرر أن يقود حملة لمواجهتهم في عقر دارهم وضرب لجنوده أرفع أمثلة الفداء وسار في مقدمة الصفوف ليتلقى سيلا من الطلقات يقدر بحوالي العشرين طلقة من مدفع آلي.

دفع الملف تجاههم فوزعوا محتوياته فيما بينهم وثبت د/"صديق" عددا من أفلام الأشعة السينية علي لوح مضيء خاص وبدأ يتأملها.

صمت "أمجد" وترك لهم الفرصة لعلهم يخبرونه بأية احتمالات أخرى لم يفكر فيها، فلقد وصل المقدم "شريف" إلى عدد آخر من التقارير ليضيفها إلى ما حصل عليه من عدة زيارات لدار المحفوظات، وها هو قد جمع كل تلك التركة ليلقيها أمام أعلى القامات الطبية في مصر عملا بمبدأ "اسألوا أهل الذكر".

لو تأملنا ملامحه للاحظنا هالات السواد الكثيفة التي تحيط بعينيه وتلك الشعيرات الدموية التي استوطنت بياضهما والطرقات الرتيبة التي تطرق بها قدمه اليسرى الأرض ليفرغ توتره الذي لم يفارقه منذ أسبوعين، المنطق قد غادر الدنيا منذ ذهب ليعيش بقصر جده، تلك الرؤى التي يعيشها كل ليلة بين جدران مكتبة القصر، تلك الألغاز التي تلقيها عمته

وابنتها في طريقه كل يوم ولقائه مع الشيخ "الحمزاوي" ونظرات الحب والتبجيل وأحيانا التقديس التي تحيط به كلما سار في شوارع القرية وهمساتهم:

-"حفيد سيدنا.. حفيد سيدنا"

لقد تضاعف شعوره الآن أن مصيره مرتبط بهذا اللغز الكامن بين جدران القصر..

- إصابة واضحة للغاية مزقت عضلة القلب ولا داعي لفحص باقي التقارير، هذا الرجل لقي ربه في لحظة إصابته مباشرة.

جاءته العبارة بصوت د/"صديق" لتنتزعه من أفكاره السوداء فالتفت إليه ثم دار بعنقه نحو الأطباء الذين أخذوا يقرأون التقارير بعناية فقال:

- هل هناك أي مؤشرات تشير إلى احتمالية نجاة رجلنا بعد هذه الإصابات؟

هزوا رؤوسهم ليؤكدوا رأي كبيرهم.

فابتسم "أمجد" ليرفع أمامهم ملف آخر ويقول:

- وإذا أخبرتكم أن هذا الضابط نجا من الحادث ليواصل مهام مهنته ويسقط نتيجة إصابة أخرى بعد أربعة أعوام وهذا هو ملف إصابته تلك المرة.

نزع د/"صديق" منظاره الطبي واتجه نحوه ليقول في عصبية:

- تأكد من مصادرك يا بني، أنت تتحدث إلى أعلى القامات طبية في مصر تقريبا وعندما أقول لك أن تلك الإصابة قاتلة فيجب أن تأخذ رأينا كأمر مسلم به.

دفع بالملف تجاهه وهو يقول في هدوء:

- وأنا جئت إليكم بملفات رسمية تحمل أختاما سليمة.

تأمله الطبيب الكبير وتأكد من جدية حديثه ليتناول منه الملف الجديد ويعلق فيلمي أشعة باللوح المضيء ويقترب منهما ليتأملهما جيدا وينهض اثنان آخران من الأطباء ليلحقا به ويتبادلوا عدة عبارات باللغة الإنجليزية ليشير إلى الفيلمين ويقول بهدوء:

- تلك المرة الرصاصة اخترقت مركزا حيويا رئيسيا بالمخ والمصاب بالتأكيد توفي لحظة الإصابة.

ضحك "أمجد" ليقول:

- أرجو المعذرة فالموقف غاية في الطرافة..

وقطع عبارته ليخرج ملفا جديدا ويتحرك ليقترب منهم ويقول:

- تلك المرة نجى بطلنا ليتعرض بعدها بعام إلى محاولة اغتيال ولقد قام القاتل بتصويب طلقته بمنتهى الدقة إلى قلبه ولا داعي لأن أؤكد لكم أنه نجى مرة أخري ليستشهد في آخر عملياته عام 1965.

سادت فترة من المناقشات الجانبية وتصفحوا عددا من المراجع قبل أن يتقدم نحوه د/"صديق" ليقول في ذهول:

- هناك احتمالان يا صديقي، الاحتمال الأول أن هناك خلطا قد حدث في الملفات وبالتالي تلك الملفات تصف مصرع عدة أشخاص مختلفين، والاحتمال الآخر هو أن صاحب تلك الملفات ولي من أولياء الله الصالحين ذوي الكرامات.

أصابته عبارة الطبيب في العمق وزلزلت معتقداته مما جعله يعبث في الصندوق بعصبية ليخرج ملفا آخر ويعطيه للطبيب ليقول:

- هذا ملف مريضة سرطان كانت تعاني سرطان الدم "اللوكيميا" في مرحلة متقدمة والملف ينتمي لسنة 1955.

تناول الطبيب الملف وأشار إلى طبيب نحيل القوام، أصلع الرأس يرتدي منظارا طبيا سميكا ليقول:

- د/"فارس الأدور" أهم طبيب أورام لدينا.

تقدم الطبيب ورفع منظاره الطبي على جبهته التي يكسوها العرق وبدأ يتأمل صفحات الملف ليقول في هدوء:

- تلك الفتاة بالفعل وصلت إلى مرحلة متقدمة من المرض لم يكن ليجدي معها أي علاج، ويمكنني أن أؤكد لك أنها توفت بعد هذه التحاليل بشهر على أقصى تقدير.

مال نحوه ليقول في مزيج من الضيق والحيرة والتحدى والعصبية:

- وماذا ستقول لو أخبرتك أن تلك الفتاة نجت من المرض وعاشت حياة عادية وتزوجت وأنجبت ولا تزال على قيد الحياة حتى الآن.

- مستحيل.

صرخ د/"فارس" بتلك الكلمة في عصبية واستنكار، قبل أن يشير إليه ليقول في غضب:

- هناك سر ما في الأمر وحضرة الضابط جمعنا هنا بأمر من قادته ليسخر منا أو ليطلب منا التوقيع على تقرير يخدم أحد القضايا المشبوهة.

خفض "أمجد" بصره وهو يزفر في عصبية ويكظم غيظه كما تعلم وكما اعتاد دائما، ورفع عينان محتقنتين نحوه ليقول في لهجة بطيئة النبرات:

- هل تعتقد أن أعلى الرتب في الداخلية قامت بترتيب هذا الإجتماع من أجل أن يورطكم في خدعة ما؟

تنحنح د/"صديق" ليقول في حرج:

- إنه لا يقصد يا حضرة الضابط ولكن.. أنت تتحدث هنا عن معجزات طبية ما ونحن لم نعد في عصر المعجزات يا صديقي، نحن هنا نتحدث بالأرقام وبصور وتقارير الأشعة وأنت تتحدث عن ألغاز للأسف لا نملك لها حلا.

جال ببصره في وجوههم وهو يتمنى أن يصرخ في غضب حتى تتشقق جدران القاعة أو تتمزق أحباله الصوتية وكاد أن يجمع أوراقه وينصرف ولكنه تذكر ملفا آخر فتحرك نحوهم ليدفع بالملف وهو يقول:

- آخر ملف.. الملف لعمدة إحدى القرى كان يتمتع بصحة جيدة قبل أن يصاب بسرطان الدم فجأة وبدون أية مقدمات لتتدهور حالته ويموت خلال أسبوع واحد.

تناول د/"فارس" الملف وبدأ يطالعه ليحدق في وجه "أمجد" بذهول ويقول:

- هذا التدهور الحاد خلال تلك المدة القصيرة في المعدلات الحيوية لا يحدث إلا في حالة التعرض الكثيف لمصدر إشعاعي قوي جدا ومباشر، وأنت تتحدث عن عمدة في قرية بسيطة وليس عن فني في مفاعل نووي.

أشعل سيجارة جديدة ونهض من مقعده وهو يقول في لهجة يائسة:

- أنتم لا يمكنكم أن تتصوروا مقدار الصراع الذي أخوضه يا سادة، لقد جئت إليكم بكم هائل من الحيرة والتشتت يشكل ضغطا رهيبا على أعصابي لأن المكان الذي أعمل به حاليا يجمع سكانه على تقديس شخصية ما ويلقبونه بـ"سيدنا" وبـ "أبو الكرامات" وقد دفنوه داخل ضريح ملحق بمسجد ويقام له مولد كل عام يحج إليه الآلاف.

- وهذا الولي له علاقة بكل تلك الملفات يا بني؟

سأل د/"صديق" سؤاله في تردد.

فابتسم ليقول في استسلام:

- لقد تعرض لكل تلك الإصابات القاتلة ونجا منها كما رأيتم، ولا داعي بالفعل لإخفاء الأمر أكثر من ذلك، "أبو الكرامات" يا سادة هو جدي لأبي العميد "علوان عوف الأصيل".

- والفتاة التي شفيت من السرطان بمعجزة؟

- عمتي وقد اصطحبها جدي إلى رحلة علاج غير تقليدي ما وعادت بعد أسبوع بعد أن برأت من مرضها.

كانوا يحدقون في وجهه بذهول وقد صمتوا تماما قبل أن يخترق د/"فارس" الصمت وهو يسأله في صوت مختنق:

- والعمدة الذي تفاقمت حالته خلال تلك الفترة القصيرة؟

كان يجمع الملفات ليودعها في الصناديق فالتفت إليه ليقول:

- كان يدافع عن الباطل وينصره لدرجة دفعت جدي لأن يهدده بانتقام السماء ويلعنه ويحذره من عقاب الله له بمرض مهلك قبل أن يصاب بالمرض اللعين بأسبوع واحد.

تأمل وجوههم الباهتة ونظرات الذهول التي استعمرت عيونهم ليقول في لهجة مستسلمة:

- كنت أتمنى أن أجد تفسيرا ماديا لكل ما حدث في تلك القرية منذ أربعين عاما تقريبا لأنني لا أعتقد في كرامة الأولياء، وعشت طيلة حياتي أقدس العلم وقوانينه ولكنكم تلقيتم كرة النار التي ألقيتها في ملعبكم لتعيدوها لي مرة أخرى بعكس ما كنت أتوقعه.

همس د/"صديق":

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره"

قال عبارته ليقترب من "أمجد" ويربت كتفه وهو يقول:

- لقد ناقشنا كل ما حملته إلينا من تقارير وأفلام أشعة علميا يا بني، ويمكنك الآن أن تعيد النظر في مسلماتك الشخصية وتقرأ عن كرامات الأولياء، لأن ما تتحدث عنه الآن قد نقلنا من خانة التفسيرات العلمية التي وقفت عاجزة عن تفسيره، إلى خانة الاحتمال الآخر الذي جئتنا خصيصا لتنفيه حتى تعيد الاتزان إلى منظومة معتقداتك.

دلت ملامحه على الحيرة البالغة وعلى أنه قد بدأ يستسلم وهو يقول:

- وما هو هذا الاحتمال الآخر يا كبير الأطباء؟

نظر إلى عينيه مباشرة وهو يقول في هدوء:

- أن جدك كان معجزة حقيقية وقد وهبته السماء هديتها التي لا يتلقاها إلا الصالحين.

وصمت قليلا ليقول في ثقة وبصوت مرتجف:

- إن جدك كان وليا من أولياء الله بالفعل ويستحق اللقب الذي يلقبونه به.. لقب "أبو الكرامات".

***

لن تمنحك الرؤى تصريحات تساعدك على حل ما يحيط بك من غموض، بل ستكتفي بمنحك تلميحات، وهذا سيتطلب منك أن تتذكر كل عبارة بل كل كلمة قد سمعتها، فذلك سيشكل فارقا كبيرا ستعرف أثره قريبا جدا.

20 – العلوانية

9 نوفمبر 2005

وقف يتأمل أرفف المكتبة التي تحيط به من الجهات الأربعة في حين جلست "سلوى" على مقعد مريح خلف المكتب المصنوع من الخشب المعشق تتأمل حيرته في فضول، كان يقف وقد ضاقت عيناه وانطبقت أسنانه في غيظ مما جعل عظام فكه تبدوا أكبر من حجمها الطبيعي، وبدأ يدور حول نفسه وهو يشير إلى اللافتات الورقية التي تبين أقسام المكتبة وتنظم الكتب في مجموعات حسب موضوعاتها، مما جعلها تشعر بالشفقة والقلق عليه خاصة عندما بدأ يهمس لنفسه بكلمات لم تتبينها ثم توقف ليشير إليها قائلا:

- جدي كما تقولون جميعا قد جاء بي إلى هنا من أجل هدف ما ولهذا لن يتركني أدور في دوائر مفرغة بدون أن يترك لي دليلا ما أو إشارة ما تقودني نحو أول الطريق.

نهضت من مكانها لتقترب منه بملامحها الدقيقة وعينيها الواسعتين اللتين أصبح لا يقاوم النظر إليهما ووقفت بجواره ليتسلل عطرها الهادئ إلى أنفه، فمال نحوها ليقول:

- هل تسمحين لي أن أقول إنك تمتلكين أجمل عينين رأيتهما في حياتي.

ابتسمت تلك الابتسامة الغامضة التي تزيدها سحرا وفتنة وهي تقول:

- كنت أعتقد أن ضباط الداخلية لا يجيدون إلقاء عبارات الغزل.

ضحك ليقول:

- ضباط أمن الدولة فقط ولكن ضباط مكافحة الإرهاب يجيدونه.

تأملت عينيه البنيتين قبل أن تقول بدون تروي:

- أنت لست بالقسوة التي تريد أن توحي لكل من يراك بها، بداخل عينيك يغفو إنسان غاية في الطيبة والهشاشة، وهناك حزن مدفون بداخلك، حزن تحاول أن تخفيه في أعماقك ولكنه يضغط على أعصابك بقوة.

قالتها بلهجة حانية وبصوت ناعم وبدون مقدمات فنظر إليها في دهشة ليقول في عصبية:

- أنت لم تعرفيني جيدا بعد، والمهنة التي أمتهنها بعيدة كل البعد عن الطيبة وعن الهشاشة التي تتحدثين عنها.

وصمت قليلا وقد تسلل التوتر إلى صوته ليقول:

- أنا ضابط في قوة التدخل السريع وهي فرع من فروع قوات مكافحة الإرهاب، هل تعرفين معني مصطلح (قوات التدخل السريع) وسط قوات الشرطة، أننا نتحرك لنقتل فقط.

قطع عبارته ليتأمل المكان حوله قبل أن يقول في لهجة هي المزيج من الغضب المكتوم والحزن الدفين:

- طيبة وهشاشة وحزن! في تلك العملية الأخيرة اللعينة وضعني القدر في موقف جعلني أقتل طفلا صغيرا في الثانية عشرة من العمر لمجرد أن والده وضع في كفه مدفعا سريع الطلقات وأمره باستخدامه، قتلته برصاصة في عنقه مباشرة وهذا ما حول حياتي إلى جحيم مقيم وجعلني أطلب نقلي من قوة مكافحة الإرهاب إلى هنا، لم استطع حتى الآن أن أنسى تلك النظرة التي كانت في عينيه وهو يسلم الروح.. لم أستطع حتى الآن.

كان يقف في انفلات أعصاب كامل وقد ضم قبضتيه وكأنه يستعد للاشتباك مع خصم ما.

كانت تنظر إلى عينيه والدموع التي أغرقتهما وتتحرك نحوه وقد ارتجفت شفتاها وهي تقول في صوت متهدج:

- لا تقسو على نفسك فأنت تقول إنه كان يحمل مدفعا و..

كانت أعماقه تكبت آثار تلك الحادثة وتحاول أن تهيل عليها أكواما من ركام الأحداث اليومية، ولكنها بعبارتها العفوية أزالت بدون قصد هذا الحاجز فوجد نفسه يعيش الذكرى الأليمة من جديد ليصيح في ألم:

- أحاول أن أنسى ذلك المشهد ولكنني لا أستطيع.. لقد قتلت طفلا صغيرا.

قال عبارته وهو يتراجع ليستند بظهره إلى أحد جدران المكتبة وبدأ يترك العنان لدموعه لأول مرة بعد تلك الحادثة، كان يبكي بصوت مكتوم وهو يهبط مستندا على الجدار حتى جلس علي الأرض وقد ضم ركبتيه إلى صدره ثم استند بجبهته عليهما وهو ينشج بصوت مرتفع وقد فقد السيطرة على أعصابه تماما.

وقفت تتطلع إلى انهياره في ذهول وهي تشعر بقلبها ينفطر من أجله لتهتف في أسى:

- "أمجد".. أنا آسفة للغاية.

قالتها وأسرعت لتجلس بجواره وتربت كتفه ورأسه وهي تقول بصوت مرتجف تغزوه دموعها:

- أرجوك لا تبكي فلا يمكن أن أحتمل.

كان يفرغ ذلك الصديد المتراكم داخل حنايا نفسه بعد أن تجاهل وجوده طويلا، وبدون أن يشعر وعندما وجدها بجواره تربت علي رأسه الحليق ارتمي في أحضانها وهو يواصل البكاء المكتوم.

استسلمت للموقف وبدأت تربت علي ظهره في حنان بالغ وهي تهمس في أذنيه:

- لم تكن غلطتك.. أنت تقتل نفسك هكذا وتقتلني معك.

أفرغ كل حزنه وذنوبه على صدرها وبدأ يتمالك نفسه ويشعر بأبعاد الموقف حوله، فابتعد عنها في حرج وهو يهمس:

- أنا آسف للغاية فلم أتعمد أن..

ابتسمت وهي تربت تخرج منديلا ورقيا من جيبها وتجفف دموعه المتناثرة على وجنتيه وهي تقول:

- لا داعي للآسف.. هل تشعر بتحسن أم احتضنك مرة أخرى؟

نظر إلى عينيها لثانيتين قبل أن يبتسم لدعابتها.

ونهضت في رشاقة قبل أن تمد يدها لتعاونه علي الوقوف لتقول:

- هيا فنحن أمامنا لغز يجب أن نجد له حلا.

كان يعرف إنها تحاول أن تجذبه بعيدا عما حدث فلوح بسبابته مشيرا إلى الفراغ ليضيف وقد ارتسمت ابتسامة شاحبة على شفتيه:

- عندما أفكر الآن بمنطقكم وبمنطق الشيخ "الحمزاوي" سنجد أن هناك قوى خفية دفعتني دفعا حتى أعود إلى هنا بإرادتي الحرة، إنه يريدني منذ البداية يا "سلوى".

كانت تتأمله بدون أن تحاول مقاطعته برغم شعورها بالشفقة تجاهه لكم الحيرة التي يشعر بها.

صمت قليلا قبل أن يقول وهو يتحدث إلى نفسه:

لم يكن ليتركني هنا بدون أي بداية لطرف خيط أتبعه، هناك شيء ما قاله لي وكان يقصد أن ..

قطع عبارته والتفت نحوها ليقول بصوت مرتفع:

- تلك العبارة التي يكررها على مسامعي كل ليلة.

همست في رهبة وعيناها تزدادان اتساعا:

- "اقرأ فإن حياة واحدة لا تكفي"، كان يرددها على مسامعي في كل مرة قبل أن يتركني.

ابتسم قائلا:

- كنت أعتقد إنها نصيحة عامة كالتي ينقشونها على جدران المكتبات ولكن هناك سر يسكن تلك الجملة، بالتأكيد هناك رسالة يحاول بها أن يرشدني إلى ذلك السر الكامن داخل جدران القصر كما تقولون.

قال جملته ودفع بالسلم الرأسي الخشبي نحو أحد جوانب المكتبة ليقول:

- هناك علم من العلوم القديمة يعمل على تحويل الحروف إلى أرقام لقد قرأت عن هذا العلم من قبل ولكنني نسيت كل شيء عنه.

قالها ليتسلق السلم إلى مستوى أحد الأرفف وبدأ يقرأ العناوين ليقول:

- نحن الآن في قسم العلوم الباطنية وبالتأكيد سنجد هنا كتابا يتحدث عن مبادئ هذا العلم.

وجذب كتابا ذا غلاف جلدي أسود ليقول:

- سنجد ضالتنا هنا.

هبط ليتجه نحو المكتب فقامت لتترك له فرصة للجلوس خلف المكتب، فابتسم وتطلع إلى عينيها قائلا:

- هل يمكن أن تطلبي لي قدحا مضاعفا من القهوة المركزة السادة فأنا أحتاجه بشده.

لاحظت إنه يطيل التحديق في عينيها فابتسمت وأسرعت لتطلب من الخدم قدح القهوة وعادت لتجده ينقل علي ورقة خارجية مربعا يمتلئ بالأرقام والحروف

أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	
1	2	3	4	5	6	7	8	
	ط	ى						
	9	10						
ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص	
20	30	40	50	60	70	80	90	
	ق	ر						
	100	200						
ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ	
300	400	500	600	700	800	900	1000	

تأملت جدول الأرقام لتقول:

- وماذا سنفعل الآن؟

رجع بظهره إلى الخلف وقال بهدوء:

- هنا نقوم باستبدال كل الحروف بما يقابلها من أرقام ومن المعتاد هنا استخدام طريقة تسمى (الجمع بالحرف الكبير) وهي الإبقاء على الأصفار

أمام الأعداد، سنطبق تلك الطريقة مع عبارة "اقرأ فإن حياة واحدة لا تكفى"

وقفت تراقبه وهو يفكك الجملة إلى حروف ويستبدل الحروف بالأرقام المقابلة ثم قام بجمع تلك الحروف

إقرأ + فإن + حياة + واحدة + لا + تكفي

أ+ق+ر+أ +ف+أ+ن +ح+ى+أ+ت +و+أ+ح+د+ت +ل+أ +ت+ك+ف+ى

1+30+ 400+4+8+1+6+ 400+1+10+8+ 50+1+80+ 1+200+100+1
= 10+80+20+400+

1812 = 510 + 31 + 419 + 419 + 131 + 302

ابتسم ورفع الورقة أمام عينيها ليقول:

- حصلنا على رقم 1812

لم تفهم سبب ابتسامته فقالت:

- وما دلالة هذا الرقم؟

ضحك وهو يقول:

- حاليا لا أجد له أية دلالة. ولكنني سأبحث له عن دلالة هنا في غرفة المكتب وإن لم أجد له دلالات فسأجد المعادل الرقمي للجملة باستخدام (الجمع بالحرف الصغير) وهي تلك الطريقة التي تعتمد على جمع الأرقام بدون أصفار العشرات والمئات والآلاف.

بتلك الطريقة نجد التالي وبدأ يكتب مجموعة أخرى من الأرقام

أ+ق+ر+أ +ف+أ+ن +ح+ى+أ+ت +و+أ+ح+د+ت +ل+أ +ت+ك+ف+ى

1+8+2+4 1+3+ 4+4+8+1+6+ 4+1+1+8+ 5+1+8+ 1+2+1+1

75 = 15 + 4 + 23 + 14 + 14 + 5

وكتب الرقمين 1812 و75 وقال وهو يشير إليهما:

- لاحظي أن مجموع الأرقام في الحالتين يكون متساويا

12 = 5 + 7 = 75

12 = 1 + 8 + 1 + 2 = 1812

بدا عليها الحماس وهي تقول:

- ولو قمنا بجمع الرقمين 2 + 1 سنجد رقما جديدا وهو 3

تحرك نحو رفوف المكتبة وقال:

- سنختبر كل الاحتمالات فهناك أربعة أرقام لدينا وهي 1812 و75 و12 و3.

بدا عليها الفرحة فبدت كطفلة وجدت لعبة جديدة لتصفق قائلة:

- قد تكون أرقام كتب فجدنا رحمه الله حرص علي ترقيم الكتب وترتيبها وأنا لم أقم بتغيير الترتيب، كنت أقوم بتنظيفها وترميمها وأعيدها إلى مكانها الأصلي، وكل الكتب التي أضفتها بنفسي قمت بترقيمها بطريقة مختلفة.

بدأ يتحرك متتبعا الأرقام ليلتقط الكتب التي تحمل علي كعوبها الأرقام الأربعة مغلفة بالبلاستيك.

تأملا الكتب الأربعة لتقرأ العناوين وتقول:

- الجزء الثالث من كتاب "رسائل إخوان الصفا"

- الجزء الرابع من كتاب "الفتوحات المكية" لـ "ابن عربي"

- رواية "صورة دوريان جراي" لـ "أوسكار وايلد"

- مختار رسائل "جابر بن حيان" تصحيح ونشر "ب. كراوس"

زفر في ضيق وهو يصيح:

- ما علاقة تلك الكتب ببعضها البعض؟

ضربت كتفه برفق لتقول في لهجة ذات مغزى:

- هل كنت تعتقد أنك ستجد الحل بتلك السرعة؟ صدقني يا "أمجد" لقد تقدمت في طريق الحل خلال شهر ما لم أستطع القيام به خلال سنوات طويلة.

أشار إلى الكتب ليقول:

- اتركيها مكانها يا "سلوى" سأذهب إلى النقطة وأعود من أجلها مساء، واتجه نحو الباب ليفتحه ويخرج قبل أن يعود مرة أخرى ليقول:

- كدت أن أنسى أمرا مهما كان يجب أن أخبرك به وتحرك نحوها لينظر إلي عينيها ويقول في خفوت:

- يبدو أن جدنا لم يحضرني إلى هنا عبثا بالفعل، فها أنا قد بدأت أحبك.

ودار لينصرف وتركها تنظر إلى الباب وابتسامة واسعة ترتسم على شفتيها الرقيقتين.

***

نحن الآن سنتحرك في أرض مجهولة تماما، سنوغل فيها برفق سنتلفت حولنا في حذر لأننا جئنا هنا بدون تصريح وقد نتسبب في إثارة سخطهم، اتركوا وراءكم كل ما درستموه من علوم فقد بدأ عصر جديد.. ومخيف.

21 - الفاتيكان

2005

واجهة زجاجية يقف أمامها رجل في منتصف الستينيات يرتدي الزي الرسمي لكرادلة الفاتيكان وبجواره رجل آخر في الأربعينيات من العمر يرتدي معطفا طبيا أبيض وبجوارهم رجل متين البنيان حليق الرأس يرتدي زيا عسكريا نظاميا، وبدا عليهم الاهتمام وهم يراقبون ما يحدث أمامهم.

كانوا يتطلعون إلى مختبر علمي حديث يتحرك فيه ذهابا وإيابا عدد من العلماء يرتدون أقنعة واقية على وجوههم، ويتحلق بعضهم حول دائرتين من المعدن المصقول مقيد إلى كل منهما فأر تجارب في وضع المصلوب.

التفت حليق الرأس إلى الكاردينال ليقول في هدوء:

- الأمر يستحق التجريب فلقد قمنا بجمع المزيد من المعلومات وأصبحنا في وضع أكثر استقرارا.

التفت إليه العالم ليقول وعيناه تتابعان ما يحدث أمامه:

- حالنا الآن أفضل بكثير مما كان عليه الوضع في منتصف الستينيات بالطبع.

أخرج الكاردينال سيجارة من علبة سجائر فضية أنيقة ليشعلها ويقول في هدوء:

- لقد استعنا بكل المخطوطات الموجودة في الركن الأسود من المكتبة وتتبعنا آثر الرحلة التي قام بها صديقنا إلى"ألمانيا الغربية" واعتمدنا على الوصف الدقيق الذي أرسله إلينا "مانويل" لتوه على لسان الملعون "فودة".

أطلق حليق الرأس سبة قبيحة قبل أن يغمغم:

- معذرة يا نيافة الكاردينال.. ولكنه ذلك الحقير "فودة" هو سبب ما نعاني منه منذ أربعين عاما، فلقد قام بغباء متناهي بحرق المغارة بما فيها وحرمنا من الحصول على التفاصيل بالكامل.

أشار العالم إلى ما يجرى أمامهم ليقول:

- قد تنجح التجربة الآن وتنتهي المسيرة الشاقة ونحتفل جميعا ونشرب خمر النصر.

هنا جاءهم صوت أحد العلماء يقول عبر دائرة اتصال مغلقة:

- حان الآن دور القس فلقد انتهى دور العلم.

رفع الكاردينال هاتفه المحمول وضغط زرا للاتصال السريع ليقول:

- الأب " فرناندو بوتسو" لقد حان دورك.

مضت دقيقة قبل أن يشاهدوا دخول ذلك الكهل النحيل الذي يرتدي زيا كهنوتيا والذي دخل إلى المختبر حاملا حقيبة معدنية تتصل بمعصمه الأيمن بسلسلة معدنية قوية، ورفع عينيه نحو ثلاثتهم ليهز رأسه بالتحية قبل أن يفتح الحقيبة المعدنية بتمرير إبهام يده اليسرى علي مربع زجاجي في جانب الحقيبة، ثم قام بإدخال شفرة رقمية مكونة من عشرة أرقام وأخرج منها مخطوطا بني اللون مغلفا بالبلاستيك، والتفت إلى العلماء الذين نظروا إليه في توتر ليقول:

- سأبدأ في تلاوة الترنيمة ولكي يمر الأمر بسلام أريد منكم أن تقوموا بثلاثة أشياء إذا كنتم مصرين على البقاء داخل المختبر أثناء عملي.

أولا: عليكم أن تحيطوا أعينكم بالعصابات السوداء التي اتفقنا عليها.

ثانيا: ستقفون داخل الدوائر المرسومة على الأرض في أركان المختبر

ثالثا: ستولوني ظهوركم ولن تستديروا قبل أن أسمح لكم.

تبادل العلماء النظرات قبل أن يطلب ثلاثة منهم الخروج، وغادروا المكان وأحدهم يقول في لهجة متقطعة:

- سننتظركم بالخارج.. لن نستطيع أن.. فنحن رجال علم فقط.

أسرع الأربعة علماء الذين فضلوا البقاء وإتباع تعليماته وتحركوا ليقف كل منهم داخل دائرة مرسومة على الأرضية باللون الأزرق وقد أحاطت بالدائرة مجموعة من الكلمات المكتوبة بلغة غريبة بدت غير مفهومة لهم وعندما اطمأن الأب "فرناندو" إلى أنهم أولوه ظهورهم نظر إلى الكاردينال الذي نفث دخان سيجارته وأشار إليه أن يبدأ.

همس الحليق الرأس:

- هل نحن في أمان هنا؟

ضغط العالم زرا بجواره ليهبط ساترا أسود حجب عن ثلاثتهم الرؤية، قبل أن يأتيهم صوت القس وهو يترنم بما يشبه أبيات شعر باللاتينية، وبرغم جهلهم بمعنى الذي يقوله إلا أنهم كانوا يعرفون إنه يقوم باستدعاء شيء شيطاني شرير كان غافيا في سقر لآلاف السنين.

صوت الترانيم يصل إليهم بصوت الأب "بوتسو" الرخيم الذي كان يتلوها في ثبات الراسخين والخبراء في تلك الأمور السوداء.

Nos invite vos adtende ius omnia quae erat inter nos, et cartas que satin

Maledicta terra in ripa nunc voco parere illicita non ardeant

Si tacuerimus et noluerimus motus moventur moveri adtendi adtendi pace

Et ad efficiendum quid creatum in solum implementation

solution et in indignatione, et Bafumit Ballwegor

In commutationem pro anima est et adversus spiritum spiritus aequum est plurimum

"بوتسو" يواصل قراءته للترانيم المكتوبة في المخطوطة، العلماء الأربعة يقفون في ثبات داخل الدوائر.

Et nunc quid tibi vincula et non solum plenam et liberabo eas volentibus cooperatur

Transferantur ab iniuria scopum tenderet absque scuto ostendemus vobis nocebit

بدأت درجة الحرارة ترتفع في اطراد

هناك رائحة بدأت تنتشر في المكان هي مزيج من رائحة الكبريت والبيض الفاسد

الأرض تحت أقدامهم ترتج

صوت هو خليط من عواء الذئاب وصهيل الخيول مصحوبا بصوت سلاسل معدنية ترتطم بالأرض

الترانيم مستمرة

الصوت المنفر يرتفع أكثر وأكثر

الرائحة تصير أكثر بشاعة

"بوتسو" يواصل التلاوة

أحد العلماء يرتجف وهو يحاول حجب الصوت عن أذنيه بكفيه وصاح في انفلات أعصاب كامل:

- لن يمكنني أن أحتمل المزيد، سأخرج من هنا حالا.

نزع العصابة من حول عينيه وأسرع نحو باب المختبر لكنه لمح ما يحدث في منتصف المكان، اتسعت عيناه في هلع وهو يصرخ ويصرخ..

شاهد "بوتسو" شعر العالم يشيب لحظيا بالكامل قبل أن يتحول فجأة إلي حفنة من الرماد تناثرت على أرض المختبر.

تجاهل القس ما حدث وواصل التلاوة

Nunc tendunt in hoc tendunt ut salus, tu nunc libero

Dextrum ac deciderent satin Bamuk Abraxas

قبل أن يتوقف ويعيد المخطوطة إلى الحقيبة المصفحة ويرفع هاتفه المحمول ليقول:

- انتهى دوري ولكننا فقدنا أحد العلماء.

والتفت جهة العلماء الثلاثة الذين وقفوا يرتجفون داخل الدوائر الزرقاء ليقول:

- يمكنكم الآن أن تواصلوا التجربة.

قالها لينصرف في هدوء.

ضغط الكاردينال الزر فارتفع الحاجز الأسود عن الواجهة الزجاجية وتفادوا النظر إلى حفنة الرماد التي تبقت من العالم الرابع ليقول الحليق الرأس في جهاز الاتصال:

- ابدأوا المرحلة الأخيرة من التجربة.

تفادي أحد العلماء المرور فوق كومة الرماد التي تخلفت عن زميله، ورفع نصلا فضيا رفيعا ليتجه نحو أحد الفأرين ويولج النصل في صدره ليطلق الفأر صيحة حادة قبل أن يسلم الروح.

وضغط عالم آخر زر تشغيل ساعة إيقاف رقمية.

تطلع الجميع إلى الفأرين في ترقب وأمل

العالم الثاني كان يراقب الأرقام التي تواصل القفز على شاشة ساعة الإيقاف وهو يقول:

- مرت دقيقة ..

- مرت دقيقتان

- مرت ثلاث دقائق

- مرت أربع دقائق

وهنا زفر الكاردينال في ضيق شديد والتفت إلى رفيقيه ليقول:

- لقد فشلت التجربة.

هتف حليق الرأس في غضب:

- فشلت! بعد كل ما قمنا به.

ضغط العالم زر جهاز الاتصال ليقول:

- التجربة رقم 12 فشلت.

وهنا وضع حليق الرأس كفه على كتف الكاردينال ليقول:

- يجب أن ينجز "مانويل" تلك المهمة بأي ثمن، فتلك المخطوطات التي يحتفظون بها في القصر هي الطريق الوحيد لنجاح تلك التجربة، هل سمعتني.. قلت لك بأي ثمن.

***

إنها تلك اللحظة الفارقة التي تدرك فيها أن وقت المرح قد انتهى، وأنهم بدأوا بالفعل في التسلل إلى نطاق ثقتك ودائرة أمنك الخاصة، تلك اللحظة التي تدرك فيها أن الحقيقة لن تنتظرك إلى الأبد.

22 - نقطة شرطة العلوانية

الرحمانية قبلي

12نوفمبر 2005

جلس "مانويل" علي المقعد الخلفي لسيارة ضخمة ذات دفع رباعي يرخي قبعة علي عينيه اتقاء لأشعة الشمس وقد استغرق في مطالعة ملف متوسط الحجم وهو يرفع عينيه كل فترة ليراقب مدخل نقطة الشرطة التي تحمل اسم "العلوانية" وصدرت نغمة عن هاتفه المحمول فرفعه ليقرأ اسم المتصل وهنا رفعه إلى أذنه في لهفة ليقول:

- معك "مانويل" يا دكتور، تحدث..

بدأ يستمع إلى المحادثه في إنصات كامل قبل أن يقول:

- عرض على فريق من الأطباء ملفات تنتمي لعام 1955؟ وماذا كان رد الفريق الطبي؟

استمع مرة أخرى لدقائق قبل أن يقول:

- لقد قمت بكل المطلوب منك يا دكتور، وسيصل إليك شيكا بالمبلغ وفوقه هدية ثمينة لأننا نقدر جيدا من يعمل معنا.

وضع الهاتف في جيبه ليتأمل النقطة مرة أخرى لفترة قصيرة، وبدا أنه قد حسم أمرا ما كان يحيره قبل أن يقول لسائق السيارة:

- ستنتظرني هنا حتى أعود.

قالها ليهبط ويتجه في خطوات ثابتة نحو النقطة ليدخل ويتجه نحو مكتب النوباتجية ليقول للعسكري الجالس خلف المكتب:

- أريد مقابلة رئيس النقطة، من فضلك سلمه هذا الكارت.

تناول العسكري الكارت الشخصي وهو يتطلع إلى ملامحه الأجنبية وحلته الفاخرة وأسرع نحو مكتب رئيس النقطة، ليسلم الكارت إلى "أمجد" الذي ترك الأوراق التي كان يوقعها وقرأ الاسم والمنصب الذي يليه ليشير إلى العسكري "محمدين" ليسمح لصاحب الكارت بالدخول.

دخل يسبقه عطره الفاغم ليصافح "أمجد" ويقول لغة عربية ذات لكنة أجنبية محببة:

- مع سيادتكم "مانويل دي سيلفا" مستشرق والملحق الثقافي بالسفارة الإيطالية بمصر.

ابتسم "أمجد" ليقول:

- لغتك العربية ممتازة يا سنيور "مانويل"، ما هو مشروبك المفضل؟

ابتسم ونزع قبعته ليقول:

- ليمون "بنزهير" في الخلاط .

ضحك وهو يوصي العسكري بإحضار الليمون وقال:

- مرحبا بك في قلب الصعيد يا سنيور، كيف يمكنني أن أساعدك.

رجع برأسه إلى الخلف ليقول في خفوت:

- بلدكم الجميلة محفوظة ببركة مولانا "علوان" قدس الله سره، يمكنك أن تلاحظ تغير رائحة الجو ونقائه كلما اقتربت من الضريح المبروك.

قطب "أمجد" حاجبيه ليقول في ضيق:

- أنت أيضا على دراية بموروث مدينتنا الثقافي.

رشف عدة رشفات من كوب العصير ليقول مبتسما:

- أخبرتك أنني مستشرق ومجال دراستي هو المذاهب الصوفية وأقطابها خاصة في جنوب مصر.

وقطع عبارته وهو يقول:

- لقد حصلت على درجة الماجستير من جامعة "أدنبرة" في هذا التخصص.

- وكيف يمكنني أن أخدمك؟

لوح بكفيه ليقول في حماس:

- أنا مجنون باقتناء الكتب والمراجع الأصلية يا سيادة النقيب، اكتشفت مؤخرا أن علم النفس يطلع على حالتي اسما أنيقا (بيبلومينيا) (Bibliomania) ومعناها جنون اقتناء الكتب حتى ولو لم تستطع أن تقرأها.

هز "أمجد" رأسه ليطالبه باستكمال حديثه، فقال وهو يخرج ورقة من ملف بصحبته:

- كان هناك تعاون بين مولانا "علوان"– رحمه الله – وبين السفارة الإيطالية لأنه كان واسع الإطلاع وطلب العديد من المراجع من "إيطاليا" وقد زاره القنصل الإيطالي والملحق الثقافي ذات مرة واستعارا عددا من كتبه.

قال عبارته وأخرج صورة فوتوغرافية قديمة أعطاها لـ "أمجد" الذي ابتسم وهو يشاهد جده مبتسما للكاميرا وهو يصافح رجلا ذا ملامح أجنبية وبجواره رجل آخر أشيب الشعر يتصفح كتابا ما.

صمت تماما وظل يتأمل الصورة مبتسما وهو يتحسس ملامح جده في حنان

من أنت أيها الرجل الطيب؟

ما هو السر المستغلق الذي جئت بي من القاهرة إلى هنا لأحله؟

ما سر هالة التقديس التي تحيط بك والتي دفعتهم لدفنك داخل ضريح ورفعك إلى مصاف الأولياء؟

هل أنت ولي صالح من أولياء الله أم دجال كما قال ذلك المشعوذ "فودة"؟

- جئت إليك بخطاب توصية من القنصل الإيطالي إلى وزارة الخارجية المصرية التي تفضلت بكتابة خطاب توصية خاص لك.

أفاق "أمجد" من تأملاته على عبارة "مانويل" فتناول منه خطاب التوصية وقال وهو يشير إلى الصورة:

- هل يمكنني الاحتفاظ بها؟

ضرب المكتب برفق وهو يقول في لهجة ودودة:

- بالتأكيد يا حضرة النقيب وهناك مجموعة أخرى من الصور يسرني أن أقوم بإهدائك إياها.

فتح المظروف وبدأ يقرأ محتويات الورقة الرسمية التي تحمل خاتم وزارة الخارجية ليقول في حيرة:

- كان يمكنك أن تأتي مباشرة بدون خطابات توصية رسمية، ماذا تريد يا سنيور؟

أخرج ورقة مستطيلة صغيرة من الملف ليقول:

- من تقارير قديمة كتبها الملحق الثقافي الإيطالي صرنا نعرف جيدا مدى ما تحتويه مكتبة قصر مولانا من مراجع ثمينة ومخطوطات نادرة وأنا هنا لأعرض عليك مبلغا أعتقد إنه مناسب مقابل أن أشتري منك بصفتك وريثه كل محتويات تلك المكتبة وهذا شيك مقبول الدفع لحامله على بنك مصر فرع "قنا".

ومد يده بالشيك نحوه.

زوى "أمجد" ما بين عينيه فلم يكن يتوقع هذا المطلب ومد يده ليلتقط الشيك ويتطلع إلى الرقم المكتوب لتتسع عيناه ذهولا وابتسم "مانويل" عندما شاهد ما يرتسم على وجهه من ذهول.

رفع عينيه نحوه ليقول:

- خمسة ملايين من الجنيهات.

أطلق "مانويل" صفير استحسان منغما ليقول:

- ويمكنك أن تصرف الشيك اليوم، وهناك عرضا من السفارة الإيطالية بتجديد مقصورة مقام مولانا واستبدال نحاسها بالفضة المشغولة على الطريقة الإيطالية وسنعمل على...

- عرضك مرفوض بالكامل مع احترامي للسفارة الإيطالية ولوزارة الخارجية المصرية، فتراث جدي ملك لأسرته ولن نفرط فيه مقابل أي مبلغ من المال.

قالها "أمجد" ليقاطعه في هدوء وحسم.

فلم يبدو الضيق علي وجه "مانويل" وهو يقول:

- يمكننا أن نضيف مليونين من الجنيهات إلى ..

قاطعه قائلا:

- جدي كان رجلا ثريا وقد ترك لورثته ما يكفيهم طيلة العمر بالإضافة إلى الأوقاف التي أوقف إيراداتها لإعالة الأسر الفقيرة والأيتام.

هز "مانويل" رأسه في أسف ليقول:

- حسنا دعنا لا نتحدث عن المكتبة ككل، فأنا أحتاج إلى عدد من المخطوطات التي ستخدم رسالة الدكتوراه الثانية التي ...

قاطعه مبتسما وهو يقول في سخرية:

- دعنا نلقى بالدبلوماسية والكلام المعسول والمجاملات السخيفة جانبا ولتتحدث بصراحة، ماذا تريد بوضوح تام لأنني متأكد أن هناك أمرا ما تحاول تمريره مختفيا وراء تلك الابتسامة البلاستيكية وأنت كما يبدو خبيرا بالعامية المصرية.

ومال نحوه ليقول محافظا على ابتسامته الساخرة:

- لدينا عبارة مصرية عامية مشهورة هي "هات من الآخر" هل تعرف معناها؟

ضحك "مانويل" ونهض من مقعده ليقول وقد بدأت الصرامة ترتسم على وجهه:

- سأدخل في صلب الموضوع مباشرة يا صديقي، هناك مخطوطات ما موجودة في مكتبة جدك وتلك المخطوطات ظهرت إلى العلن عام 1946 بعد أن اختفت لقرون عديدة ويمكنني أن أؤكد لك أن تأثير تلك المخطوطات كان رهيبا حتى توفي جدك واختفت مرة أخرى، ومن مصلحة العالم كله أن تظل تلك المخطوطات مختفية ولهذا جئت إليك لأشتري تلك المخطوطات بأي ثمن وأعدك إنها سيتم وضعها في خزائن سرية بعيدا عن العامة لأن خروجها مرة أخري سيؤدي بكل بساطة إلى خرق لنواميس الكون وهذا ما لن نسمح به أبدا.

نهض من خلف مكتبه وتقدم نحوه ليقول في صرامة وقد برقت عيناه:

- هل خانتني أذناي أن أنك قلت حقا "لن نسمح"، من الذي لن يسمح لمن؟

رفع "مانويل" كفيه أمام وجهه ليقول في هدوء:

- ما الداعي للانفعال يا حضرة النقيب؟ هناك عرض ما قدمته لك وأخبرتك أن هناك مخطوطات ما تضمها رفوف مكتبة جدك قد تتسبب في ضرر للكون كله وأنت كرجل أمن يمكنك أن تقدر خطورة ما أخبرتك به.

- وبكل بساطة أنا أرفض نصيحتك الغالية وأطلب منك الرحيل في سلام فقد تشرفت بلقائك.

هز كتفيه وهو ينهض ليشير إلى الكارت الشخصي الذي تركه "أمجد" على مكتبه ليقول:

- سأتركك لتفكر لمدة أسبوع وعندما تقتنع ستجد رقمي على الكارت الخاص بي وبعدها سأخبر السفارة برفضك التعاون معنا وصدقني لن يمر الموقف بسهولة هذه المرة.

صاح "أمجد" بغضب:

- هل جننت؟ تلقي بتهديدك وأنت داخل نقطة شرطة مصرية

أشار إليه ليقول مبتسما:

- أنا جئت في سلام وسأرحل في سلام يا صديقي

قالها ولوح بكفه مودعا

ومع انصرافه أدرك أن الأمر لم يعد يحتمل التأجيل ويجب عليه أن يصل إلى حل هذا اللغز ويجب أن يتم ذلك هذه الليلة.

ومع انصراف "مانويل" رفع هاتفه المحمول ليضغط زر اتصال سريع ويقول:

- "فودة" يجب أن يموت "أمجد" هذا تلك الليلة.

***

- يجب أن تسير الدرب من بدايته إلى نهايته لتستحق أن يغمرك نور الحقيقة يا بني، وصدقني.. أنت قريب منها للغاية.

23- العلوانية

قصر علوان الكبير

12 نوفمبر 2005

كان "أمجد" يشعر بتوتر شديد بعد لقائه مع "مانويل" في نقطة الشرطة ولذلك ترك مقر عمله مبكرا وقرر أن يعود للقصر ، واتجه إلى غرفة المعيشة ليلقي بنفسه على مقعد وثير ونزع حزام مسدسه ليضعه على المنضدة، وبحث عن مطفأة السجائر ليقربها من مقعده ويشعل سيجارة ليسترخي في مقعده تماما وهو ينفث دخانها الممزوج برائحة النعناع في هدوء.

كل هذا حدث خلال ثلاثة أشهر فقط، كل تلك الألغاز التي تفجرت في طريقه بدأت بتلك الفكرة التي وجدت طريقها إلى رأسه عندما قرر أن يذهب للاستشفاء النفسي في تلك القرية الهادئة.

تذكر "جون دونبار" (كيفن كوستنر) في فيلم "يرقص مع الذئاب" الشهير الذي ترك جحيم الحرب الأهلية إلى تلك النقطة الحدودية النائية حيث انتهت فترة السكينة التي كان يتمناها بمواجهات رهيبة مع هنود "السيوكس" وبعدها مع الجيش الأمريكي نفسه.

- قرية نائية هادئة يا "أمجد" ..

قالها لنفسه ليضحك ضحكة عصبية قصيرة، وهنا شاهد "سلوى" تخرج من غرفتها فاعتدل وهو يشاهد خصلات شعرها الأسود الطويل التي أحاطت بوجهها في تموجات ساحرة، وارتبكت عندما رأته فأسرعت بالدخول لغرفتها ثانية لتغيب دقيقتين وتخرج وهي تضم حجابها الأنيق على رأسها وهي تهتف:

- لم أكن أعرف إنك هنا، لماذا عدت من العمل مبكرا اليوم؟

كتم ضحكته وهو يتأمل ارتباكها وهي تجلس على مقعد مواجه له وقال:

- آسف للغاية.. ولكنني اعتقدت إنك تنامين إلى وقت متأخر.

تثاءبت وقالت في خمول:

- كنت سأعد لنفسي كوبا من الشاي باللبن قبل أن أعود للنوم ثانية وأستعد لنستكمل عملنا بالمكتبة.

بحث عن زر استدعاء الخدم فأشارت إليه وضغطته ليستجيب لندائها خادم كهل أسمر البشرة، ذو قامة طويلة وملامح طيبة.

ابتسمت "سلوى" وهي تقول:

- الشاي باللبن الذي أعشقه من صنع يديك يا عم "علي".

ونظرت إلى "أمجد" الذي قال:

- فنجان من القهوة السادة أيها الرجل الطيب.

ابتسم الرجل بود وهو ينحني انحناءة صغيرة ويشير إلى كلتا عينيه ليقول:

- أحلى كوب شاي باللبن وأجمل فنجان قهوة.

قالها وانصرف فضحكت وهي تقول:

- عم "على" من معالم القصر الراسخة، كان يدفع بي الأرجوحة في حديقة القصر عندما كنت في السادسة من العمر.

وتأملت ملامح وجهه المجهدة لتقول:

- ماذا هناك؟ ما الذي حدث في النقطة اليوم؟

قص عليها ما حدث مع "مانويل" بداية من العرض المالي ذي الستة أصفار إلى التهديد الصريح.

فصمتت قليلا لتقول:

- لقد تلقينا عروضا من قبل لشراء كل كتب ومخطوطات المكتبة، وآخر عرض كان من عام كامل تقريبا ولقد قدمه رجل أجنبي الملامح بالفعل، ولكنني لا أتذكر اسمه، ولقد رفضنا العرض وأخبرناه أننا لا يمكن أن نستغنى عن تراث مولانا "علوان".

ضحك فجأة وهو يشير إلى الخارج ليقول:

- لقد أخبرت الصول "فهيم" بالمشادة التي حدثت بيني وبين "مانويل" هذا، فغضب للغاية وقال لي:

- دع لي الأمر يا "أمجد" باشا وسأرسل خلفه أحد المخبرين ليدس له فرشا من "الحشيش" لنعترض طريقه بأحد الأكمنة ونذهب به وراء الشمس.

قالها وهو يقلد لهجة "فهيم" الريفية.

ليواصل الضحك التي شاركته فيه ويقول:

- تخيلي.. يريد أن يدس الحشيش للملحق الثقافي الإيطالي.

توقفا عن الضحك عندما جاء "علي" بالمشروبات ووضعها على المائدة ليسأل "سلوى":

- ملعقتين من السكر مثل كل مرة يا ابنتي؟

- مثل كل مرة يا عم "على".

أشعل "أمجد" سيجارة جديدة، وهو يبتسم لـ"سلوى" وكاد أن يفتح فمه ليتحدث عندما لاحظ أن الرجل قد أضاف ملعقتين من السكر بالفعل، ثم أضاف الثالثة والرابعة.

فقال في دهشة:

- لقد قالت لك ملعقتين يا..

وقطع عبارته وهو يتطلع في دهشة إلى الخادم الذي استمر في إضافة ملاعق السكر وهو يتحرك في آلية كالروبوت، فنهضت "سلوى" وهتفت في قلق:

- عم "على" ما الذي تفعله؟ هل أنت بخير.

بدا لها مخيفا وهو يتطلع إلى نقطة بعيدة بعينين جامدتين ويستمر في إضافة السكر، فاقتربت منه وأمسكت كتفه في تعاطف لتقول:

- هل أنت مريض يا...

كان "أمجد" يعتقد أن الرجل المسن يمر بحالة من حالات خرف الشيخوخة، ولكنه هب من مقعده عندما التفت الرجل إلى "سلوى" وهو يزمجر قبل أن يكور قبضته اليسرى ويلكمها في ذقنها لتشهق وتطير إلى الخلف لتسقط على ظهرها.

وهنا قفز "أمجد" ليحيط خصر الرجل بذراعيه ويدور به دورة كاملة ليسقط معه أرضا وقد قرر أن يفقده الوعي أولا ثم يتساءل فيما بعد عن سبب نوبة هياجه وجنونه المفاجئ، وهبط بمرفقه على مؤخرة عنق الرجل، الذي سقط أرضا في ثبات.

فتوجه إلى "سلوى" التي أخذت تبكي في حرارة وهي تتطلع إلى ما يحدث أمامها.

فعاونها على النهوض وضمها إلى صدره ليربت ظهرها في حنان وتطلع إلى الكدمة الزرقاء التي توسطت ذقنها وهي تقول وسط دموعها:

- ما الذي حدث له؟

كاد أن يتحدث قبل أن يأتيهم صوت حشرجة قوية صدرت من حنجرة "على" وهو ينهض من سقطته بطريقة عجيبة، فلقد استند على الأرض بقبضتيه وبدأ يتحرك نحوهما على أربع كالحيوانات وهو يخور ويعتمد على ساقيه فجأة ليقفز كالكانجارو نحو "أمجد" ويدور في الهواء ليهبط خلفه ليحيط عنقه بذراعيه ويبدأ في الضغط وهو يصيح في جنون وصرخت

"سلوى" وهي تتعلق بملابسه من الخلف لتحاول أن تبعده عن "أمجد" الذي صاح:

- ابتعدي يا "سلوى".

قالها وهو يميل إلى الأمام ليلقي بالرجل أرضا وتراجع إلى الخلف ليحميها ومع سقوط "على" أرضا قفز ليقف في حركة عجيبة وهو ينظر لهما بعينين قد غاب سوداهما، قبل أن يرفع وجهه إلى السقف ليطلق حشرجة عجيبة.

بدأ "أمجد" يدرك أن الرجل يتحرك كالإنسان الآلي، وإن ما يحدث أمامه الآن يمت بصلة لما واجهه في فيلا "فودة"، هناك شيء شيطاني يسيطر على جسد هذا الرجل ويدفعه إلى قتله بأية طريقة.

وهنا اتجه الرجل إلى مصباح رأسي ذي قائم معدني من النحاس المشغول ليحطم المصباح والقاعدة المتصلين به ويصنع منه أداة مثالية للقتل.

هنا كان الخدم قد بدأوا يتجمعون وهم يطلقون صيحات دهشة وفزع واستنكار فصاح بهم:

- تراجعوا جميعا، عودوا إلى أماكنكم ودعوا الأمر لي.

قالها وهو يشير إلى "سلوى" لتتبعهم إلى الخارج، هزت رأسها رافضة فرمقها في صرامة لتتراجع وتشاهده عن بعد وهو ينقل بصره بين "على" الذي أخذ يزمجر زمجرات حيوانية وهو يتقدم نحوه ملوحا بالقائم المعدني وبين مسدسه الذي تركه على المنضدة، بدأ يتراجع بظهره نحو المنضدة وهو يتقدم منه كذئب حذر، وفجأة صرخ وهو يعدو نحوه ويطوح بالقائم نحو رأسه، فقفز "أمجد" نحو المنضدة وهو يميل لليسار متفاديا الضربة القاتلة، وزحف أرضا متفاديا ضربة أخرى ليتناول مسدسه ويواصل الانزلاق على الأرضية الرخامية متفاديا ضربة ثالثة.

نهض على قدميه وهو يصوب المسدس نحو الرجل الذي واصل الصراخ وهو يتقدم نحوه ليصيح:

- تراجع يا عم "علي" سأطلق الرصاص.

- لا تقتله يا "أمجد".

جاءته العبارة بصوت "سلوى" الملتاع

فالتفت نحوها وزفر ليقول في صرامة:

- لا تستسلم يا "علي" لذلك الشيء الذي يسيطر عليك.

وهنا قفز الرجل قفزة مستحيلة ليعبر مسافة العشرة أمتار التي تفصله عنه والقائم المعدني مرفوع في يده كالسيف، فقفز "أمجد" جانبا وأطلق طلقة محكمة اخترقت ساق الرجل اليمنى.

سقط "علي" أرضا وهو يخور كالثيران، قبل أن ينهض فجأة كارتداد لولب مضغوط من الصلب وهو يعتمد على ساقه السليمة.

فأطلق "أمجد" طلقة أخرى لتصيب ركبته اليسرى.

سقط الرجل أرضا وهو يصرخ وقد انقلبت ملامحه فبدا كشيطان قبيح ليبادره أمجد بضربة غاية في القوة من مقبض مسدسه علي مؤخرة رأسه، ليرتج لها جسده بالكامل، قبل أن ترتطم رأسه بالأرض ويفقد الوعي.

أسرع "أمجد" لينتزع الأغلال المعدنية من حزامه الجلدي وكبل بها معصمي الرجل خلف ظهره و"سلوى" تسرع نحوه لتتحسس وجهه لتهتف في لهفة:

- هل أنت بخير؟

طلب رقما قصيرا على هاتفه المحمول ليقول:

- الإسعاف فورا.. قصر "علوان" الكبير.. معكم النقيب "أمجد ركن الدين" رئيس نقطة العلوانية.

وطلب رقما آخر ليقول:

- صول "فهيم" أريد أن تذهب فورا إلى المسجد الكبير وتأتي بالشيخ "حمزاوي" إلى القصر فورا.

***

بعد نصف ساعة كانت سيارة الإسعاف قد نقلت "على" مكبلا إلى المستشفى، وجاء الشيخ "حمزاوي" ليقص عليه "أمجد" كل ما حدث، وعادت عمته من الخارج لتهت عندما عرفت ما حدث وتجلس في صمت تام وهي تحتضن ابنتها.

ابتسم الشيخ "حمزاوي" قائلا:

- لقد أنقذت حياة هذا الرجل المسكين.

- أنقذت حياته!

أشار إلى اللاشيء ليقول:

- هل ما زلت تذكر تلك القوة التي تدخلت لصالحك عندما حاول ذلك الكافر "فودة" أن يحرك ضدك شياطينه؟ تلك القوة كانت تراقب الصراع بينكما وكانت ستتدخل في اللحظة المناسبة لتنسف الرجل المسكين نسفا.

ونهض بمعاونة ابنه ليتطلع إلى وجوه الخدم الذين وقفوا في صف أمامهم ليقول:

- بقي أن نحصنهم بعون الله ومشيئته كي يصبحوا جميعا غير قابلين للمس، وبعدها سأتجه إلى المستشفى لأتأكد أن تلك القوى الشيطانية قد فارقت جسد ذلك المسكين.

ودار ليواجه "أمجد" ووضع راحته على رأسه الحليق ليقول وهو يتطلع إلى عينيه مباشرة:

- يجب أن تنتهي من الأمر بسرعة يا بني، يجب ألا تسمح لهم بالوقوف بينك وبين الطريق الذي رسمه لك جدك.

رأى "أمجد" مزيجا من الحب والتعاطف والقلق في عيني الشيخ ولكنه شعر إنه يخفي أكثر مما يظهر فقال في خفوت:

- لقد كنت رفيق دربه.. ما هي الحقيقة خلف كل ما يحدث؟

ربت كتفه ليقول:

- يجب أن تسير الدرب من بدايته إلى نهايته لتستحق أن يغمرك نور الحقيقة يا بني، وصدقني.. أنت قريب منها للغاية.

التفت إلى عمته وابنتها ليجد القلق يستعر في كيانهما ونظر إلى باب غرفة المكتب ليقول في هدوء وقد ارتسم الإصرار علي ملامحه:

- سأبيت ليلتي هناك.

***

- "عندما يلوم نفسه بعد ذنب يقترفه يرى نفسه قد تخلص من ذنبه وأصبح نقيا من الذنوب، ومن ثم يذهب عنه الإحساس بالذنب ولا يأبه أن يذنب ذنبا آخر."

"أوسكار وايلد" يتحدث عن بطل روايته "دوريان جراي"

24 - قرية العلوانية

الرحمانية قبلى

نجع حمادي

1960

نقف الآن على حدود قرية "العلوانية" حيث نلمح سور مصنع السكر في عهده الأول ومحطة السكة الحديد التي تم إنشاؤها خصيصا لنقل إنتاج المصنع إلى باقي المحافظات، هناك لافتة مضيئة تعلن عن وجود مقهى صغير تحمل كلمتي "مقهى عتوقة" حيث يجلس عدد قليل من عمال المصنع وحمالين المحطة يشربون أكواب الشاي وأقداح القهوة ويمتصون دخان المعسل في شراهة، نلمح "عتوقة" وهو ابن عشرين عاما يتحرك كالبرغوث متقافزا بين الموائد لتلبية رغبات الزبائن ليوحي لهم بأن الخدمة ممتازة، يقترب منه العامل المسئول عن الأرجيلات ليقول في صوت هامس متوجس:

- زبائن المقهى بدأوا في التناقص تدريجيا ومع نهاية الأسبوع سنضطر إلى إغلاق المقهى.

تطلع "عتوقة" إلى سفح الجبل الذي يبدو واضحا مسربلا بالظلام والرهبة ليقول:

- لقد طلبت من الشيخ "فودة" أن يحضر ووعدته بحلوان كبير إذا نجح في القضاء على.. وتلفت حوله متوجسا ليهمس:

- القضاء على اللهم أحفظنا الذي أفزع الزبائن وخرب بيوتنا.

ضحكات الزبائن وطرقات قطع الدومينو وقواشيط الطاولة منحت المشهد حميمية ودفئا جعل "عتوقة" ينسى رعب الليالي السابقة ومع قدوم الشيخ "فودة" بمظهره المهيب الموحي بالثقة والهيبة تضاعف اطمئنانه فهرع ليقبل يده ويشد عليها صائحا:

- لقد زارنا النبي يا شيخ، دخولك إلى المقهى اليوم صار مناسبة سارة سنحتفل بها سنويا والله.

ربت "فودة" على كتفه ليقول مبتسما:

- ما الذي حدث يا "عتوقة"؟ وما الذي حدث لقلوبكم الصلبة الثابتة؟ المقهى يقع بالقرب من سفح الجبل وبالقرب من المقابر وكثيرا ما لمحتم تجسدات وأرواح هائمة حتى أصبحتم تأنسون لوجودهم، لماذا طلبت مني الحضور؟

أشار إليه "عتوقة" ليتبعه بعيدا عن المقهى ليشير نحو سفح الجبل ويقول في صوت مرتجف:

- الأمر تلك المرة مختلف يا شيخنا، التجسد تلك المرة كان مهول الحجم وكان هناك الكثير من الدماء والصراخ.

كان "فودة" يقف مرتديا عباءته الصوفية الأنيقة وقد تعمم بعمة ضخمة وبدا بلحيته الطويلة وعينيه المكتحلتين غاية في الهيبة والوقار وهو يقول:

- لا تخف يا ولد يا "عتوقة" سنقضي اليوم على كل مخاوفك وسأحصن المقهى بتعاويذ لجلب الرزق وذهاب الكدر والهموم ليتضاعف عدد زبائنك أضعافا مضاعفة.

نزل حديثة بردا وسلاما على قلب "عتوقة" الذي انحنى ليقبل يده قبلات عديدة وهو ينحني هاتفا:

- أطال الله عمرك يا "أبا سر باتع" يا بركتنا.

أشار له (فودة) لينصرف إلى زبائنه وتحرك في خطى واسعة نحو بداية الطريق المفضي إلى سفح الجبل، وتوقف ليرفع بصره نحو السماء وبدا عليه إنه يحصي شيئا ما، قبل أن يفتح علبة أخرجها من جيبه ليلتقط منها حفنة من مسحوق بني اللون ليرفعها نحو فمه ويهمس بعده بعبارات متداخلة الحروف، وبدأ في نثر المسحوق أرضا في خط متصل بعرض الطريق قبل أن يشتعل المسحوق ذاتيا ليمتد ستار من نار زرقاء بعرض الطريق، عبر الستار إلى جهة الجبل وجلس أرضا ولم يلتفت لزبائن المقهى الذين لمحوا ما يحدث فبدأوا يقتربون في حذر ليشاهدوا ما يحدث، كان قد هبط ليجلس مرتكزا على ركبتيه وبدأ يرسم عدة رسومات على الأرض المكسوة بالأسفلت مستعينا بسائل أحمر دموي وريشة طائر سوداء.

لقد قام بالأمر عشرات المرات من قبل وهي طريقة كثيرا ما تنجح في طرد الأرواح الشاردة المعذبة التي تثير ذعر الأهالي، لمح بطرف عينيه الجمهور الذي يتضاعف عدده بالتدريج وابتسم لأنه يحب الدعاية لنفسه، فتلك الدعاية تجلب نحو بابه المزيد من الزبائن الذي يبيع لهم الوهم يوميا.

بدأ يلقى عزائمه ويرفع صوته مرددا تعاويذه وهو يهتز يمينا ويسارا وليكمل المشهد المسرحي بدأ يلقى المزيد من المسحوق ليزيد من توهج ستار اللهب وسط شهقاتهم وإعجابهم المتزايد، قبل أن يلمح ما بدا له كرجل غاية في النحول يتحرك عند سفح الجبل على بعد خمسين مترا تقريبا، أرسل البصر كرة ثانية وهو لا يفهم ما الذي يحدث.. الرجل بدا يقترب من دائرة الضوء ولكنه كان يسري متحركا على مسافة عدة سنتيمترات فوق سطح الأرض والغريب في الأمر أنه كان يتحرك في تردد، يتقدم لمتر تقريبا ثم يتراجع ويثبت قبل أن يواصل التحرك. الجمهور الذي تجمع ليشاهد معجزات الشيخ (فودة) بدأ يضطرب ولكن معظمهم كان على ثقة كاملة بأن الشيخ متبحر في علمه ويمكنهم أن يشاهدوا في اطمئنان كامل، كان هذا قبل أن يلمحوا بداية اضطراب الشيخ الذي كان يراقب تلك الظاهرة في دهشة،

الكيان قد بدأ يقترب وكان هذا مفزعا لأن مع اقترابه أفعمت أنفه رائحة قبيحة بما لا يقاس هي مزيج مع رائحة لحم متعفن ممزوجة برائحة عضوية لم يتعرف عليها، الكيان المقترب كان يرتدي أسمالا بالية لا تكاد تستر عورته وبدا كرجل قد تم حرقه حيا وقد تسلخ جلده كله تقريبا وانكشفت أجزاء من عظام قفصه الصدري وعظام ذراعيه وساقيه، ومع اقترابه بدا كأنه قد فوجئ بوجود الشيخ الذي وجد أقبح وجه يمكن أن يتصوره يحدق في وجهه مباشرة، كان منذ لحظات يردد العديد من تعاويذ التحصين والطرد ومع اقتراب الكيان منه وهو يواصل سريانه كالأطياف فقد السيطرة على أعصابه وتحشرج صوته وهو يحدق في وجه الكيان المسلوخ حرفيا، وقد برزت منه كرتي العينين تحدقان في وجهه وقد بدت الأسنان كلها واضحة مكشوفة قبل أن يفتح الكيان فمه ليصرخ صرخة بدت مزيجا من أصوات الغرغرة والصهيل والعواء.

"عتوقة" كان قد شاهد هذا الشيء عدة مرات من قبل ولكنه لم يقترب منه من قبل إلى هذا الحد وبدأت ثقته في "فودة" تتلاشى عندما شاهده يتراجع بظهره أمام صرخة ذلك الكيان، فصرخ بدوره ودار على عقبيه ليعدو محاولا الفرار من خطر مجهول، تبعه أغلب الجمهور وهم يصرخون في رعب وينطلقون في عدو عشوائي بعيدا عن المكان.

نعود لنقترب من "فودة" الذي بدأ يصرخ في رعب وهو يتراجع أمام أبشع تجسد رآه في حياته وقد خيل له إنه يعيش لحظاته الأخيرة، كل ما درسه من كتب صفراء وما تعلمه من علم أسود لم يذكر شيئا عن التصدي لهذا الشيء الصارخ الذي يكاد يلامسه الآن، فهو على بعد سنتيمترات معدودة من الموت حرفيا، وهنا سمع خطوات ثقيلة تعدوا نحوه ولمح ذلك الرجل الذي بدأ يدخل في دائرة الضوء وهو يقفز قفزة رائعة ليعبر ستار النار.

وتعالت الصيحات وبدا الجمهور يتجمع من جديد وهم يهتفون:

- إنه "علوان" باشا مأمور القسم

- إنه سيدنا "علوان" أبو الكرامات

شاهد "فودة" من موضعه "علوان" يقترب مصوبا أنبوبا معدنيا مثبت بأسطوانة تشبه أسطوانات الإطفاء نحو التجسد وهو يشير له بالتراجع ليصيح:

- تراجع أيها الدجال فأنت لست أهلا لمواجهة تلك الأشياء.

تراجع في ذل وهو يجر أذيال الخيبة وهنا شاهدوا الكيان يتقدم في غير خوف نحو"علوان" الذي وقف في ثبات بجسده الضخم وشاربه العملاق مواجها لذلك الشيء ليصيح:

- أقسمت عليك بالله الذي كنت تؤمن به أن تتراجع فقد انتهى دورك وانتهت حياتك على وجه الأرض.

التجسد الدموي بدأ يتحرك نحو "علوان" ولكنه كان يهاجم بتلك المرة قبل أن يرفع علوان الأنبوب وينثر حفنة من مسحوق أصفر في الهواء لتتجمد ذراتها قبل أن يشتعل الهواء حرفيا في حاجز مرئي بينهما.

واصل "فودة" تراجعه وهو يحدق بعينين مذعورتين فيما يحدث أمامه، فقد بدا "علوان" أسطوريا وهو يلوح بكفه في الهواء ليصطبغ الهواء بالأحمر، وخيل لهم أن هناك ظلا أسود قد برز من الجزء الذي تلون من الهواء بالأحمر ليندفع الظل الذي بدا كشيطان جاء لتوه من سقر نحو الكيان ليلتف حوله وسط صراخ منفر صم آذانهم، كان الظل الأسود قد احتوى التجسد الدموي داخله بالكامل قبل أن يندفع به نحو الفجوة الحمراء التي تكونت في الهواء ليختفي بداخلها ليلوح "علوان" بذراعه ويعود الهواء إلى شفافيته وحالته العادية.

ساد الصمت لفترة ليست بالقصيرة والكل يحدق في وجهه الذي ظل هادئ القسمات رغم الهول الذي خاضه منذ لحظات، قبل أن ينفجر الجميع في الصياح:

- سيدنا!!!!!.. سيدنا!!!!!.

والتفوا حوله يقبلون كفيه ويكادوا أن يرفعوه رفعا من على الأرض.

وحده فوده كان يراقب الأمر من بعيد بذهول يختلط بالحقد، والذهول لأنه يعرف تقريبا كل حيل الدجل والشعوذة وما قام به "علوان" أمام عينيه لا ينتمي إلى أي درب مطروق من دروب السحر، لم يكن ليصدق لو حكى له أحدهم ولكنه رأى بعينيه وليس من رأى كمن سمع. كان قد سمع كثيرا عن كرامات "علوان" وعن شفائه للمرضى وعن العمدة الذي هلك لأنه تحداه ولكن ما شاهده الآن جعله يقرر أن يضعه في مقدمة اهتماماته ليعرف سره بالكامل لأن تلك القرية لن تحتمل وجودهما معا.

.

.

شهيق

زفير

شهيق

هب من مقعده كالعادة وهو يصيح:

- أريد أن أحظى بالمزيد يا جدي.. عد إلى هنا.. أرجوك.

صاح "أمجد" بتلك العبارة بصوت مرتفع وهو يفتش عن طيف جده الذي كشف له سرا جديدا تلك المرة، كان يلهث وكأنه خرج لتوه من سباق للعدو ويحتاج إلى كوب من الماء البارد ولم يجد "سلوى" تلك المرة بانتظاره، كان الظلام دامسا حوله فتحسس الهواء بحثا عن المنضدة التي وضع هاتفه المحمول عليها حتى وجده فأضاء به ما حوله ليلمح أرقام الساعة التي أشارت إلى الثالثة والنصف صباحا فقرر أن يذهب للوضوء ليصلي الفجر، مر في طريقه نحو دورة المياه بالمطبخ فقرر أن يصنع لنفسه قدحا من القهوة المركزة بنفسه لأن النوم أصبح مستبعدا تماما في تلك الليلة.
انتهى من صنع القهوة وتوضأ واتجه نحو القبلة وقرر أن يصلي في خشوع ولا يفكر في فيلم الرعب الذي أجبره جده على مشاهدته منذ لحظات.

بدأ في صلاته وكالعادة وجد الشيطان طريقه إليه وتداعت الخواطر إلى ذهنه المكدود

علم الحروف

الجفر

1812

75

12

3

رسائل إخوان الصفا

الفتوحات المكية

مختار رسائل جابر بن حيان

صورة دوريان جراي

.

.

وهنا ضربت الفكرة رأسه كالبرق ولكنه استغفر الله وواصل صلاته ليتناول قدح القهوة ويتجه نحو المكتب ليضيء مصباح الكشاف النحاسي المثبت على سطح المكتب، لقد تأكد الآن أن حساباته لحروف جملة "اقرأ فإن حياة واحدة لا تكفي" صحيحة وتأكد أن جده ترك لهم تلك الكتب الأربعة علامة على الطريق. وتأمل الرواية ليهمس لنفسه:

- إنها "صورة دوريان جراي" بالتأكيد، إنها مفتاح الحل وكشف السر.

وضرب جبهته بكفه ليهمس لنفسه في غيظ:

- غبي.. كيف لم أنتبه؟

ورشف آخر رشفات قدح القهوة وقرر أن يقرأ الرواية التي قرأها منذ سنوات مرة أخرى قراءة متأنية.

رواية "صورة دوريان جراى" تعد أسطورة من الأساطير ومع ذلك فقد أعتبرها كثير ممن قرأها حقيقة، وتلك الحيرة فى عدم تحديد كونها حقيقة أو أسطورة إنما يدل على إبداع "أوسكار وايلد"، والقصة على أية حال قصة رمزية تحمل معان رائعة، تبدأ أحداث الرواية عندما يدخل اللورد "هنرى وتون" على صديقه الرسام "باسيل هولورد" ذلك المبدع فى فنه، عديم الجاذبية فى شخصيته، فيراه منهمك فى رسم بورتريه لشخص رائع الجمال يعرف منه أنه شاب وسيم اسمه "دوريان جراى" كان "باسيل" قد تعرف عليه مؤخرا وأعجب به لروعة شخصيته وجاذبيتها ودماثة أخلاقه فلا يمر يوم دون أن يراه ويتحدث معه يقول عنه "باسيل":

- " فى وجه "دوريان" شيء يجعلك تثق به "

ويطلب "باسيل" من اللورد "هنرى وتون" ألا يؤثر على "دوريان" بآرائه وفلسفته الشريرة فى الحياة، ويشتاق اللورد "هنرى" لرؤية الرجل الذي يأتى فى تلك اللحظات ويدخل إلى "باسيل" الذي لم يكن قد أنهى له رسم صورته ويتعرف على اللورد "هنرى".

ويكتمل رسم البورتريه الخاص بـ"دوريان جراى" ويُعجب بها الشاب الوسيم إعجاباً شديداً وكأنه لأول مره يدرك جاذبيته ووسامته فى هذه اللوحة التى رسمها "باسيل"، وينفجر "جراى" فى البكاء بعد هذا الإعجاب مبررا لصديقيه سبب بكائه أن هذا الوجه الذي في اللوحة سيحتفظ بشبابه بينما سيشيخ هو ويهرم، وتمنى لو أن يحدث العكس وهذا هو محور الرواية.

يقول "جراي" لما رأى روعته وجماله وكأنه يدرك لأول مره وسامته التي لا تخفى على أي أحد يراه:

- "سأشيخ وأتجعد بينما تحتفظ هذه بشبابها.. لو كان بوسعي أن أظل كما أنا وتشيخ هذه بدلاً منى.. أننى لأعطى كل شيء مقابل أمنية كهذه.. أعطى روحي ذاتها ... أن الشباب هو القيمة الوحيدة فى الكون ويوم أدرك أننى أشيخ سأقتل نفسى."

بعد ذلك يقع "دورين جراى" فى حب ممثلة مسرح من الدرجة الثالثة تدعى "سيبيل" ويعجب بها جدا ويذهب لصديقه "هنري" ويخبره بأنه يحب تلك الفنانة العبقرية، يقول له "هنري":

- "لا توجد امرأة عبقرية فالنساء جنس زخرفي لا أكثر ليس لديهن ما يقال لكنهن يقلنه بأسلوب ساحر.. أنهن يمثلن انتصار المادة على الروح كما يمثل الرجل انتصار العقل على الأخلاق." ويستمر "هنرى"في تلقين"جراى" آرائه المعسولة المسمومة التي ربما أفسدت الشاب يوما بعد يوم. يخطب "جراى""سيبيل" وهو فى الحقيقة لم يكن يحبها إنما كان يحب فنها وعبقريتها التمثيلية فى أداء أدوار شخصيات عظيمة ك"جوليت" وغيرها. ويدعو صديقيه "باسيل" و"هنري"لحضور مسرحية لها ويصطدم الثلاثة كما يصطدم الجمهور لأول مره بأدائها الذي أضحى رتيبا بين عشية وضحاها. وبعد انتهاء العرض يذهب "جراى" إلى "سيبيل"فى حجرتها ويوبخها بمنتهى القسوة، لا يدرك "جراى" أن الفتاة أحبته فلم تعد بحاجه بعد لأن تتقمص أدوار العاشقات فى روائع الأدب وحان الدور لأن تتقمص دورها هى "سيبيل"، فالذى ظهر على المسرح هى "سيبيل" وليست أي واحدة سواها لهذا كان أداءها رتيبا فهي فتاة بسيطة وشخصية عادية، هي موهوبة ولكن ما ظهر على المسرح لم يكن موهبتها أو أدائها وإنما شخصها لا شيء آخر، وموقف "سيبيل" هذا يذكرنا بكلمات (هنري) لـ(دوريان) ورأيه في الفنان العبقري والفنان العادي، يقول اللورد "هنري":

- "أن الفنانين ذوى الشخصية الجذابة فنانون محدودو الفن.. الفنانون الجيدون يتواجدون فى أعماقهم وبالتالي تجدهم مملين فى شخوصهم والشاعر العظيم حقا هو أقل الناس شاعرية في كلامه وحياته"

وتتوسل "سيبيل" إليه ألا يتركها وأنها ستحاول أن تفعل ما يرضيه وتعود إلى موهبتها التى ضاعت بحبها له ومع ذلك لم يع هذا ويدركه ولكنه يتركها غير آبه بدموعها .

بعد ذلك تنتحر الفتاة ويعرف "دوريان" فلا يأبه بذلك إلا لوم بسيط لنفسه، ويصف "أوسكار وايلد""دوريان جراى" فى هذا الأمر وصفا فلسفيا رائعا:

- "عندما يلوم نفسه بعد ذنب يقترفه يرى نفسه قد تخلص من ذنبه وأصبح نقيا من الذنوب، ومن ثم يذهب عنه الإحساس بالذنب ولا يأبه أن يذنب ذنبا آخر."

ويذهب "دوريان" إلى لوحته فيرى شيئا غريبا لقد تغيرت ملامح الوجه وأصبح فيها شيء من القسوة يظهر جليا واضحا كما ظهر أثر العمر عليها، فيندهش ويخفيها بعيدا عن أعين من يراها حتى لا يفتضح أمره فهذه أصبحت رمزا لفساد روحه وانعكاسا لسوء أخلاقه. ويأتى "باسيل" فيرى أن لوحته قد تركت مكانها فيسأل "دوريان" الذي يبرر أن الإضاءة لا تكفى لإبراز جمالها ولهذا نقلها فى مكان أفضل ويتشكك "باسيل" فى أمر الشاب خاصة بعد أن كثرت أفعاله المشينة التي يعرفها البعض وتخفى عن الكثير، يقول له "باسيل":

- "الخطيئة ترسم نفسها على وجه صاحبها.. ولا توجد خطيئة سرية لهذا حين أُبصر وجهك النقي الطاهر أوقن أنه لا صحة لما يقال عنك."

ويدرك "جراي" أن حقيقته بدأت تنكشف لـ"باسيل" فيستدرجه إلى مكان اللوحة ويقتله بعدة طعنات، يتخلص من جثته بعد ذلك بمساعدة كيميائى. وكان كلما فعل ذنبا ظهر أثر الذنب على صورته ولم يظهر قط على وجهه، ويسعد "دوريان" لذلك سعادة كبيرة فهو يُذنب وما من رقيب. يقول "وايلد":

- "ويقف أمام اللوحة وقد وضع مرآة بجوارها.. ويرمق الشر والشيخوخة اللذين زحفا على الوجه ثم يرمق الوجه الغض الأشقر الذي يبادله النظر إلى المرآة.. ويزداد إدراكاً لجماله وإدراكا لخراب روحه.. كان يرى فى التحلل الحقيقي الذي بدأ يطرأ على ملامحه قسوة الذنوب التي يفعلها.. كان ينساها لأسابيع فيصعد ليراها يشعر بالاشمئزاز منها، ويبتسم فى سرور من الرسم القبيح الذي يحمل ذنب خطاياه."

وبمرور الأيام تزداد ذنوب "جراى" وآثامه وبالمقابل تزداد بشاعة اللوحة وينزعج "جراى" فلقد أصبحت أبشع ما يكون - ولكل ظالم نهاية - ويقرر أن يتخلص من اللوحة فيذهب إليها ويأخذ الخنجر الذي طعن به "باسيل" ويطعنها عدة طعنات ... ويسمع الخدم صرخات، ولمّا دخلوا حيث "دوريان" وصورته يجدون صورة رائعة لسيدهم كما اعتادوا أن يروه بكل جماله وسحره.. وعلى الأرض رجل ميت قد انغرست مدية في صدره كان وجهه مجعدا كريها حتى عجزوا عن معرفة شخصيته.. فقط حين رأوا الخاتم في يده عرفوا من هو.

***

أغلق الرواية وتطلع إلى ساعته التي أشارت إلى التاسعة صباحا، لم ينتبه إلى ضوء النهار البكر الذي تسلل من النوافذ، نهض وتطلع إلى الحديقة الخضراء التي تحيط بالقصر عبر النافذة وفتحها ليجذب الهواء النقي إلى رئتيه بشهيق عميق شعر به يطهر ذاته كلها من أدران وظلمات تلك الرواية الفلسفية العميقة التي تتسللت إلى أعماقه فجعلته يرى عن قرب كل هذا الفساد الذي يمكن أن يصيب النفوس البشرية، أشعل سيجارة وهمس:

- أين وضعت تلك اللوحة يا جدي؟

لقد رأيتك تتلقى عشرات الطلقات النارية، ولم تهلك في تلك المواجهات، ملفك الطبي يصف تعرضك لإصابات قاتلة عدة مرات لتنجو منها وتواصل عملك وتصنع أسطورتك وتصبح أبو الكرامات.

لقد قرأت تلك الرواية منذ عشر سنوات تقريبا وتلك هي المرة الثانية التي أقرأها فيها ولكن تلك المرة الأمر مختلف.. تلك المرة تلك الرواية كانت تحمل رقما مع ثلاثة كتب أخرى في رسالة مشفرة، ترى هل تحمل الكتب الثلاثة الأخرى أجزاء أخري من حل اللغز؟

شاهد "سلوى" تدخل بقامتها النحيلة وعينيها الساحرتين تحمل صينية تحتوى على فنجان قهوة وكوبا من الماء البارد الذي تكاثف البخار على سطحه، ابتسمت وهي تقدم له قدح القهوة وتقول:

- لقد غرقت في نوم عميق الليلة السابقة وكأنني لم أنم منذ أسبوع، كيف كانت ليلتك؟

- هل طلب جدي من فنان ما أن يرسم له لوحة شخصية كبيرة؟

مطت شفتيها قائلة:

- لا أعرف.. سأسأل والدتي.

- هل يحتوى القصر على غرف سرية يمكن أن يخفي فيها لوحة أو لوحات زيتية كبيرة؟

هزت رأسها لتقول:

- لقد بحثنا عشرات المرات عن سراديب سرية أو غرف خفية فلم نجد، ما موضوع تلك اللوحة؟

أشار إلى الرواية قائلا:

- يجب أن تقرأي تلك الرواية التي أشار إليها الرقم 1812 في شفرة جدنا أولا، وأريد منك تصفح الكتب الثلاثة الأخرى لعلك تجدي أية إشارة منه تقودنا على الدرب، سأتركك الآن لأنتهي من بعض الأعمال الإدارية بالقسم وسنقضي الليلة هنا ولن نخرج من غرفة المكتب قبل أن نحل اللغز بالكامل.

***

للسماء حسابات أخرى غير حسابات البشر الذين لا يرون أبعد من موضع أقدامهم، هناك مخططات وسيناريوهات إلهية تفوق كل تصوراتكم، ولكن القاعدة الثابتة من الأزل هي أن عقاب الفجرة قادم لا محالة.

25 – قرية العلوانية

الرحمانية قبلي

25 نوفمبر 2005

يتردد صوتهم في الخارج عذبا رقيقا ممطوطا يمزق نياط القلوب:

تضيق بنا الدنيــا إذا غبتم عنا

وتذهب بالأشــواق أرواحنا منا

تطرق الباب في هدوء وهي تضبط من وضع النقاب الذي يغطى وجهها بالكامل فيفتح الباب شيخ معمم يرتدي زي أئمة المساجد لينظر إلى عينها اللتين تظهران من فتحة النقاب لتتهلل أساريره وينفرج فمه عن ابتسامة واسعة لهتف:

- سيدتنا وابنة سيدنا، تفضلي يا سيدتنا غرفة مكتبي لن يدخلها شيطان أبدا بعد تشريفك لها بدخولها، ابتسمت ورفعت نقابها لتكشف وجهها وهي تقول:

- كيف حالك يا شيخ "صفوت"؟

- جلس مواجها لها في اعتدال وهو يقول بصوت منخفض:

- نحيا بفضل بركم وإحسانكم وبفضل بركة ونور مولانا "علوان".

- هل عوائد الأوقاف تكفي حاجة الأسر التي ينفق المسجد عليها؟ إذا شعرت يوما بأن النقود تنقصكم يجب أن تتصل بي فورا.

رفع كفيه موازيتين لرأسه في إشارة شكر وهو يهتف:

- خير خلف لخير سلف يا سيدتنا.

ابتسمت وهي تقول:

- صوت المنشدين يكاد أن يذيبني.

أشار إلى الخارج ليقول:

- هم يستعدون لمولد سيدنا.

فبعدكم مـوتٌ وقربكم حيـا

فإن غبتموا عنا ولو نفسـاً مُتنا

شعرت بدموعها تحتشد في مقلتيها وتكاد أن تسيل فقالت بصوت متهدج:

- أريد أن ألتقي بالشيخ "حمزاوي".

انحنى لها احتراما وغادرها سريعا لتجفف عينيها وتتأمل محتويات غرفة إمام المسجد الكبير، قبل أن تسمع طرقات خافتة على الباب ليدلف الشيخ "حمزاوي" بنحوله الشديد وعصاته المعدنية وملامحه الطيبة التي ابتلعتها التجاعيد ليهتف في سعادة:

- ابنتي الغالية "إحسان" الغالية ابنة الغالي، قالها وانحني ليقبل رأسها فتناولت كفه المعروقة لتطبع عليها قبلة تبجيل واحترام وهي تنهض لتساعده

على الجلوس.

نمـوت ببعدكم ونحيا بقربكم

وإن جاءنا عنكم بشير اللقا عِشنا

ابتسم وهو يقول:

- كيف حال "أمجد" وحال "سلوى" الآن، لقد حصنت كل الخدم بنفسي وأضفت حمايات إضافية للقصر؟

شعر بالتردد يسبح بلا هدى في عينيها وهي تحاول أن تجمع أفكارها لتبدأ الحديث، فمال نحوها ليقول في خفوت:

- يسري عليك يا ابنتي أن هي إلا خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها، كله مقدر ومسجل في اللوح المحفوظ قبل بدء الخليقة وما نحن إلا أدوات لتنفيذ مشيئته تعالى.

هزت رأسها لتقول في عصبية:

- كانت ابنتي تتلقى رسائل القصر لمدة خمس سنوات تقريبا ولكنها كانت تدور في دوائر مفرغة بدون أي قبس من النور، كنت أعتقد إنها المختارة للولاية لأنها من دم سيدنا ولكنها لم تصل لشيء.

- ليست من دمه يا ابنتي الحبيبة فهي في البطاقة تسمى "سلوي عبد الحميد النجار" ولكنه يدعي "أمجد ركن الدين علوان".

ونحيا بذكراكم إذا لم نــراكم

ألا أن تذكــار الأحبة ينعشنا

جففت دمعة خائنة لتقول بصوت مختنق:

- ولكن الفتى خرج لتوه من عدة تجارب سيئة وجاء إلى هنا للنقاهة تقريبا، وفجأة يجد نفسه وسط كل هذا الخضم من الأحداث.

- كل شيء يتم بمقدار يا سيدتنا، كل شيء مقدر ومكتوب، يجب أن يتسلم الفتى الولاية، لقد أعد مولانا الأمر بالكامل ليتسلم الحفيد الراية بعد أن رفض الابن.

فلولا معانيكم تــراها قلوبنا

إذا نحن أيقاظ وفي النوم أن غبنا

مالت نحوه لتقول:

- "سلوى" تقول إنه على شفا حفرة من الوصول إلى حل اللغز.

أغمض عينيه ليقول مبتسما وكأنها قد أسمعته أهم خبر في الدنيا:

- هذا هو عين المراد يا ابنتي، فقد حان الحين لرد المظلمة وحمل الرسالة والإيقاع بمن قتل مولانا.

تلاقت نظراتهما لدقيقة قرأ فيها الشيخ غضبا مكبوتا في عينيها الدامعتين قبل أن تقول في حدة:

- هل تعتقد انه سيخبره بمن تسبب في مقتله؟

سألته ونهضت وهي تضم كفيها إلى صدرها في شوق لتقول في غل:

- عشت عمري كله لأعرف من قاتل أبي لنقتص لتبرد نيران قلبي المشتعلة.

لقد مات أخي بدون أن يبحث عن قاتل أبينا ليقتص لنا، والكل يقول أن ثأره ذهب أدراج الرياح.

أشار إلى السماء ليغلق عينيه ويقول بصوت عميق:

- للسماء حسابات لا يفهمها إلا من لاذ بالتخلي والتحلي وكاد أن يصل إلى التجلي، ومن ذاق عرف يا سيدتنا، فلقد جاء الحفيد من القاهرة ليكون نارا حامية تحرق الملاعين الذين تسببوا في فقدان البشرية معجزة كمولانا رضي الله عنه.

واقترب منها بخطوات بطيئة معتمدا على عصاته ليمسك بيدها ويقول محتفظا بابتسامته:

- قري عينا فقد اقترب الميعاد يا بنتي.

ابتسمت وصوت المنشدين يصل إليهما:

تضيق بنا الدنيــا إذا غبتم عنا

وتذهب بالأشــواق أرواحنا منا

"لأنك لو قبلت الإطلاع على ما سينكشف أمامك من أسرار فستتغير نظرتك إلى الحياة بالكامل وستختل أمامك كل الموازين والثوابت الكونية التي آلفها البشر منذ الأزل."

من رسالة مولانا "علوان" للقادم بعده.

26 – قرية العلوانية

قصر علوان الكبير

26نوفمبر 2005

ضربت "سلوى" الكتب بكفها الصغيرة لتصيح في حنق:

- لا توجد أية إشارة لأي شيء ملفت للنظر يا "أمجد"، قضيت يوما كاملا في تفحص كل صفحة وكل سطر بدون فائدة.

فك أزرار سترته الرسمية وطواها ليضعها على ظهر أحد المقاعد ونزع حزام مسدسه ليودعه أحد أدراج المكتب وحل رابطة عنقه وهو يضع حقيبة جلدية صغيرة على سطح المكتب ليقول:

- لقد زرت عم "على" في المستشفى والرجل لم تجف دموعه بعدما عرف الذي حدث، ولقد أغلقت المحضر بطريقتي فلن يثار ما حدث مرة أخرى رسميا.

وفتح الحقيبة ليقول:

- بعد ما حدث أدركت أن هناك ثغرات يجب أن نعتني بها في جدار الأمن بالقصر.

وأخرج من الحقيبة أربعة مسدسات من النوع ذي الساقية الدوارة ليقول:

- سأوزع تلك المسدسات في عدد من الأماكن بالقصر، أو بمصطلحاتنا (سأزرعها)، واتجه نحو المكتبة ليتناول بكرة من الشريط اللاصق ويلصق أحد المسدسات في مكان خفي خلف مرجع من المراجع وهو يقول لها:

- تذكري.. خلف الكتاب رقم 1815.

وهبط السلم ليقول لها وهو يعطيها مسدسا آخر ويقول:

- المسدس سهل الاستخدام للغاية، ستدفعي بهذا الزر إلى الخلف لتعطلي وضع الأمان وتصوبي نحو الهدف وتطلقي الرصاص.

تناولت المسدس مبتسمة كطفلة وهي تقول:

- وهل تعتقد أنني سأجرؤ على تصويب هذا الشيء على هدف متحرك.

وضع كفه على كتفها ليقول في صرامة:

- ستستخدميه لأنني لن أحتمل أن يصيبك أدني مكروه.

تطلعت إلى عينيه في وله لتهمس:

- حقا يا "أمجد" ..

وضع سبابته على شفتيها ليقول وقد بدت عواطفه جلية في عينيه:

- سننتهي من مهمتنا هنا أولا، ثم سأقنعك عمليا.

قالها وفر من مشاعره وهو يشير إلى المسدسين الآخرين ليقول:

- سأبحث لهم عن مخابئ أخرى.

زفرت وقالت وهي تغير دفة الحديث:

- هل أنت متأكد من نظرية "دوريان جراي"؟

- أنا متأكد تماما من موضوع رواية "صورة دوريان جراي" لأن كل التقارير الرسمية تقول أن جدنا تعرض لإصابات قاتلة كان لابد أن تفضي به إلى القبر لحظيا ولكنه عاش بعدها ليمارس دوره وينشر رسالته، وهذا ما

صنع جزءا كبيرا من أسطورته، كان يخرج لممارسة مهام منصبه بانتحارية لأنه كان يثق في وجود لوحة مسحورة ما تتلقى بدلا منه الأذى والرصاصات تماما كالدرع الواقية من الرصاص الذي يرتديه رجال الشرطة.

- لقد سألت والدتي ونفت أن يكون جدي قد طلب من أحدهم أن يرسم له لوحات شخصية.

- وبالنسبة للسراديب أو الغرف السرية داخل القصر؟

قلبت كفيها لتقول:

- والدتي تنفى أيضا وجود أية غرف سرية داخل القصر.

أشار إلى الرواية وقال في إصرار:

- شفرة الأرقام لم تشر مصادفة إلى تلك الرواية، جدنا كان يمتلك لوحته الخاصة التي تتلقى الأذى بدلا منه صدقيني، أنا أثق تماما في استنتاجي.

أشارت إلى الكتب الأربعة لتقول:

- هذا بالنسبة إلى الرواية، ماذا عن الكتب الثلاثة الأخرى؟ ما علاقة الرواية بكتاب عن الكيمياء وكتاب عن الفلسفة والرياضيات وكتاب عن الصوفية؟

اقترب من المكتب ورفع الكتب ليتأملها ومط شفتيه ليقول:

- لاحظي هنا أن الشفرة الرقمية قد جعلتنا نسحب الكتب بدقة شديدة.

- ماذا تقصد؟

- لاحظي الجزء الثالث من كتاب "رسائل إخوان الصفا" بالذات والجزء الرابع من كتاب "الفتوحات المكية" لـ "ابن عربي" بالذات، بمعني لماذا لم ترشدنا الشفرة إلي الجزء الثالث من "الفتوحات المكية" والجزء الرابع من "رسائل إخوان الصفا" مثلا؟

انتبهت لحديثة بكل حواسها وهي تتأمل ملامحه المرهقة ولحيته النامية والشعيرات الدموية الدقيقة التي استوطنت بياض عينيه وقالت في تردد:

- وما هو السبب في اعتقادك؟

نهض واتجه نحو المكتبة وأشار إلى الفراغات التي تركتها الكتب الأربعة الموضوعة أمامهم ليقول:

- ماذا لو كان حل اللغز هو الكتب التي وصلنا لها بالإضافة للفراغات التي خلفتها في صفوف الكتب.

قال عبارته وجذب السلم النقالي ليصعد نحو الفراغ الذي خلفه الكتاب الأول، وتأمله ليقول في انفعال وفرحة عارمة:

- لقد أخبرتك يا "سلوى".. أخبرتك أنه لم يرشدنا لتلك الكتب إلا لسبب قوي، هناك جزء غائر في جدار المكتبة في هذا الموضع بالذات.

قالها وهو يضغط ظهر المكتبة، وتلفت حوله لعله يلاحظ أية تغيرات ولكن كل شيء في الغرفة ظل كما هو عليه.

فأشارت إلى الفراغات الثلاثة الأخرى لتقول:

- قد تكون هناك أجزاء غائرة أخرى مكان الكتب الثلاثة الباقية.

تحرك في سرعة ليضغط باقي الأجزاء الغائرة وهبط ليقف بجوارها.

استمر انتظارهما لدقيقة حتى كادا أن يفقدا الأمل، وفجأة سمعا صوت قعقعة قوية من مكان ما تلاها صوت يشبه صوت تحرك منزلقات ميكانيكية مصنوعة من معدن ما.

تلفت "أمجد" حوله وقد شعر أن هناك شيئا يتحرك ببطء كديناصور يستيقظ بعد غفوة استغرقت ألف عام على الأقل.

أشار إلى الجدران ليقول:

- لقد دلنا جدي على أربع مقابض مع الضغط عليها سيتم فتح باب سري في الجدار.

وهنا شعر بالأرض ترتج تحت قدميه فصاح وهو يقفز نحو "سلوى" ليدفعها ويسقط معها أرضا:

- احترسي ..

صرخت عندما رأت الأرضية تنشق في نفس مكان وقوفها السابق لتكشف عن فجوة مربعة طول ضلعها متر تقريبا.

تحركا في حذر نحو الفجوة التي كانت مستترة أسفل طبقة من خشب الأرو القديم وصوب "أمجد" كشاف هاتفه المحمول نحوها ليظهر سلم معدني مثبت بجانبها يقود نحو قاع يبتعد عنهم بحوالي الخمسة أمتار.

أشار إليها قائلا:

- سأهبط للاستكشاف وستنتظرين هنا.

تقدمت نحوه ورفعت عينيها الواسعتين نحوه لتقول في صوت مرتجف:

- لن أتركك تهبط وحدك فأنا خائفة للغاية.

شاهد دموعها تترقرق في عينيها فارتجفت شفتيه ومنع نفسه من ضمها إلى صدره وهو يقول:

- لا أريدك أن تتعرضي لأدني خطر.

- سأكون في أمان وأنا بجوارك.

واصل التحديق في عينيها الساحرتين قبل أن يهز رأسه ويتجه نحو المكتب ليلتقط مسدسه الحكومي الضخم من الدرج وأشار إليها لتتبعه.

بدأ يهبط السلم ببطء وروية وهو يصوب مسدسه مع كشاف هاتفه المحمول نحو القاع.

وقفا يتطلعان إلى غرفة متوسطة الحجم ولمح "أمجد" زر إضاءة جانبي فضغطه ليضيء الغرفة مصباح أبيض نشر الطمأنينة في المكان.

كانت الغرفة خالية إلا من صندوق كرتوني موضوع على بروز رخامي مثبت بأحد جدرانها.

فتح الصندوق وهو يصوب نحوه مسدسه في حذر وأخرج منه مظروفا مغلقا بخاتم شمعي وعلبة من الفضة مستطيلة الأبعاد.

نظر إليها فأومأت برأسها فمزق المظروف ليلتقط ورقة صفراء اللون مكتوب عليها بخط بديع وبقلم حبر أسود السطور التالية:

"تحية طيبة يا من وجدت بداية الطريق إلى خلافتي وحمل سري وخلاصة خبرتي، تحية إليك من رجل حاول بقدر الإمكان أن يجعل من قريته مكانا أفضل. لقد تحركت في طريقي محاولا أن أصنع نموذجا محدودا من المدن الفاضلة وأعتقد أنني قطعت شوطا لا بأس به نحو هدفي.

فيا من تقف الآن على بعد سنتيمترات من تراثي عليك أن تعرف أن المسئولية جسيمة والعبء ثقيل، يمكنك أن تعود أدراجك وتمشى بين الجموع بدون التزامات، لأنك لو قبلت الإطلاع على ما سينكشف أمامك من أسرار فستتغير نظرتك إلى الحياة بالكامل وستختل أمامك كل الموازين والثوابت الكونية التي آلفها البشر منذ الأزل.

ولن أبالغ إذا قلت لك إنك سيمكنك التأريخ لحياتك منذ تلك اللحظة، ما قبل دخولك إلى هنا وما بعده.

والآن فكر جيدا ولو حسمت أمرك وقررت أن تسير على نفس الدرب قم بفتح العلبة الفضية."

نظر إليها فابتسمت وقالت في ثبات:

- افتح العلبة الفضية.

فتح العلبة بضغطة بسيطة ليتطلع إلى قطعة صغيرة من الجرانيت الأسود يتوسطها فجوة صغيرة غائرة ويحيط بالفجوة عشرات النقوش والحروف المنقوشة بماء الذهب بلغة غير معروفة.

تطلعا إلى النقوش ليقول في حيرة:

- ما تلك اللغة؟ وما علاقة العلبة وقطعة الجرانيت بالأمر؟

وبحرص قلب العلبة لتسقط قطعة الجرانيت على كفه وهنا سقطت قطعة ورق كانت مختفية أسفلها.

التقط الورقة ليقرأ التالي:

"شرط المرور الأساسي هو شرط الدم، لن يتمكن من المرور إلا من يحمل دم "علوان عوف الأصيل"، من سيحقق هذا الشرط سيخترق وإذا حاول من لا ينطبق عليه الشرط العبور سيحترق في التو واللحظة."

زفر في ضجر لهتف:

- ما هذا السخف؟

رآها تنزع دبوسا من الحجاب الأنيق الذي يغطى رأسها لترفعه نحوه فهز رأسه وأخرج قداحته من جيبه وعقم رأس الدبوس وبحركة سريعة ثقب طرف سبابته ليستقبل قطرات الدم في الجزء الغائر من قطعة الجرانيت.

مضت ثوان قبل أن يتألق جزء من الجدار بنيران قوية فتراجعا إلى الخلف ليبتعدا عن وهج النيران قبل أن تتلاشى النيران لتترك مكانها فتحة تكفي لعبور رجل ناضج في الجدار.

ابتسمت بشحوب لتقول:

- إذا تقدمت أنت اخترقت.

جفف قطعة الجرانيت من قطرات دمه وعقم سن الدبوس مرة أخرى واحتوى كفها الرقيق بيده ليقول لها:

- اغلقي عينيكي.

أطاعته فثقب سبابتها لتتأوه في خفوت، وترك قطرات دمها تتساقط داخل الجزء الغائر من قطعة الجرانيت فاشتعلت نار حمراء بجانب آخر من الجدار ثم زاد توهجها وبدأت تتحول إلى اللون الأسود قبل أن تخمد لتترك الجدار سليما متماسكا ولكن بدون أبواب للعبور.

نظر لها في حزن وهو يضغط شفته السفلى بأسنانه فقالت بصوت مختنق:

- يمكنني أن أعبر معك من الباب المخصص لك.

وضع كفيه على كتفيها ليقول في خفوت:

- أنا أخاف عليكي، ولن أحتمل أن يصيبك مكروه.

- لن أتركك بمفردك.

- دم "علوان" يحكم الآن، فأنا "أمجد ركن الدين علوان" وأنت "سلوى عبد الحميد النجار".

- خفضت عينيها لتقول وسط عبراتها:

- إذا تقدمت أنا احترقت ..

أمسك بذقنها الصغير ليرفع وجهها نحوه ويقول:

- الخيرة فيما اختاره الله، سأتبع خطواته لأعرف السر، لقد تأكدت الآن أنني جئت من "القاهرة" خصيصا من أجل كشف هذا السر.

همست:

- ستعود من أجلي.

ابتسم ومال نحو أذنها ليقول:

- سأعود لأتطلع إلى عينيك الساحرتين كل ما تبقى من حياتي، ستصعدين الآن وستخبرين عمتي أنني لن أعود قبل أن أعرف كل شيء عن سيدنا "علوان"

قالها ولوح لها بكفه مودعا وتحرك ليعبر الفتحة التي اشتعلت نارا مرة أخرى لتشهق في فزع قبل أن تتلاشى النار لتجد نفسها تتطلع إلى جدار من الصخر الأصم وبلا فتحات.

***

أنت الآن تقف على بعد سنتيمترات قليلة من المرآة السحرية التي عبرتها "أليس" إلى بلاد العجائب، ولكن ماذا عن رحلتك الخاصة التي أنت على وشك القيام بها؟

هل أنت مستعد للتوغل في هذا الدرب المظلم؟

27 - الرحمانية قبلي

1949

تفضل بالجلوس يا شاويش "حمزاوي".

قالها "علوان" وهو يجلس خلف مكتبه الذي يحمل لافتة نحاسية تحمل اسمه ولقب مأمور القسم.

فدار "حمزاوي" بعينيه في حيرة وهو يقول في خفوت:

- العفو يا سعادة الباشا.

ضحك "علوان" وصاح به مداعبا:

- قلت لك اجلس أيها العجوز وإلا قمت بتقديمك لمحاكمة عسكرية عاجلة.

تبين الرجل الدعابة في صوت رئيسه فضحك وجلس على طرف المقعد المواجه للمكتب في وضع غير مريح.

كان ثالثهما الصمت لدقيقة كاملة قضاها "حمزاوي" وهو يفكر في سبب تبسط رئيسه المهاب الجانب الذي يخشاه الجميع.

- أنت تعرف أنني قارئ نهم لكل فروع المعرفة وقد زرتني مرارا في القصر ورأيت حجم مكتبتي.

ابتسم ليقول مبتهجا:

- ما شاء الله يا سعادة الباشا، نفعك الله بكتبك أن مكتبتك أكبر من مكتبة قصر الثقافة.

قال عبارته وضحك وقد سره تبسط رئيسه معه إلى هذا الحد.

- حاليا أنا أولي أصول وجذور العلوم اهتماما بالغا، فلقد فقدت إيماني بالعلوم الحديثة منذ وفاة زوجتي الأولى، ووجدت أن أسلوب دراسة العلماء للعلوم حاليا هو أسلوب فاشل. فقد بدأت بالفعل القراءة في الخيمياء والسيمياء والفلك.

قال جملته وصمت ليتأمل ملامح "حمزاوي" التي بهتت فجأة وتلاشت ابتسامته التي كانت تزين شفتيه.

واستطرد:

- أريد أن أتبحر في دراسة الهرمسية والتنجيم وعلم الجفر وقوة الحروف والعلوم الباطنية.

بدا الهم على وجه "حمزاوي" الشاحب ونظر إليه ليقول:

- ولماذا تلك العلوم بالذات يا باشا، أقسمت عليك بأغلى ما عندك.. تراجع عن عزمك ولا تتوغل في تلك الطرق.

نهض "علوان" من خلف مقعده ودار حول مكتبه ليميل نحوه مباشرة فشعر بعينيه تخترقان كيانه كله وهو يقول له:

- لماذا يا صديقي القديم؟ ماذا تعرف عن تلك العلوم؟

خفض عينيه لعجزه عن مواجهته وهو يصيح:

- هل اعتقدت أنني لن أعرف الجانب الآخر من حياتك يا حضرة الشاويش؟ هل ظننت أن عملك في الدجل والشعوذة تحت ستار وظيفتك سيكون واجهة وحماية لك إلى الأبد.

بدأ يهتز في مقعده من أثر البكاء المكتوم وحاول أن يقول شيئا ما فخرجت عباراته مختلطة وغير مفهومة.

فصاح به مرة آخري:

- تحدث يا رجل ..

رفع عينين دامعتين نحوه وهو يقول:

- الأمر مختلف يا سعادة الباشا، أنت شرفتني بلقب صديقك القديم، فهل تعتقد أنني أمارس ما أمارسه لكي أضر خلق الله وألحق بهم الأذى وأخون وظيفة الحكومة؟

فوجئ بملامح "علوان" تنفرج وهو يبتسم قبل أن تتحول ابتسامته إلى ضحكة مجلجلة ليقول وهو يربت علي كتفه:

- قلت لك إنني أعرف كل شيء في قريتي أيها العجوز، ولكنني كنت أداعبك دعابة ثقيلة.

نظر له في ذهول وشعر بالشفقة على نفسه فانفجر باكيا. فجذبه من ذراعه ليجبره على النهوض قبل أن يضمه إلى صدره ويربت على ظهره بقوة ليقول:

- أعرف إنك تمارس الجانب الأبيض وتلعب لصالح الخير وأعرف أنك قمت بمساعدة الكثير من ضحايا الدجالين مثل اللعين "فودة".

قالها ودعاه للجلوس ثانية ليقول:

- أنت صديقي المفضل يا "حمزاوي" ولم أجد غيرك لأصارحه برغبتي، فأنا بالفعل أريد أن أتتلمذ على يديك في أصول تلك العلوم، فهل توافق أن تكون أستاذي؟

- العفو والسماح يا سعادة الباشا، يشرفني أن أدرس لك كل ما تريد أن تدرسه وبكل أسراره.

هز "علوان" رأسه في رضا وقال وهو يحشو غليونه العاجي بالتبغ قبل أن يشعله:

-أنا على بعد سنتيمترات من اكتشاف مهول يا "حمزاوي"، اكتشاف سيغير معالم الكون كله كما تعرفه منذ مولدك، ولقد عثرت علي بعض المخطوطات المكتوبة باللغة القبطية القديمة وهناك مخطوطات أخرى بالسريانية، أريد منك أن تعلمني القراءة بتلك اللغات.

أشار "حمزاوي" إلى كلتا عينيه ليقول:

- طلبات جناب الباشا أوامر، متى تريد أن نبدأ.

بدت الصرامة والجدية على وجهه وهو ينفث دخان غليونه عطر الراحة ليقول في حسم:

- سنبدأ غدا إن شاء الله.

شهيق

.

زفير

.

شهيق

.

زفير

أغلق عينيه تفاديا لضوء الشمس الحارق ودخل إلى تلك المغارة التي وجدها أمامه، تلك المرة كان يقف بمفرده يتطلع إلى ممر منحوت في قلب الصخر يمتد لمسافة عشرة أمتار، وقد توزعت على جدرانه عدد من المصابيح الكهربية أضاءت ما حوله بضوء خافت، توغل في الممر أكثر ووجد ذلك الباب المعدني المفتوح كقلب صديق مخلص، توقف وهو يتطلع حوله في حيرة شديدة.

كان يقف الآن داخل معمل ما، كان السقف يتوسطه قبة زجاجية تتسلل منها أشعة الشمس وهناك تليسكوب ضخم عدسته مصوبة نحو القبة، هناك دائرتان متسعتان يصل قطر كل منهما إلى مترين تقريبا، إحداهما محاطة بإطار أصفر من الذهب الخالص وهناك المئات من الرموز المنقوشة على سطحها بالفضة، الدائرة الأخرى كانت محاطة بإطار من معدن آخر رمادي اللون وعندما اقتربت وجدت ذلك الرجل المقيد في وضع المصلوب إلى محيط الدائرة، كان يحدق في وجهه بعينين نصف مغلقتين فأدرك أنه تحت تأثير مخدر ما،

ما هذا المكان العجيب؟

وجاء في ذهنه أن هذا المكان يشبه أوكار السحرة والعلماء المجانين في السينما، كان يتجول ببصره في المكان في غير فهم قبل أن يراه يعبر باب المعمل بتردد ووجل ..

إنه هو.. ذلك الدجال الداعر "فودة الديناري" رآه يتأمل المكان في غير فهم ويفتشه تفتيشا دقيقا قبل أن يتسلق إلى محيط الدائرة التي يرقد الرجل المقيد داخلها ويستل خنجرا حادا وينهال على الرجل بالطعنات ليمزقه تماما، وعندما فشل في أن يجد ما يفتش عنه، أخرج علبة صغيرة وفتحها ليبدأ في نثر محتوياتها السائلة على كل أجزاء المعمل ووقف يتأمل السائل الذي نثره وهو يشتعل ذاتيا لتبدأ النيران في التهام كل أجزاء المعمل ..

.

.شهيق

زفير

شهيق

زفير

.

.

- أين أنت يا "سلوى" أريد كوبا باردا من الماء.

هتف بالعبارة وهو يهب من مرقده متوقعا أن يجد نفسه في غرفة المكتب محاطا بالكتب من الجهات الأربعة. ولكنه وجد نفسه يستيقظ داخل غرفة بالغة الاتساع والنظافة، الجدران مطلية باللون الأزرق الباهت والأرضية مغطاة بالجرانيت الأخضر، هناك جهاز تكييف حائطي صغير مضبوط على درجة حرارة معتدلة بها لمسة من البرودة منعشة للحواس.

كان يجلس على فراش نظيف يتسع لنوم شخص واحد وهناك مكتبة متوسطة الحجم تحتوى على عدد كبير من الكتب والمخطوطات وهناك مكتب أنيق مصنوع من الخشب ومطلي بالأسود، والعجيب أنه وجد على المكتب حاسبا نقالا (لاب توب) متصلا بموجه شبكة الإنترنت (راوتر) حديث وبجواره عدد كبير من علب السجائر المفضلة لديه. وفي جانب الغرفة شاهد مبرد طعام وبجواره موقد مصفوف بجانبه كل ما يلزم لصنع القهوة والنيسكافية والشاي، تحرك وفتح المبرد ليجده ممتلئا بأصناف الطعام المعدة للتجهيز السريع، هناك باب يفضي إلى دورة مياه نظيفة ومعطرة.

عاد للجلوس على الفراش لينظر إلى ساعته فوجدها تشير إلي العاشرة مساء مما يعني أنه فقد الاتصال بالواقع لثلاث ساعات تقريبا منذ أن ودع "سلوى" وعبر الممر.

كانت الأفكار تمر عبر رأسه سريعة ومختلطة..

لو افترض أنه فقد الوعي أثناء المرور، فكيف وصل إلى هذا الفراش؟

لقد قام بإعداد هذه الغرفة من أجله منذ ما يزيد على الأربعين عاما.

ولكن الأثاث والأجهزة.. خاصة جهاز الحاسب وموجه الإنترنت والطعام الذي في المبرد وعلب السجائر التي حرص من أعدها أن تكون من نوعه المفضل. كل هذا يقود إلى أن هناك خادما مطيعا قام بتجهيز تلك الغرفة من أجل قدومه، من أجله هو بالذات. ولو أردنا الدقة فهذا المكان مؤهل

ليستقر فيه لأسبوع كامل بدون الحاجة للاتصال بالعالم الخارجي، وهذا المكان بالتأكيد له مدخل آخر خفي يستخدمه خادم الغرفة في الدخول والخروج.

أشعل سيجارة واتجه نحو الموقد ليعد كوبا كبيرا من القهوة المركزة فلاحظ بداية دوران شفاط حائطي أتوماتيكيا للتخلص من دخان السجائر، رشف أول رشفة من كوب القهوة وبحث عن هاتفه المحمول ليجده مثبتا بالشاحن المتصل بمقبس الكهرباء فهز كتفيه في استسلام مغمغما:

- نحن نلعب بقواعدك الآن ولا داع للمزيد من التساؤلات.

واتجه نحو المكتبة ليتفقد الكتب وابتسم عندما وجد ما توقعه، مجلدا كبير الحجم مكتوب عليه بخط أندلسي جميل وباللون الذهبي البراق

" مذكراتي عن الفترة ما بين 1940 إلى 1945" ووجد عددا آخر من المجلدات يحمل نفس العبارة مع تواريخ مختلفة وصولا لعام 1965 عام استشهاد جده.

حمل أول المجلدات واتجه نحو مقعد وثير مواجه للمكتب ليجلس وفي متناوله السجائر وكوب القهوة وفتح المجلد ليشعر بشعور "أليس" عندما عبرت المرآة السحرية وصولا لأرض العجائب.

مذكرات "علوان عوف الأصيل"

لقد اقتربت من الحقيقة حتى كادت نيرانها أن تلفح وجهي وتحرق شعر لحيتي، أنا الآن على بعد سنتيمترات من الكشف الذي سيغير وجه العالم كله، والذي قد يقتل الناس بعضهم البعض وقد يدفعون مليارات الجنيهات من أجل امتلاكه.

القاهرة

مستشفى الشفاء التخصصي للولادة

1940

كنت وقتها ضابطا برتبة ملازم أول، وحياتي تسير بدون تعقيدات، والدي يحمل لقب باشا، يمتلك عزبة ضخمة في "قنا" ويدير عدة شركات في "القاهرة" ووجه بحري، وكنت أقضي وقتي بين عملي في قسم "الأزبكية" وبين هوايتي التي حرص والدي علي تنميتها لدي وهي القراءة، درست عدة لغات على أيدي معلمين أجانب فأصبحت أجيد القراءة بالإنجليزية والفرنسية والألمانية، تعرفت على "شهيرة" وكانت فتاة جميلة صالحة تنتمي إلى إحدى الأسر العريقة، كان تفاهمنا مثاليا فتقدمت لها وتزوجنا في منزل جميل أسسه لي والدي بالكامل، قضينا شهر عسل أسطوري في "نيس" بـ"فرنسا"، حدث الحمل بعد الزواج تقريبا، "شهيرة" مرت بشهور حمل عصيبة نظرا لطبيعة جسدها الواهنة، وقرر الأطباء أن تلد في نهاية الشهر السابع نظرا لظروف حملها وطبيعة رحمها التي حتمت إجراء جراحة قيصرية فورية.

كنت وقتها قد قرأت في كل المجلات المعرفية ومن ضمن تلك المجالات كان المجال الطبي، قرأت كل شيء عن تاريخ الولادة القيصرية وتطورها عبر

التاريخ، كنت وقتها قد وصلت إلى أعلى مراتب الإيمان بالعلم وبقواعده الصارمة وباستطاعة العلماء أن يحلوا كل المشاكل الممكنة.

حبيبتي "شهيرة" كانت ترقد على فراشها بالمستشفى غاية في الإرهاق بوجه شاحب وجبين بارد تسيل عليه خيوط العرق، اقتربت منها وربت على وجنتها وجففت عرقها وهمست في أذنها:

- ستلدين طفلة جميلة تشبهك وسنطلق عليها "نادية" كما تمنيت دائما.

تشبثت بيدي بكفها الواهنة وهي تهمس:

- أحبك جدا وأخشى أن أموت وأتركك وحيدا.

ملت نحوها أضمها إلى صدري بحنان وهمست:

- ستعيشين لمائة عام على الأقل، تلك هي الفترة الكافية لأعبر لك عن مقدار حبي وعشقي لك ولوجودك بجواري، لأن ملاك مثلك عندما يقرر أن يهبط على الأرض ويتنازل ليعيش مع إنسان فان مثلي فيجب أن أصلي لله ألف ركعة كل ليلة لأشكره، وسيكون حتما علي أن أجلس في محراب عينيك كل يوم لأكتب لك مائة قصيدة غزل تصف مشاعري.

صمتت قليلا وأنا أشاهد ابتسامتها وفرحة الكون التي أعشقها في عينيها.

- أعشقك وأعشق كلماتك يا "علوان"

قالتها مع دخول طاقم التمريض الذي سيصحبها إلى غرفة العمليات، قبلت أطراف أناملها وهمست في أذنها:

- سأجلس في انتظارك أنت و"نادية".

رأيت السكينة تتسلل إلى ملامحها القلقة ولوحت لي بكفها وهي تبتعد على فراشها الذي يدفعونه نحو المصعد.

أسرعت لأقفز درجات السلم واتجهت إلى الطبيب الذي ارتدى زي الجراحة واتجه نحو الباب المفضي إلى حجرات العمليات، رأى القلق على وجهي فابتسم تلك الابتسامة المحايدة ليقول:

- لا تقلق..

قالها ودخل إلى قدس الأقداس.. الذي يحمل لافتة "العمليات"

قضيت أطول ساعة في حياتي أدخن وأتطلع إلى السماء في رجاء وأمل.

وعندما شاهدت الطبيب يتقدم نحوي أسرعت لأقابله في نصف المساقة وأنا أهتف في لهفة:

- كيف حالهما؟.. متى يمكنني أن أراها هي والمولود؟

-أنت رجل مؤمن بقضاء الله، لم نستطع إنقاذها ولم نستطع إنقاذ الجنين.

خيل لي وقتها أنني لم أسمعه، قد تكون حالة من الصمم الهستيري اللحظي حيث يتدخل المخ ليكف حاسة ما عن عملها لينقذ صاحبها.

أمسكت ذراعه لأقول بصوت مرتجف:

- سألتك.. متى يمكنني أن أراها هي والمولود؟

تجمع عدد من الأطباء حولنا وتلعثم الطبيب وهو يقول ثانية:

- أقسم لك لقد بذلنا أقصى جهدنا ولكنها إرادة الله.

هنا استوعبت عبارته فقبضت على ياقة معطفه وصحت في جنون:

- بل قل إنكم مجموعة من الفشلة لم تستطيعوا أن تطبقوا قواعد العلم الصارمة التي لا تخطئ أبدا.. بل قل أنني وثقت في مجموعة من المأفونين ووضعت زوجتي وابنتي في أيدي مجموعة من العجزة.

حاول طبيب آخر أن يتدخل وربت كتفي وهو يقول:

- أقسم لك أننا ..

قاطعته في انفلات أعصاب كامل:

- دع هذا القسم لى.. أقسم لك أنا أنني سأغلق لكم هذه المستشفى وسأقاضيكم لتقضوا باقي أعماركم في غياهب السجون.

قضيت ليالي كاملة أبكيها وأتذكر أجمل أيام وليالي العمر التي قضيتها بين ذراعيها، فقدت إيماني بكل ما آمنت به من قواعد العلم؛ فإذا مت ظمآنا فلا نزل القطر، فعلوم لم تستطع أن تبقى زوجتي علي قيد الحياة هي علوم فاشلة لا تستحق أن ندرسها، قضيت أسود أيام حياتي أنظر إلى السماء وكدت أن أفقد إيماني بكل المقدسات.

.

.

قنا

1940

طلبت من والدي أن يتوسط لي لكي يتم نقلي إلى مكان هادئ خالي من المشاكل التي تحتل عالمي في "القاهرة"

.

.

تركت المذكرات وتطلعت إلى صورتي التي انعكست على مرآة جدارية، وجدت نفسي أبكي بدون أن أشعر، يا إلهي الرحيم.. التاريخ يعيد نفسه بهذه الدقة، زوجة جدى الأولى لقت ربها بعد جراحة قيصرية هو ما حدث مع زوجتي "هناء" تماما، لقد عشت نفس الموقف بنفس التفاصيل تقريبا، أنا وجدي فررنا من أحزاننا إلي الصعيد.

هل يمكن أن تكون صدفة؟

.

عدت إلى المذكرات مرة أخرى

.

.

في قصر والدي عشت لا أقرأ سوى الروايات فقد انتهت علاقتي بالعلوم التطبيقية ووصلنا إلى طريق مسدود، ومع الحالة النفسية التي كنت أعاني منها أوليت اهتماما بالغا بروايتي "فرانكنشتاين" لـ"ماري شيلي" و"لوحة دوريان جراي" لـ"أوسكار وايلد"، لأسباب لا تخفى على أحد ف"ماري شيلي" تصف شغف الإنسان لقهر الموت وبث الحياة من اللاشيء، مؤلفة الرواية كانت مبهورة باكتشاف الكهرباء وشرحت بالتفصيل كيف يمكن لصاعقة كهربية قوية أن تبث الحياة في الأجسام الميتة، وها هو "أوسكار وايلد" يصف بدقة تلك اللوحة التي لعبت دور القطب المضحي وشاخت وحملت كل قبح "دوريان جراي"المعنوي وكل خطاياه وتركته وسيما لا يشيخ أبدا، قرأت هاتين الروايتين عدة مرات وقد قررت أن أتوسع في دراسة كل ما يتعلق بالموت والحياة في كل الحضارات القديمة والحديثة وبعد فترة انتهت إلى حقيقة واضحة وهي أن هناك خللا قد حدث مع التقدم في دراسة العلوم المختلفة، فكلما تقدم العلماء في دراسة فرع من فروع العلم كلما تركوا الفروع الأخرى ولم يعتنوا بدراستها؛ وهكذا نجد أن هناك فروعا قد تشعب إليها العلم الواحد وهناك علماء تخصصوا في دراسة دقيقة لهذا الفرع فقط.

لو تأملنا سير العلماء الأوائل لرأينا أشياءا عجيبة، "جابر بن حيان" تعمق في دراسة الكيمياء أو الخيمياء بمصطلحات عصره وعلم الكونيات والموسيقى والطب والسحر والأحياء والتقنيات الكيميائية والهندسة والنحو وما وراء الطبيعة والمنطق والفلك، "أبو بكر الرازي" كتب أكبر مرجع طبي في زمنه وهو كتاب "الحاوي" ولكن ذلك لم يمنعه من دراسة الرياضيات والفلسفة والفلك والكيمياء والفيزياء والمنطق والأدب، "ابن النفيس" ترك إسهامات طبية مهولة ولكن ذلك لم يمنعه من دراسة الصيدلة والفلك

والقرآن والمنطق والطبيعة والفلسفة، وذلك على سبيل المثال لا الحصر، لقد كان الأوائل مؤمنين بأن فروع العلم كلها لها تأثير قوي على بعضها البعض ولذلك قرروا أن يدرسوا أكبر قدر ممكن منها معا في نفس الوقت.

في تلك الفترة من حياتي قررت أن انتهج نهجهم وأن أتوسع في دراسة العديد من العلوم دفعة واحدة، قررت أن أمتلك قائمة طويلة من المخطوطات الأصلية التي تركها لنا العلماء الذين اهتموا بقهر الموت والوقوف بكل قوتهم ضده، وتطلب ذلك مني السفر عدة مرات خارج القطر المصري إلى أوروبا وبدأت في الإنفاق بلا حدود على تلك المخطوطات أو ما تيسر من النسخ السليمة الكاملة لها.

ألمانيا

1944

كنت قد كونت شبكة من العلاقات والاتصالات مع توطيد علاقاتي بالملحقين الثقافيين لعدة دول ومع مرور الوقت وصلت إلى عدد من المعلومات المهمة، وكان يجب أن أسافر إلى "برلين"، تطلب مني ذلك القيام بالعديد من حيل الحواة لأن مصر كانت مستعمرة بريطانية و"ألمانيا" على عداء مع "بريطانيا" ولكن النقود تفتح أمامك كل الأبواب الموصدة، وعن طريق شركة طيران إيطالية استطعت الوصول إلى قلب "برلين"، في تلك الفترة كانت قوات الرايخ الثالث تكتسح أوروبا كسكين حاد يغوص في قطعة من الزبد الطازج.

وكان البروفيسور "هانز براين" أستاذ الحضارة الشرقية بجامعة "ميونيخ" في انتظاري، فهو لم ينس كرم الضيافة الذي ملكت به لبه في آخر زيارة له للقاهرة قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، قدمني "هانز" لزميل له على قدر عال من العلم والإطلاع ويحتل مركزا حساسا في الجهاز العلمي النازي:

- هر "علوان" من ألمع العقول المصرية بالإضافة إلى أنه يحمل رتبة رفيعة في البوليس المصري، وقد شرحت لك أنه مهتم وبشدة بفرع قديم من العلوم وقلت له إن "فون شتومة" هو الوحيد الذي يمكن أن يفيده.

التفت إلي "فون" بوجهه المثلث الذي يشبه وجه ذئب عجوز ورفع منظاره الطبي إلى جهته ليتأملني بعينيه الثلجيتين ويقول:

- ضيوف البروفيسور "براين" على الرحب والسعة، أريد أن أسمع مطالبك يا هر"علوان".

كنت أعرف طبيعة الألمان العملية؛ فأخرجت من جيبي ورقتين مطويتين وقلت له مبتسما:

- هناك موضوع ما يشغلني منذ عدة سنوات وقد قرأت كثيرا وجلست جلسات مطولة لمئات الساعات مع أساطين الطب في "مصر" وناقشتهم حول الموت وكيف يمكن أن يقاومه الجسم البشري ويهزمه، وكيف يمكن القضاء على كل الأمراض قضاء مبرما، وكيفية تأخير أعراض الشيخوخة بقدر الإمكان.

ختمت عبارتي وسلمته الورقة الأولى.

فض طياتها وبدأ يقرأ في تمعن ورفع عينيه نحوى في برود قبل أن يعود للقراءة مرة أخرى، ثم ارتسمت ابتسامة باهتة على شفتيه الرفيعتين ليقول:

- إنك تتحدث عن كتب قديمة للغاية ومخططات نادرة لن يمكن أبدا أن تتواجد في مكان واحد.

بادلته الابتسام وأشرت إلى الورقة لأقول:

- لدي العديد من العلاقات بالمثقفين عبر العالم وقد عرفت أن كل تلك العناوين التي تحتويها تلك الورقة قد تم جمعها من جامعات ومتاحف سبع دول أوروبية بعد أن اجتاحتها جيوش الرايخ الثالث، وهي الآن موجودة في "برلين".

- هر "علوان" لماذا تريد أن تعيد اختراع العجلة؟ علماء الغرب تلقوا كل تلك العلوم الناقصة وأضافوا إليها ونقحوها ونقوها من الخرافات لتصير علوما تطبيقية وليست نظرية.

قالها وطبيعته الحذرة قد بدأت تسفر عن وجهها.

فأشعلت غليوني بعد أن أعدت تزويده بتبغ جديد وقلت وأنا ألوح بسبابتي:

هناك كتب ومخطوطات تم العمل على إخفائها بالكامل لمئات السنين، تلك الكتب والمخطوطات هي التي كتبت أسماءها في الورقة، والتي أعرف جيدا إنكم تعكفون على دراستها حاليا ويقوم سفاحكم "جوزيف مينجيل"[1] بإخضاع عينات منتقاة من الأسرى في "أوشفيتز"[2] لتجارب هدفها محاولة إخضاع موضوعات تلك الكتب للتطبيق.

- أنت رجل مثير للاهتمام يا هر"علوان"، كيف أمكنك الوصول إلى كل تلك المعلومات، هل تعرف أستطيع بمكالمة بسيطة أن أمنعك من السفر وأتهمك بأنك جاسوس للبريطانيين.

كنت أعرف أنه يناور لأن المعلومات التي نقلها لي "هانز" أكدت لي إنه سيتعاون.

فملت نحوه وهمست:

- بالنسبة لسؤالك عن كيفيه الوصول إلى كل تلك المعلومات فستجد الإجابة في تلك الورقة.

---

[1] جوزيف منجيل حصل على الدكتوراه 1935 وخدم في الجيش النازي (1941 – 1942)، ثم انضم إلى معسكر "أوشفيتز" 1943 ليقوم بتجارب رهيبة لا يتصورها عقل على الأسرى هناك، وفر إلى "الأرجنتين" بعد سقوط "برلين" وتنقل بين عدة دول هربا من صائدي النازيين، ليموت بسكتة قلبية في البرازيل 1979.

[2] معسكر "أوشفيتز" تم تصميمه وفقا لأفكار "هنريك هملر" أثناء الاحتلال النازي لـ"بولندا" وكان رمزا للمحرقة (الهولوكوست)، ليتم نقل مئات الآلاف من الأسرى من الأعراق المختلفة إليه بين عامي 1942 – 1944 ليتم التخلص منهم في غرف الغاز، وتم استغلاله في إخضاع فئات منتقاة من الأسرى لتجارب علماء النازيين.

وأعطيته الورقة الثانية ففتحها وقرأ المكتوب بها ليرفع رأسه نحوي ويقول بنبرات بطيئة:

- كيف قمت بتحويل هذا المبلغ المهول إلى البنك المركزي الأرجنتيني؟ ولماذا "الأرجنتين" بالذات؟

ضرب "هانز" كتفه برفق وتدخل في الحوار ليقول مبتسما:

- هر "علوان" جاء إلى هنا بعد أن أخبرته أننا من الناقمين على "هتلر" وما حدث على يديه من تدهور كامل على كافة الأصعدة، وأبلغته بخطتنا للفرار إلى "الأرجنتين" بهويات مزيفة.

نقل "فون" بصره بيني وبين "هانز" ثم صمت قليلا لأرى ابتسامة قد بدأت تجد طريقها نحو شفتيه قبل أن تتحول ابتسامته إلى ضحكة مجلجلة وهو يصفق بكفيه قائلا:

- فليذهب الفوهلر المجنون إلى الجحيم.

قالها ومد يده نحوي مصافحا ليقول:

- صفقة عادلة، متى تريد كل تلك الكتب والمخطوطات؟

- غدا على أقصى تقدير.

***

قنا

1947

لم تكن رحلة "ألمانيا" هي رحلتي الأخيرة، لأن المخطوطات التي حصلت عليها كانت ناقصة؛ ولهذا لم يتمكن علماء النازي من استكمال دراستهم لتلك المواضيع التي تضعنا على ذلك الخط الرفيع الفاصل بين الموت والحياة، سافرت إلى "إسبانيا" وحصلت على نسخ طبق الأصل من عدد من المخطوطات، سافرت إلى "رومانيا" و"فرنسا" و"الصين" وتفرغت لدراسة كل ما حصلت عليه، كنت أقوم بدراسة تلك النظرية القديمة التي ترجع أصل كل العناصر في الطبيعة إلى العناصر الأولية الأربعة التراب والنار والماء والهواء، لقد رأى الكثير من العلماء أن هناك أربعة خواص أساسية في الطبيعة وهي الحر والبرودة والجفاف والرطوبة. وقد اعتبروا النار حارة وجافة أما التراب فبارد وجاف بينما الماء بارد ورطب والهواء حار ورطب، فذهبوا إلى القول إن المعادن هي خليط من هذه العناصر الأربعة اثنان منهما داخليا واثنان خارجيا، ومن تلك الفرضية تم الاستنتاج أن تحويل معدن إلى آخر ممكن من خلال إعادة ترتيب هذه الخواص الأساسية. ولهذا فإن هذا التحول بحسب اعتقاد الخيميائيين، سيكون بواسطة مادة سموها "الأكسير". وقد قال البعض أن الأكسير هو مسحوق أحمر لحجر أسطوري (حجر الفلاسفة).يعتقد البعض أن "جابر بن حيان" قد استمد مفهومه لحجر الفلاسفة من معرفته بإمكانية إخفاء المعادن كالذهب والفضة في أشابات(سبائك) واستخراجها منها لاحقا بمعالجة كيماوية. كما كان "جابر بن حيان" مخترع "الماء الملكي" (مزيج من حمض النيتريك وحامض الهيدروكلوريك) أحد المواد القليلة التي تستطيع إذابة الذهب ولا يزال قيد الاستعمال لتنظيف الذهب. اعتقد الأقدمون أن الذهب فلز لا يصدأ ولا يفقد بريقه أو يفسد. وبما أن حجر الفلاسفة قادر على تحويل معدن قابل للفساد إلى معدن غير قابل للفساد فاستنتجوا إنه يستطيع منح الإنسان ذلك المخلوق الفاني الخلود. وأن له القدرة على شفاء جميع أشكال

المرض وإطالة حياة أي شخص يستهلك جزءا صغيرا من حجر الفلاسفة وقد ساد هذا الاعتقاد في القرون الوسطى بالذات.

هل يمكن أن نتتبع جذور تلك النظرية في تاريخ الحضارات القديمة كلها؟

هذا هو السؤال الذي أنفقت ما يقرب من أربع سنوات من عمري في دراسته والحصول على إجابته، كنت أدور في حلقات مفرغة حائرا ما بين اعتقادي القوي أن العلماء الأوائل قد تركوا لنا من العلوم ما هو أكثر من الكتب التي ظهرت إلى العلن، وبين شكى في تلك النظرية التي فندها علماء الكيمياء المحدثين مثل "لافوازيه"و"بلانك" و"برستلي"، كل ما حصلت عليه من مخطوطات كان يتحدث عن طرق الحصول علي "حجر الفلاسفة" و"أكسير الحياة" ولكن السبل كانت كلها مبتورة، هناك شيء ما كان في غير موضعه وكأن بعضهم سار عمدا على تلك الدروب وعمل على أن يفقد كل من يحاول اقتفاء تلك الآثار الطريق نحو الحقيقة.

لامني والدي على إهمالي لعملي كضابط شرطة وغضب أشد الغضب عندما عرف كم الأموال التي أنفقتها على ذلك الهراء.

خضعت لرغبة والدي وعطلت كل أبحاثي وتزوجت فتاة صالحة وإن لم تعوضني عن فقد زوجتى الأولى، الحياة تسير في مسارها المعتاد.. حملت زوجتي وأنجبت ابنتي الذي وقع حبها في قلبي بمجرد أن رأيتها وأطلق عليها أبي اسم "إحسان"، نلت ترقية استثنائية وعشت مستمتعا بالسكينة التي غزت روحي واستعمرتها تدريجيا، ثم رزقني الله بابني "ركن الدين" الذي صار زينة حياتي، حتى جاء ذلك اليوم الذي أبلغني فيه معلم القرية "راغب أندراوس" عن تلك المخطوطات التي سلمها اثنان من المزارعين لقس القرية الأب "باخوم" وأخبرني عن شكه في إنهما يخفيان المزيد من المخطوطات، وبالضغط عليهما أخرجا مجلدا كانا قد قررا بيعه من بين تلك المخطوطات التي وجداها في زلعة بجوار جبل "الطارف"، وعندما طالعت تلك المخطوطات شعرت بالقشعريرة تسري علي طول عمودي الفقري، بمجرد

النظر عرفت إنها مكتوبة باللغة القبطية القديمة وإن لم أفهم المكتوب لأنني كنت غير ملم بتلك اللغة بعد، ولكن الرسومات التوضيحية التي بالمخطوطات جعلتني أقرر أن أحتفظ بها قليلا، وعاد ذلك الحلم يبرز من وسط الركام الذي أهلته عليه، كنت أعرف الكثير عن اهتمامات الشاويش "حمزاوي" بأمور الدجل والسحر فقررت أن أطلب منه أن يعلمني كيفية الدخول في تلك الدروب برفق في البداية، على يديه استطعت أن أجيد قراءة اللغة السريانية والقبطية وبدأت أقوم بترجمة المخطوطات وأدركت إنها قد اقتربت إلى حد غير مسبوق من "أكسير الحياة"، ذلك الراهب الذي ترك تلك المخطوطات والذي سجل فيها أن اسمه "أبشالوم" كان يمارس ذلك الخليط المثير للريبة من السحر والعلم الباطني ومحاول إخضاع الأفكار الفلسفية للتطبيق العملي، مما جعله منبوذا من باقي الرهبان ومتهما بممارسة السحر الأسود ومن جهة أخرى كان الحاكم الروماني لـ"مصر" يضعه مع زمرة الكهنة الذي يطالب برؤوسهم.

بدأ "أبشالوم" المخطوطات بتلك العبارة التي صرت أحفظها عن ظهر قلب:

" يا من تقرأ تلك المخطوطات يجب أن تعلم إنك على أول الدرب المؤدي إلى خرق كل نواميس الكون، ويجب أن تعلم أن الحياة لن تظل كما كنت تعرفها قبل أن تبدأ ذلك الطريق، ولذلك أريدك أن تفكر جيدا لأن الأمر غاية في الخطورة، حتى أنني لم أجد قلبي بالثبات الذي يسمح لي بتطبيق ما جمعته من علوم ممنوعة على البشر، كما لم أستطع أن أحرقها ولكنني تبرأت منها وطلبت الغفران من الرب، نصيحتي لك أن تحرقها فلربما نجحت أنت فيما فشلت أنا فيه"

كان ما في المخطوطات يشرح بدقة التجارب الدقيقة التي قام بها "أبشالوم" على بعض الحيوانات، والمذهل أن تلك التجارب قد نجحت.

لقد بدأ "أبشالوم" تجاربه سيرا على خطى تلك العلوم القديمة التي بدأت ب "هرمس" مثلث العظمة الذي لن يشغلنا الآن حقيقة هل هو

سيدنا إدريس" عند المسلمين أم هو "أخنوخ" عند اليهود أم "أرميس" عند اليونانيين، أم هو شخصية أسطورية صرفة، ولكن يهمنا هنا الأسس التي قامت عليها الحكمة الهرمسية التي تناقلتها الجماعات السرية التي اشتغلت بالعلوم الباطنية منذ أقدم العصور، وتلك الأسس هي:

الخيمياء: تبحث في أمور تتعلق بتحويل المواد الرخيصة مثل الرصاص إلى معدن نفيس مثل الذهب. وتذهب إلى مستوى بحث أمور التحويل الروحي للحياة، والمادي عن طريق دراسة الولادة والموت والعودة إلى الحياة.

التنجيم: زعم بعض الهرمسيين عن "هرمس" أنه تعلم التنجيم على يدي "زراداشت"، فهم يؤمنون أن لحركة الكواكب معان وتأثيرات تتعدى المجال الفيزيائي إذ أنها تمثل فكر الله لذا لها تأثير على الأرض لكنها لا تجبرنا على اتخاذ القرارات، والحكيم هو من يفهم هذه التأثيرات ويتعامل معها بشكل بناء.

السيمياء: وهو السحر الإلهي الذي يعتمد على القدرة الإلهية للتحكم بالطبيعة. وهو عكس السحر الأسود الشرير، والسيمياء مصطلح يعني "علم وفن العمل الإلهي"

وهنا وجدت أن "أبشالوم" قد سار إلى قرب منتصف الطريق من جهة اليمين وعلماء القرون الوسطى ساروا إلى قرب منتصف الطريق ولكن بداية من اليسار، ولكنهما لم يلتقيا أبدا ولهذا كان يجب أن يقوم أحدهم بإعداد وترتيب لقاء بينهم، ولا أعرف حتى الآن هل من حسن الحظ أم من سوء الطالع أن هذا الشخص قدر الله أن يكون أنا.

لقد اقتربت من الحقيقة حتى كادت نيرانها أن تلفح وجهي وتحرق شعر لحيتي، أنا الآن على بعد سنتيمترات من الكشف الذي سيغير وجه العالم كله، والذي قد يقتل الناس بعضهم البعض وقد يدفعون مليارات الجنيهات من أجل امتلاكه.

إن "حجر الفلاسفة" و"أكسير الحياة" لا يمكن أن تصل إليهما معا وهذا هو ما عرقل جهود الجميع في العصور الوسطى، كان العلماء يحاولون الوصول إليهما بنفس السبل ويعتقدون أن أولهما سيجعلهم يتوصلون إلى الثاني، و"أكسير الحياة" لن يستطيع أن يمنحك الخلود ولكنه بالفعل قادرا على القيام بدور الدرع الذي يصد عنك الموت مرات عديدة، ولكنه لن يكون نوعا من السوائل أو المساحيق.. إنه ذلك المزيج المعقد من علم الخيمياء والسيمياء والفلك وعلم الجفر والهرمسية.

كل هؤلاء كانوا يعبثون على حافة الحقيقة ولكنهم لم يجسروا على القفز إلى الهاوية، كلهم اقتربوا حتى كادوا أن يبصروا ولكنهم خافوا أن تحترق عيونهم بضوء المعرفة، "بورميثيوس" قرر أن ينقل المعرفة إلى البشر ولم يهتم بغضب الآلهة.

سأكون أنا "بورمثيوس" العصر وسأغترف من الحقيقة ما يكفي لإرواء ظمئي حتى لو هلكت دون ذلك.

قنا

1951

كنت قد انتهيت من إعداد المختبر، تراجعت إلى الخلف أنظر إلى ما صنعت يداي، لقد استعنت بمجهودات دستة من البنائين المهرة لصنع ذلك المخبأ الذي يقع أسفل القصر بعشرة أمتار ويربط بينه وبين الغرفة السرية أسفله ممر يبلغ طوله الخمسين مترا، "حمزاوي" قال إنه يضمنهم ويأتمنهم على عنقه وقد كان خوفهم من هيبة منصبي الرسمي أفضل تأمين وضمان بالإضافة إلى أننا أجبرناهم أن ما نقوم به هو مخبأ حربي ضد الغارات يقام لصالح جلالة الملك "فاروق"، نحن الآن بالقرب من سفح الجبل أتطلع إلى السماء عبر قبة زجاجية صغيرة علي شكل دائرة تكشف لي السماء المظلمة التي أرى نجومها بكل وضوح، هناك ذلك التليسكوب العملاق الذي أنفقت ثروة صغيرة لشرائه مصوب نحو السماء، وهناك تلك الدائرتين المصنوعتين من الفولاذ ويصل قطر كل منهما إلي المترين وقد يتم تثبيتهما على نظام ميكانيكي يسمح بتدويرهم 360 درجة بواسطة أذرع إدارة غاية في الدقة تبين للمشغل مقدار زوايا الإدارة مع أو عكس اتجاه عقارب الساعة، الدائرة الأولى محاطة بإطار من الرصاص رمز الطاقة السلبية وعدم النقاء والنقصان عند العلماء الأوائل، والدائرة الثانية محاطة بإطار من الذهب الخالص رمز الطاقة الإيجابية والنقاء والكمال، استغرق مني نقش الرموز والطلاسم بالفضة النقية على كلا الدائرتين ما يقرب من الستة أشهر حتى قارنت الرموز التي كتبتها بالسريانية والقبطية القديمة والحروف العربية بالأصل الموجود بالمخطوطات فتطابقت تماما، "الحمزاوي " كان هو الأمين على السر وهو الذي ساعدني في تجميع الأدوات والماكينات وقام بشراء المقادير بالكامل.

مازلت أتذكر ذلك اليوم الذي أعطيته فيه ورقة موضح المواد التي أريده أن يشتريها.

رأيت عينيه تدمعان ونظر لي مشفقا وهو يقول:

- سيدي أنت تعبر الآن حاجز اللا رجعة، تلك المكونات التي طلبتها وتلك المعدات ستشعل فتيل قنبلة قديمة قدم الأزل وستستدعي خدما نائمين منذ قرون طويلة ولن نستطيع إعادتهم إلى سجونهم مرة أخرى.

كنت قد عقدت العزم على الاستمرار في طريقي وقمت بإعداد كل شيء بدقة سيحسدني عليها كل علماء العصور الوسطى، ربتت على كتفه وقلت له في ثقة:

- لا تخشى شيئا لأننا سنهزم الموت نفسه يا صديقي.

استغرق منا ضبط مقادير "الزئبق" و"الكبريت" و"ملح النترات" مدة طويلة بالاستعانة بأجهزة معايرة دقيقة للغاية، ثم جاء وقت توزيع الأربعة عناصر الأساسية على محيط كل دائرة، كان من السهل بالطبع وضع مقدارين من الماء المقطر والتراب النقي في حاويتين مصنوعتين من الفضة وكان يجب أن نقوم بالحصول على مصدر لعنصر الهواء علي محيط كل من الدائرتين ذات الإطارين الرصاصي والذهبي، فاستعنا بمروحتين متصلتين بمحرك يعمل بالبنزين يمكن أن يحافظ على دورانهما معا لأسبوع كامل، بالنسبة لعنصر النار قمنا بتثبيت موقدين صغيرين يشبهان مواقد "بنزن" التي تستخدم في المعامل.

وهكذا كنت أتأمل الآن العناصر الأولية موزعة بانتظام على محيط الدائرتين .

وجاء وقت التجربة التي قام بها الراهب "أبشالوم" في القرن الرابع وتسببت في تصميمه على إخفاء تلك الحقيقة إلى الأبد.

أخرج "الحمزاوي" الفأرين المتشابهين من قفص كان معه وقمنا بتثبيت الفأر الأول بداخل الدائرة الفولاذية المحاطة بالإطار المصنوع من الذهب الخالص والفأر الثاني بداخل الدائرة الفولاذية الأخرى المحاطة بإطار من الرصاص، وبدأت في رصد مكان القمر وكوكبي "عطارد" و"المريخ" وعن طريق جهاز بسيط يشبه "الإسطرلاب" قمت بتحديد الزوايا المطلوبة، وبدأت

في إدارة الدائرتين الفولاذيتين بدقة شديدة قبل أن نتبادل النظرات أنا و"حمزاوي"، وأومأت له برأسي فأخرج مخطوطا احتفظنا به لتلك اللحظة وبدأ يتلو المكتوب عليه باللغة السريانية ومع الوقت بدأنا نستشعر الحضور الثقيل لكيان قديم قدم الأزل جاء ليلبي ذلك النداء الذي سرى عبر القرون العديدة التي تفصل زمننا عن زمن "أبشالوم"، وعندما انتهى من تلاوة العزيمة. أخرجت الخنجر ذا السلاح المدبب واقتربت من الفأر المقيد علي سطح الدائرة المحاطة بإطار ذهبي وأولجت الخنجر ببطء شديد في صدره، فأطلق صوتا حادا والدم يسيل من جرحه في غزارة قبل أن تخمد حركته وأنفاسه تتردد في لهاث وبدأ يسلم الروح.

تبادلنا النظرات قبل أن أنظر إلي عقارب ساعة وضعتها بين الدائرتين، الثواني تمر وأنا أنقل بصري بين الفأرين ومضي من الزمن دقيقة كاملة وشعرت بيأس شديد لفشل التجربة بعد كل تلك التجهيزات، ولكن "الحمزاوي" نكزني بكفه وهو يشير إلى الدائرة ذات الإطار الرصاصي فالتفتت لأجد الفأر السليم يصرخ بصوت رفيع والدم ينبثق من جرح ظهر في صدره فجأة في نفس الموضع الذي طعنت فيه الفأر الآخر.

أسرعت نحو الفأر الذي طعنته لأشاهد ما جعلني أشهق في ذهول، كانت الدماء تنسحب نحو الجرح الذي أصبته به والجرح ذاته يلتئم وبدأ يحاول التحرر من قيوده في نشاط كامل حتى اختفى الجرح تماما، فأسرعت نحو الفأر الأخر لأجده يلفظ أنفاسه الأخيرة والدم ينبثق من الجرح الذي ظهر فجأة.

كنت أراقب احتضاره و"حمزاوي" قد شحب وجهه تماما وتراجع حتى التصق بالحائط وكاد أن يختفي داخله وهو يهتف في صوت ملتاع:

- يا إلهي ما الذي فعلناه؟

نظرت إلي عقارب الساعة وسجلت في مذكراتي:

"لقد مات الفأر "الدرع" بعد دقيقتين من طعن الفأر المراد حمايته، لقد بدأت طريقي للانتصار على الموت".

***

وهنا كان يجب أن أتحرك نحو الخطوة العظمى، يجب أن أنتقل للتجريب على البشر، سأتبرع أنا بلعب دور الهدف المطلوب حمايته ولكنني لن أرقد في محيط الدائرة الذهبية، سأترك معادلا لجسدي داخلها عبارة عن عينة من دمي معالجة بأسلوب معقد وعبارة عن "تشفير" اسمي وبياناتي الشخصية في رموز خاصة، سيكون مثل وصلة لاسلكية بيني وبين الدائرة الذهبية التي سأطلق عليها "دائرة الهدف" ودائرة الدرع الرصاصية، تلك التجربة ستحتاج إلى شخص سيتم التضحية به وهي مهمة ليست باليسيرة لأنني لست بالقاتل المتحجر القلب، لن يمكنني أبدا أن أضحي بحياة بشرية مقابل نجاح تلك التجربة.. مستحيل.

عند تلك النقطة تركت التجربة وابتعدت عن المعمل لأنني أدركت أن استكمالها أصبح دربا من دروب الخيال.

حتى جاء ذلك اليوم، كنا نحقق وقتها في قضية مروعة أثارت ذعر المحافظة كلها، كان هناك لص قد اقتحم منزل أحد الأثرياء لسرقة ما خف حمله وغلا ثمنه، إلا أن الأمور قد تطورت واضطر إلى التخلص من كل أفراد الأسرة طعنا بالسكين، جاءت الخادمة صباحا وفتحت الباب لتجد أمامها المذبحة الرهيبة، الأب والأم وستة من أبنائهم تتراوح أعمارهم ما بين تسعة عشر عاما وخمسة أشهر وقد تم نحرهم من الأذن إلى الأذن، لقد تملكت شهوة الدم من اللص وذبح طفلا رضيعا في مهده، المعمل الجنائي وجد نصل سكين محطم في جسد أحد الضحايا، وكان هذا دليلا على قسوة وعنف القاتل في توجيه الطعنات، لقد تحطم السكين الذي جلبه معه فذهب إلى مطبخ المنزل وانتقى سكينا حادة وعاد ليستكمل مهمته القذرة، لقد طعن كل ضحية ما بين الست طعنات والتسع طعنات، حتى الطفل الرضيع كان جسده ممزقا تماما، طلبت القيادة السياسية أن يكون

للتحقيق في تلك القضية التي عرفت باسم "سفاح بطن الجبل" أولوية قصوى، ووعدتهم أننا سنصل إليه في أقل من أربع وعشرين ساعة، وقد كان فقد تمكنا بعد حصار القرية وتفتيش بعض منازل المشبوهين من تضييق الخناق حوله وإلقاء القبض عليه، وعندما جاءوا به مكبلا بالأصفاد إلى مكتبي وجدت نفسي أتطلع إلى ملامحه الباردة في كراهية ومقت شديد، كان طويل القامة ممتلئ الجسد يرتدي جلبابا قذرا وقد بدا بضخامته ووجهه النامي اللحية في كثافة وشعره الثائر حول جانبي رأسه كالغوريلا.

كان المخبرون قد زينوا وجهه بما يستحقه من أنواع الجروح والكدمات المختلفة مما قد زاده قبحا فوق قبحه.

كان يقف في ثقة كاملة يتطلع إلى في صلف وكبرياء، أشرت لهم أن يخرجوا ويتركوني معه بمفردنا لأنني لن أقف في مواجهة مخلوق كهذا كل يوم، تركوني بعد لحظات من التردد فوقفت مواجها له واقتربت منه وأخرجت علبة السجائر فنظر إليها في جوع، أخرجت سيجارة ووضعتها في فمه لأن يديه مقيدتين إلى قدميه بأغلال ثقيلة وأشعلت له السيجارة، بدأ يسحب الدخان إلى رئتيه بسرعة وشراهة فقلت له:

- اسمك " جابر الدوعكي"؟

- "الدوعكي".

قالها واستمر في تدخين السيجارة وهو يتطلع إلى بنظرات لزجة شعرت بها تلوث ملابسي.

قلبت كفاي في حيرة وقلت:

- أنت هجام محترف لن أناقشك في تلك النقطة، تسللت إلى المنزل وبدأت في جمع الأشياء الثمينة فوجئت باستيقاظ الأب فطعنته وقاطعت الأم مهمتك فطعنتها وهذا أيضا لن نناقشه.

واقتربت منه لأتطلع إلى عينيه اللتين لم ترمشان ولو لمرة واحدة منذ دخل إلي مكتبي فبدت كعيني سمكة باردة ثلجية وتمالكت نفسي بقدر المستطاع لأقول له في هدوء:

- لماذا ذبحت ومزقت الأطفال الستة بتلك الطريقة البشعة؟

- لقد قتلت شخصين، والأطفال انتهوا لوجودي، كنت لا أريد شهودا وقلت لنفسي أن من يقتل واحدا يمكنه أن يقتل عشرة وفي الحالتين سيتم إعدامي مرة واحدة.

- ولماذا كل هذا العدد من الطعنات؟

- لا أتذكر.. شعرت أنني أريد أن أفعل هذا ففعلته.

تأملته في غير تصديق

مخلوق خرافي لم ألتقي من قبل - رغم كل خبرتي التي اكتسبتها خلال عملي بالداخلية - بمثيل له.

قلت له في برود:

- قلت إنك كنت تريد التخلص من الشهود، ماذا عن الطفل الرضيع الذي ذبحته ومزقته بطعناتك؟

مط شفتيه ليقول في لامبالاة:

- أشفقت عليه أن يعيش في تلك الدنيا وحيدا بدون أب وأم

رأسي يدور

هناك طنين يتصاعد في أذني

بدأت أشعر بتصاعد العصارة من معدتي إلى بلعومي فضممت قبضتي ولطمته بأقصى قوتي لأحطم أنفه وأفجر منها الدماء فارتج في مكانه قبل أن يتكوم أرضا ككومة قذرة من الروث.

وضربت الفكرة رأسي كالبرق.

استدعيت أحد العساكر الذي نظر للمجرم الساقط أرضا فقلت له في صرامة:

- هذا الكلب العقور أريده أن يقضي ليلته في الزنزانة رقم اثنين بمفرده، انقلوا كل المحتجزين إلى الزنزانة رقم واحد واحرصوا على أن تتأكدوا من متانة قيوده وأريدكم أن تغطوا رأسه بغطاء أسود.

حملوه حملا إلى زنزانته.

قمت باستدعاء "حمزاوي" وتأكدت من إغلاق باب المكتب وقلت له همسا:

- لقد وجدت أخيرا من سنقيده داخل الدائرة الرصاصية، وجدت الدرع.

وكانت خطتي هي أن يتسلل "حمزاوي" تحت جنح الظلام ليهدم الجدار الخلفي للزنزانة رقم اثنين، وسيفقد الوغد الزنيم الوعي لنحمله حملا إلى المعمل داخل سيارتي التي سأنتظره بها على بعد أمتار، وسيتم التحقيق في شأن هدم مجهولين لجدار الزنزانة وتهريب سجين على قدر عال من الخطورة، وسوف يتم اتهام المطاريد.

خدرناه وثبتناه مقيدا علي محيط الدائرة الرصاصية وقمت بكتابة العزيمة وشفرتي على سطح الدائرة الذهبية وقررت أن أبدأ التجربة في اليوم التالي، قررت أن أصطحب قوة لأهاجم الجبل الشرقي لإلقاء القبض على عدد من الفارين من تنفيذ الأحكام، والذين وصل بهم الفجر إلى احتلال عدد من منازل الفلاحين والعيش بها عيانا بيانا وكان يقودهم وقتها مجرما عتيدا يدعى "عزت دهلوك".

طلب مني رجالي أن أرتدي الدرع المضاد للرصاص فرفضت بحجة إنه سيقيد حركتي، ابتسمت ونظرت إلي "حمزاوي" الذي بادلني النظر في قلق لأنه يعرف أنني أعرض نفسي لخطر رهيب وأقوم بتجربة جهنمية بدون أية ضمانات لنجاحها.

كنت في مقدمة الصفوف رغم محاولات جنودي أن يتقدموني وضربت لهم أروع أمثلة الفداء والتضحية، تحول المشهد إلى قطعة من الجحيم وتبادلنا إطلاق الرصاص مع المجرمين وحدث أن تلقيت عدة دفعات من الرصاصات.

أظلم كل شيء أمامي وأدركت أن التجربة فشلت.. فقدت الوعي واستيقظت وأنا أصرخ في ألم رهيب لأجد أنني جالس على فراش ملوث بالدماء في المستشفى المركزي، كان الأطباء والممرضون يحيطون بي ويتطلعون إلى في ذهول وعندما تتبعت موضع نظراتهم وجدت تلك الثقوب الدامية التي تنتشر على جذعي وقد بدأت الرصاصات تخرج منها لتتساقط أرضا في مشهد مستحيل.

ظللت أحدق في الثقوب التي تخلفت عن إصاباتي وهي تندمل تدريجيا حتى اختفت تقريبا.

كنت أتحسس موضع إصاباتي في غير تصديق

- الله أكبر.. الله أكبر.. إنه ولي من أولياء الله

سمعت الصياح المبتهج بصوت أحد الممرضين. في حين انخرط بعض الأطباء في البكاء وبدأوا يتحسسون جسدي ليتأكدون مما حدث.

قبل أن يبدأ الجميع في الانحناء لتقبيل كفي في تبجيل

صيحاتهم كانت ترج أروقة المستشفى رجا

- الله أكبر.. الله أكبر

- إنها علامات الولاية

- عصر المعجزات لم ينته

- إنه سيدنا "علوان"

- إنه أبو الكرامات.

وعندما ذهبنا إلى المعمل وجدنا جثة "الدوعكي" ممزقة وهناك العديد من الثقوب الدامية قد انتشرت على جذعه.

.

.

لقد هزمت الموت.

***

1955

صار لقبي هو "أبو الكرامات" رسميا، كان الكل يشير نحوي ويبتسم، بسطاء الناس كانوا يسرعون ليقبلون يدي كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، لقد تسرب خبر لفظ جسدي للرصاصات إلى كل كبير وصغير في القرية.

هل أحببت ما حدث؟ أم كرهته؟

في تلك المرحلة كنت في حالة انعدام وزن كاملة، كنت أمارس عملي بآلية جسد بلا روح، ما حدث قد ترك أثرا ما في أعماق نفسي وشعرت بأن أحدهم قد قام بتسخين خاتم معدني إلى درجة الإحمرار ودمغ به أعماق روحي، حاولت كثيرا أن أقنع نفسي أن روحي ما زالت نقية لم تتلوث بروح "الدوعكي" الدنسة، فالروح شيء طاهر مقدس، قضيت فترة طويلة أشعر باكتئاب ولزمت غرفتي بعيدا عن زوجتي وعن "إحسان" ابنتي الكبرى و"ركن الدين" ابني الأصغر.

ولكن "حمزاوي" هو الوحيد الذي سمحت له باقتحام عزلتي، كلماته ونقاشنا معا كان له دور كبير في عودتي لحالتي الطبيعية.

قال لي عبارة مازلت أذكرها:

- لنفترض يا سعادة الباشا إنك - لا قدر الله - تعرضت لحادث سيارة وكان يجب أن يجدوا لك من يتبرع بالدم، وهنا تقدم شخص مثل

"الدوعكي" ليتبرع لك بلتر من الدم، فهل هذا يعني أن جسدك سيتأثر بدم هذا القاتل.

قلت له في استسلام:

- لا.

ربت كتفي ليقول:

- هو نفس الشيء يا سيدي.. هو نفس الشيء، من هو هذا الخنزير؟ من الذي سيبكيه؟ بل هل سأل أحد عنه منذ أن ادعينا هروبه حتى قمت بدفن جثته في الجبل؟

لقد أنقذنا حياة غالية وستواصل تطهير الأرض من دنس هؤلاء المجرمين.

سارت بنا الحياة كعادتها منذ الأزل، نمر بأيام قليلة من الفرح نعتقد أننا لن نحزن بعدها أبدا يليها أيام كثيرة من الحزن، تنسينا الفرح الذي عشناه ونعتقد أننا لن نفرح بعدها أبدا. هل تريد أن تتحدث عن الحزن؟

حسنا لقد كنت أمر وقتها بأتعس أيام حياتي، كانت ابنتي "إحسان" تعاني من مرض سرطان الدم في مرحلة متأخرة، وقال لي الأطباء بطريقة غير مباشرة إنهم استنفدوا كل محاولاتهم لمنع انتشار المرض.

حاولت زوجتي اللجوء للدجالين ولكنني لمتها وعنفتها. وهنا تذكرت جبروت وإجرام العمدة "أبو راجح" وتذكرت تهديدي له بالهلاك وقررت أن الوقت قد حان لتنفيذ جانب آخر من التجربة، وطلبت من "حمزاوي" أن يحاول الاتصال بمن يعرفه من خدم قصر"أبي راجح" فكل ما أريده هو عينة من دمه من ماكينة حلاقة مستعملة مثلا، وقد كان فأصبح عندي الآن عينة من دمه ومن بياناته الرسمية استطعت معرفة اسمه بالكامل واسم والدته وتاريخ ميلاده وصنعت الشفرة المطلوبة وكتبتها داخل الدائرة الرصاصية في المعمل، واستخدمت مخدر بسيط في تخدير ابنتي "إحسان" قبل أن أثبتها داخل الدائرة ذات الإطار الذهبي.

وعندما تسلل المرض اللعين إلى جسد العمدة ليفترسه في شراهة خلال أسبوع ووقف الأطباء عاجزين عن التفسير، كانت زوجتي تبكي في غير تصديق عندما عادت إليها ابنتنا سليمة وقد غادرها المرض اللعين إلى الأبد.

تذكر الخدم تهديدي له بانتقام السماء وتذكروا دعوتي التي خيل لهم أن السماء قد استجابت لها.

تناقلت الألسن تلك الكرامة ومع موت العمدة وقبل أن يواروا جثته التراب وجدت ابنه على عتبتي يبكي ويطلب مني العفو والسماح وهو يقبل قدمي ويعرض علي أن يعيد كل الأراضي التي اغتصبوها من الفلاحين في التو واللحظة، وجاء شيخ الخفر ومعه عشرات من عقود تملك الأرض التي أخذها من الفلاحين بالضغط والتهديد وبثمن بخس.

وتوالت وفود المرابين وآكلي أموال اليتامى والمقسطين في الموازين وكلهم يبكي بكاء مرا ويعلن توبته وهو يقبل يدي ويطلب مني السماح والعفو.

وتمكنت أسطورة سيدنا "علوان" في قلوبهم وخاصة عندما بدأت ابنتي في الظهور بلا أية آثار للمرض وبدأ الكل يتحدثون عن سيدنا "علوان" الذي يشفي المرضي ويبرئ الأسقام.

1960

لا أستطيع أن أتذكر الآن عدد من قمت بشفائهم ولا عدد من استخدمتهم كدروع حية، ولكنني كنت أتناقش مع "الحمزاوي" قبل كل خطوة وكنا نقرر بعد ساعات من الحوار من يستحق الموت ومن يستحق الحياة، كنا نقوم بحملات مستمرة على مخابئ المطاريد ونقوم بصيد العينات البشرية التي سنستخدمها كدروع تثبت بالدوائر الرصاصية، وعندما يلقون مصرعهم كان يقوم بدفنهم في الجبل وهنا بدأت تلك الكيانات تسعى بلا هدى في الدروب الجبلية وكثيرا ما غادرت الجبال لتثير ذعر السيارة أو ليلمحها زبائن قهوة "عتوقة" وعندما راجعت أوقات ظهور

تلك الكيانات تأكدت أن مواعيد ظهورها هي نفس المواعيد التي قام فيها "الحمزاوي" بدفن الجثث. وانهمكت في دراسة عدد كبير من المخطوطات حتى عرفت أن الدفن الغير لائق لتلك الجثث التى استخدمت لأول مرة في تاريخ البشرية المكتوب كدروع حية ينتج عنه تسرب كيانات شاذة تختلف تماما عن تلك الأشباح التي لم تعد تثير ذعر الأهالي، ودرست جيدا الطريقة التي يمكن بها القضاء على تلك الكيانات باستخدام وصفات وتجهيزات مستخرجة من أقدم خبرات "الخيمياء" و"السيمياء" التي مارسها البشر منذ الأزل. وقد قدمت عرضا سحريا مثيرا أمام الجموع المذهولة بعد فشل الدجال الملعون "فودة" في التخلص من تلك الكيانات.

1961

قررت أن نقوم ببناء معمل جديد نقوم باستخدامه بعيدا عن المعمل الذي استخدمناه كثيرا أسفل القصر، وكالعادة تولى "الحمزاوي" كل مهام توفير العمالة واستقدام الفنيين واتفقنا على استخدام مغارة جبلية مهجورة كان يستخدمها المطاريد.

الجزء التالي موجه لابن دمي والمختار لاستكمال رسالتي في تنقية الأرض من كل النباتات الضارة للسماح بنمو الصالح من الأشجار ذات الثمار النافعة، لتعلم يا بني الحكمة التي تعلمتها بعد التعامل مع تلك الخبرات المروعة كل تلك السنوات:

نحن لا نخرق قوانين الكون كما كنت أعتقد.

نحن لا نهزم الموت كما كنت أظن، فالموت خلق لينتصر ويمرر نصله على كل أعناق العباد، نحن فقط اكتشفنا قانونا جديدا من قوانين الكون كان موجودا منذ الأزل يقوم بتأجيل الموت قليلا فقط، لقد اكتشف "جوزيف برستلي" غاز الأكسجين، فماذا كان البشر يتنفسون قبل اكتشافه؟

هل تعرف تلك الدعابة؟

لقد اكتشفت معارف لا حد لها ولا حصر يا بني وعرفت الكثير من القوانين واستطعت التحكم في خواص عديدة لعناصر الكون، وتحولت إلى نصف إله، أنت الآن تقرأ مذكراتي وهذا يعنى أن رحلتي ضد الموت قد انتهت بانتصاره كالعادة، سيتحمل "حمزاوي" المسئولية ومن بعده سيكمل المسيرة من سيستأمنه على السر لكي يصبح قيما وأمينا على هذا المكان ليعده ويجهزه من أجلك.

أنت الآن يا بني على أول الطريق الذي بدأته ويمكنك أن تنسحب الآن ولا تستكمل مسيرتي، ولكنك إذا قررت إنك أهل لتحمل تلك المسئولية وحمل تلك الرسالة فستعبر الآن إلى قدس الأقداس، إلى المعمل الذي بدأت به أسطورتي.

لا تتعجل فكر مليا واستفت قلبك.

يمكنك أن تغادر مكانك ومع خروجك سيتم تفعيل عدادا تنازليا سيترك لك مدة شهر كاملا للتفكير وبعدها سيتم غلق الباب إلى المعمل إلي الأبد لتختفي تلك التجربة تماما.

انتهت المذكرات

25 من مارس 1961

علوان عوف الأصيل

لم يتمكن "أمجد" من استعانة توازنه إلا بعد كوبين من القهوة المركزة وعلبة سجائر كاملة، وقام بإخراج شطيرة لحم من المبرد ووضعها في فرن الموقد قليلا قبل أن يتناولها في جوع، وجلس في صمت تام لنصف الساعة وهو يحاول أن يرتب تلك الأحداث في ذهنه ويضع لها خطا زمنيا، كل الأحداث بدت متسقة مع بعضها البعض وكل تلك القصص تقاطعت حتى اكتملت كل الصور أمامه مع ترتيب كل قطع البازل المراوغة.

وترددت عدة عبارات في ذهنه

" اقرأ فإن حياة واحدة لا تكفي"

"سأخرج من تلك القضية التافهة بأسرع مما تتصور لأجعلك تعلم حقيقة تلك الأوهام التي يحيطون بها جدك الدجال الملعون"

"الله أكبر.. إنه حفيد سيدنا (علوان).. الله اكبر"

.

.

بدأ يضحك في خفوت قبل أن ينفجر ضاحكا في جنون وهو يخفي وجهه بين كفيه ليهمس لنفسه:

- تلك هي أسطورتك يا سيدنا، تلك هي الخدعة التي عبثت بها بعقول أجيال كاملة.

وتطلع إلى جهاز الحاسب وقد قرر أن يتأكد من تقاطع تلك العلوم البائدة مع العلم الحديث.

وأمام متصفح بحث قضى ساعات في مطالعة عشرات من المواقع والمراجع وكان مما لفت انتباهه مرجعا علميا يتحدث عن ظاهرة "الكوفيد":

متلازمة "كوفيد" هي اضطراب يصاب به الرجال نتيجة التأثر بزوجاتهم في بداية فترة الحمل، ويصاحبه مجموعة من الأعراض التي تشبه أعراض الحمل الطبيعي لدى النساء وتنتهي بمجرد وضع المرأة لجنينها، ويقول العلماء إنه حتى الآن لا يوجد تفسير دقيق لحدوث هذا الأمر إلا أنهم يرجحون أن الجهاز "السمبثاوي" عند الرجل – أحد فروع الجهاز العصبي – يتأثر بحمل الزوجة، وكأنه يعمل بتناغم مع نظيره الموجود عند شريكة الحياة، حيث يفسر ذلك معاناة بعض الأزواج من الآلام لدى بدء المخاض عند الزوجة.

ويشير د/"مصطفى عصام "استشاري أمراض النساء والولادة إلى إمكانية تعرض بعض الرجال لما يطلق عليه أعراض «كوفيد»؛ حيث يتغير مستوى الهرمونات كال"تستستيرون" الذكري، وقد أظهرت الدراسة أن من 10 إلى 65 في المائة من الرجال قد تظهر عليهم بعض أعراض الحمل.

ويضيف د/"عصام" أن الظاهرة لها تفسير نفسي أكثر منه علمي بمعنى أن الأمر يرتبط مباشرة بإحساس الزوج المفرط بالتوحد مع الزوجة، وبالتالي يشعر بذات الأعراض التي تعتريها، وذكر د/"هاني القاضي" الأستاذ المساعد بكلية الآداب قسم علم النفس جامعة "عين شمس" أن المشاركة النفسية أيضاً لها دور بارز في هذه المسألة، خاصة أن نفسية المرأة أثناء الحمل والولادة تكون هشة للغاية، وبحاجة إلى دعم نفسي ومعنوي كبير، لذلك ونتيجة لحب الزوج المفرط للزوجة والخوف عليها مما تعانيه من الآلام فقد يُصاب إيحائياً بأعراض مشابهة لما تعانيه زوجته الحامل.

كما أوضحت دراستان أخريان إحداهما كندية والثانية أجرتها الأكاديمية العلمية الأمريكية لصحة الأم أن عدداً من الرجال تتأثر هرموناتهم خلال فترة حمل زوجاتهن بما يُطلق عليه «الحمل التعاطفي لدى الرجال»، كما أن الأزواج قد يعانون بعض أعراض الحمل مع زوجاتهن وقد

يصابون بأعراض الاكتئاب، وأعراض متلازمة "كوفيد"هي نفس أعراض الحمل الطبيعي وتكون كالتالي:

تقلص العضلات ووجع الظهر واضطراب المزاج وزيادة الشهية للأكل والشعور بأعراض الوحم والإعياء الصباحي والأرق وقد يعاني حتى من انتفاخ البطن الذي يشبه بطن الحامل.

وهناك تلك الحالة التي سجلتها الدوريات الطبية عن حالة التوأم "صوفي" و"ميجان ووكر" (11 عاما) كانت الفتاتان متطابقتان تماما، حتى أنهما تفعلان كل شيء معا، ولديهما أذواق متطابقة وتحصلان على درجات متطابقة أيضا في المدرسة، ولكن عندما بدأ وزن" ميجان" بالانخفاض، وأصبحت شاحبة ومنهكة ودائمة الغثيان، بدت "صوفي" على ما يرام، وهو ما جعل والداهما يشعران بالقلق فاتجها للأطباء وعقب الخضوع للفحوصات، لم يجد الأطباء أي مرض تعاني منه "ميجان"، وهو ما جعلهم في حيرة من أمرهم الوالدان اكتشفا أن "صوفي" كانت مصابة بالسرطان، إلا أن أعراض المرض ظهرت على "ميجان"، وجاء ذلك عندما بدأت حالة "صوفي" تسوء أيضا وقد انخفض وزن التوأم من 40 كيلوجراما إلى 35 كيلوجراما، وتم العثور على "ورم ويلمز" في كلية "صوفي"، وهو الورم الكلوي الخبيث الأكثر شيوعا لدى الأطفال، وفي حين كانت "ميغان" تواجه أعراض المرض، كان الورم في كلية "صوفي" قد نما إلى حجم كبير. ولكن العلماء لم يتوصلوا حتى الآن إلى تفسير علمي واضح لظهور أعراض مرض ما على أحد التوائم فيما يكون الطرف الثاني هو المصاب به فعليا تمت إزالة الورم السرطاني إلى جانب الكلية اليسرى لـ"صوفي" خلال عملية جراحية استغرقت سبع ساعات، وبدأت الطفلة في تلقي العلاج الكيميائي الذي ويؤكد الأطباء أن الفتاة ستتعافى تماما خاصة أن فرص الشفاء من هذا النوع من السرطانات لدى الأطفال تبلغ 85%.

ووجدت مقالا يقوم بتحليل الرواية الفارقة التي كتبها "ستيفن كينج" وتحولت إلى فيلم سينمائي مشهور عام 1999، "جون كوفي" المتهم ظلما

بقتل فتاتين صغيرتين، الذي كان يتمتع بهبة إلهية استطاع بها أن يشفي المرضى ويمتص السقم من أجسادهم، هناك هذا المشهد المهيب الذي استطاع فيه أن يمتص المرض الذي كاد أن يفتك بزوجة المأمور، ونقله إلى الضابط السادي المجنون.[1]

كل المراجع تتحدث عن تلك العلاقات العجيبة بين التوائم ولكن العلم لم يتحدث من قبل عن تلك "الدروع البشرية" بالمعني الحرفي للعبارة. وعندما يتوقف العلم أمام ظاهرة ما فيجب أن تتأكد أن الدجل والشعوذة قد أصبحا هما المتحكمان في كل الأمور.

كان هناك رافعة صغيرة الحجم تحتل جزءا من الجدار المقابل له وتدعوه لدخول ذلك المعمل السيميائي الملعون. ولكنه التفت نحو الفجوة التي عبرها والتي اختفت بعد دخوله فوجدها كما هي فتأمل المكان حوله في مقت وخرج بدون تردد.

[1] (*) متلازمة (كوفيد) وحالة الفتاتين "ميجان" و"صوفي" حقائق تسجلها المراجع العلمية الرصينة.

عندما تقترب من الحقيقة إلى هذا الحد فلا تتوقع أن تنصرف في هدوء، لأن القائمون على حمايتها قد لمحوك تسترق النظر، وعندما تتقدم بإرادتك من أمواج البحر فلا تتوقع أن ترحل دون أن تبتل قدميك.

28- قرية العلوانية

الرحمانية قبلي

30نوفمبر 2005

العاشرة مساء

وقف الصول "فهيم" والقلق يبدوا في عينيه يتطلع إلى وجه "أمجد" الشاحب ولحيته التي نمت إلى حد كبير وقد وقف في صمت بجوار ابنة عمته "سلوى" التي كانت دامعة العينين تكاد تلتصق به وقد بدا الخوف في عينيها.

همس "فهيم":

- والدي شيخ هرم يا سعادة الباشا ولم يعد يحتمل السهر فلا يمكن أن تقابله الآن، يمكنك أن تقابله في المسجد الكبير بعد صلاة الفجر.

رمقه "أمجد" بعينين ميتتين فبل أن يقول في برود:

- سندخل لنلتقي بالشيخ "حمزاوي" الآن يا "فهيم".

قرأ "فهيم" في عينيه غضب مكتوم وثورة ستندلع فقدر الموقف وهز رأسه في استسلام وهو يدس مفتاحه في رتاج الباب الخشبي العتيق ليديره ويسمح لهم بالدخول.

مع إضاءته للمصباح الكهربي تطلعا إلى الأثاث المتداعي لغرفة معيشة عتيقة ليشير لهما بالجلوس وهو يقول في حرج:

- المنزل لا يناسب مقامكم الكريم، ماذا تحب أن تشرب يا جناب الباشا؟

ظل "أمجد" صامتا يتطلع إلى اللاشيء.

فأسرع "فهيم" ليدخل إلى غرفة يفصلها عنهم باب صغير وغاب قليلا قبل أن يخرج والشيخ "الحمزاوي" يستند إلى ذراعه وقد أغلق عينيه حتى اعتادت عيناه الضوء واتسعت ابتسامته وسط ملامح وجهه المتغضنة ليقول:

- لقد زارنا النبي، مرحبا بك يا غالي يا ابن الغالي، مرحبا بك يا ابنة سيدتنا وتاج رؤوسنا.

عاونه "فهيم" على الجلوس مواجها لـ"أمجد" و"سلوى".

- انتظرنا في الخارج يا صول "فهيم".

قالها "أمجد" بصرامة وحدة، فتبادل "فهيم" نظرة مع والده قبل أن يتراجع نحو الباب ويخرج في صمت.

- هل قرأت المذكرات كلها يا ولدي؟

قالها "الحمزاوي" بصوت خافت وبدون مقدمات، مما جعل "أمجد" يلتفت نحوه في حدة ويتأمل ملامحه العجوز لثانية قبل أن يشيح بوجهه ويلزم الصمت.

- الغضب يستعمر روحك ويصول ويجول في دروبها يا بني، لو فقدت السيطرة على مقود عربتك ولو لثانية واحدة سترتكب من الأخطاء ما قد يجعلك تندم طيلة حياتك.

ابتسم "أمجد" ليقول:

- هل أنت المسئول عن تزويد الغرفة السرية بالطعام والكهرباء وشبكة الإنترنت؟

- سنتحدث بصراحة وبدون ألغاز يا بني، لم أجد من أعهد إليه بسر الباب الخلفي للغرفة سوى "فهيم" ابني، ولكنه لا يعرف أية معلومات أخرى.

همست "سلوى" وسط دموعها:

- عم "حمزاوي" أنا لا أصدق حتى الآن ما يقوله "أمجد".. أرجوك.. أتوسل إليك، قل له إنه لم يفهم الحقيقة بالكامل، قل لنا أن جدي كان رجلا صالحا ووليا من أولياء الله بالفعل ولم يكن دجالا مشعوذا.

انتهت من حديثها وعادت للبكاء الحار وهي تخفي وجهها بكفيها.

فرفع كفه نحوها في حنان وهو يقول:

لقد كان رجلا فريدا وعبدا من عباد الله الصالحين، خيره العميم وأوقافه الخيرية تنفق علي أغلب بيوت فقراء القرية والقرى التي حولها.

هز "أمجد" رأسه ليقول في غضب:

- لقد سلك دروبا ملعونة وخاض حتى العنق في مستنقعات آسنة لعلوم شيطانية محرمة، جدي لو عاش في العصور الوسطى لقاموا بربطه إلى عمود خشبي وحرقه حيا لممارسته السحر والدجل.

- سيدنا لم يكن دجالا، وإلا كان يجب أن تذكر كتب التاريخ أن "جابر بن حيان" و"ابن سينا" و"ابن النفيس" وغيرهم كانوا دجالين، كل هؤلاء وعشرات غيرهم سعوا وراء امتلاك "حجر الفلاسفة" و"أكسير الحياة"، وأفنوا حياتهم في سبيل مسعاهم لينتهوا إلى الفشل ولم يقال عنهم إنهم عملوا بالدجل والشعوذة.

وصمت قليلا ليلتقط أنفاسه قبل أن يردف:

- نحن نتحدث عن علماء وصلوا إلى منتصف الطريق ونقول إنهم من أعظم علماء العرب.. بل من أعظم علماء العالم، فماذا .. فماذا عن الذي وصل إلى نهاية الطريق ليسجل أول نجاح في تاريخ الكون لتجربة "أكسير الحياة".

أشار إليه ليقول:

- العلماء لم يقوموا بتقديم قرابين وأضاحي بشرية لقوي ظلامية من أجل نقل الضرر من جسد إلى جسد، العلماء لم يخلطوا الفلك بالتنجيم بالسحر والخيمياء والسيمياء في هذا المزيج المسموم الذي لا يقبله عقل ولا منطق ولا دين.

- لم نقدم أية أضاحي أو قرابين يا بني، لا تقم بلي عنق الحقيقة، لقد شرح لك جدك الصورة بالكامل، نحن ننقل الضرر من روح طيبة إلى روح خبيثة، ماذا كان العالم سيستفيد من السفاح الذي استخدمناه كدرع في المرة الأولي؟ لقد كان فاقدا للأهلية، كان سيحاكم وسيعدم وستنتقل جثته إلى كلية الطب ليستخدمها الطلاب في تدريباتهم على التشريح.

هل شاهدت كم المظالم التي تم ردها عندما شاهدوا الطاغية "أبا راجح" يهلك أمامهم.

صاح "أمجد" بغضب شديد:

- كيف يصل بكم الشطط والتطرف إلى أن تتألهوا على الله؟ هل اطلعتم على الغيب وعرفتم أن "الدوعكي" و"أبو راجح" لن يتوبا إلي خالقهم قبل موتهم؟

خفض الشيخ عينيه إلى الأرض ليقول في خفوت:

- كل حرب يلزمها العديد من الضحايا يا بني، قارن الذي أضافه سيدنا إلى العالم بالخسائر التي خلفناها ستجد أننا كنا على حق، لقد ضحينا بحياة حفنة من القتلة والمغتصبين والأوغاد من أجل الحفاظ على حياة الأخيار ومن أجل شفاء نفوس خيرة وعبادا صالحين من عباد الله.

- لقد اخترقتم كل القوانين التي تنظم حركة الكون، وحطمتم تابوهات كان يجب أن تظل قائمة مصانة بعيدا عن العبث.

رفع الشيخ رأسه ليقول في بطء:

- هل تعرف كم الاعتراضات الدينية التي انطلقت عندما نجح العلماء في نقل الدم من سليم إلى مصاب؟ هل رأيت تلك الفتاوي التي حرمت نقل الأعضاء لأن ذلك يعد تدخلا في أعمار البشر التي قدرها الله؟

كان "أمجد" قد مل من الصراخ فأشعل سيجارة قبل أن يقول:

- أنتم خاطبتم خدما قائمين على هذه التجربة، يأتمرون بأوامركم وتلك الطلاسم المنقوشة على الدوائر الرصاصية والذهبية أليس كذلك؟

- لن أنكر ذلك ولكنهم مسلمين موحدين مسخرين منذ قديم الأزل لخدمة هذا الأسلوب.

- خدما من الجن وطلاسم سحرية مكتوبة بالسريانية وعينات من الدم تستخدم ك"أثر" ليقتفيه الخادم.. هذا ما تطلق عليه كل الأديان سحرا أسودا.

هز سبابته ليقول في كبرياء:

- كل هذا نطلق عليه "السيمياء" و"الخيمياء" و"الفلك"، تلك هي العلوم التي أنقذت حياة جدك مرات عديدة.

وقطع عبارته ليشير إلى "سلوى" قائلا:

- تلك هي العلوم التي أنقذت والدتك من الموت يا بنيتي.

أشعل "أمجد" سيجارة أخرى ليقول في إصرار:

- منطقكم يناقض نفسه ويأكل بعضه، أنت تقول إن تلك التجربة الملعونة حققت الخير والسعادة للبشر، فلماذا احتفظ جدي بأسرارها بعيدة عن الناس، ولماذا شعر الراهب "أبشالوم" بالرعب عندما شاهد نتيجة ما توصل إليه؟

- لاحظ يا بني إنه لم يحرق المخطوطات بل احتفظ بها من أجل الأجيال القادمة، وهذا ما فعله جدك، لقد ترك لك هذا التراث لتظل تلك الأسرار خاصة بنسل "علوان" فقط.

- كيف لقي جدي مصرعه، هل خرج في حملته الأخيرة بدون أن يترك درعه داخل الدائرة الرصاصية؟

دمعت عينا الشيخ وهو يقول:

- لقد قمنا بإعداد الأمر جيدا وبكل دقة مثل كل مرة ومع سقوطه مصابا انتقلنا به إلى مكان آمن ونحن متأكدون أن جسده سيلفظ الرصاصات ولكنه أسلم الروح وسط ذهولنا جميعا.

فأسرعت في هلع نحو المعمل الذي قمنا بتجهيز الدرع داخله في تلك المغارة وهناك رأيت النار تلتهم ما تبقى من أجهزته، لقد استطاع بعضهم الوصول إلى المعمل وقتلوا الدرع وحرقوا المعمل وهكذا صار سيدنا عاريا أمام رصاص أعدائه.

- ولم تعرف حتى الآن من الذي فعلها؟

هز الشيخ رأسه في أسف.

نهض "أمجد" وأشار لـ"سلوى" فنهضت بدورها ليقول:

- هل تعرف ماذا سأفعل الآن؟ سأتجه إلى المسجد الكبير وسأصلي العشاء وأتناول مكبر الصوت لأشرح للقرية كلها حقيقة جدي الذي يقدسونه ويحتفلون بمولده كل عام.

نهض مستندا إلى عصاته المعدنية ليتقدم نحو "أمجد" ويقول مبتسما:

-هل أخبرت عمتك بالطريقة التي شفيت بها من مرض السرطان؟

اكتفى "أمجد" بالصمت والشيخ يكمل:

أنت لم تخبر سوى ابنتها، لأنك تخشى عليها من مواجهة الحقيقة، فكيف سيمكنك أن تشرح الحقيقة للقرية كلها؟

هل تتصور إنهم سيصدقونك؟

هل تعتقد أن حياتهم ستصبح أفضل بعد أن تحرمهم من الطاقة الروحانية التي ينالوها مجانا كلما ذهبوا إلى المقام ليبلغوه بمطاليهم، وكلما جلسوا ليستمعون إلى الإنشاد وحلقات الذكر فتدمع عيونهم من خشية الله؟

هز رأسه بغير اقتناع والشيخ يتابع:

- قم بنزع الروحانيات من حياة البسطاء وملح الأرض وستحول حياتهم إلى جحيم يا بني، أترك لهم سيدنا بالصورة التي يحبونها، أترك لهم "أبا الكرامات".

***

كان القدر يرتب لك منذ البداية مسارا محتوما لخطواتك، وكعادة البشر الأزلية تحركت محاولا أن تحيد عن هذا المسار بدون أن تعلم أنك قمت باختيار طريقا مختصرا سيصل بك إلى نفس النهاية.

29 – قصر علوان الكبير

1 ديسمبر 2005

الثانية بعد منتصف الليل

توقف "أمجد" بسيارته في مكانها المعتاد بحديقة القصر، وجلس في صمت تام يتطلع إليه، تأملت "سلوى" ملامحه التي غلفها الظلام قبل أن تقول في صوت خافت:

- تحدث يا "أمجد".. تحدث بالله عليك، أريد أن تطمئنني بحديثك، فأنا في أمس الحاجة إليك تلك الأيام.

دار ببصره ليتطلع إليها أثناء جلوسها في هشاشة إلى جواره، وتناول منديلا ورقيا من جيبه ليجفف عينيها ويقول في حنان:

- لقد بدأنا الطريق معا يا "سلوى" وسننهيه معا.

قال عبارته ليصمت قليلا قبل أن يحسم أمره ليقول:

- أنا أحبك يا ابنة عمتي، هل تقبلي الزواج مني؟

اتسعت عيناها وبدا السرور على وجهها وزاوية فمها ترتجف فتناول كفها الرقيق ليطبع عليه قبلة ويقول:

- هل تقبليني زوجا لك، أعدك أن أعمل على سعادتك بكل طاقتي، سنتزوج وسأظل أتطلع كل يوم إلى أجمل عينين رأيتهما في حياتي.

نظرت له وأومأت برأسها وابتسامتها تزين شفتيها.

ربت علي كفها ليقول:

- سأطلب عودتي إلى القاهرة غدا وسنتزوج هناك، فلن أستطيع البقاء في هذا القصر أكثر من ذلك.

هبطا من السيارة واتجها نحو القصر وهي تلتصق به قائلة:

- أنا أيضا أريد أن أبتعد عن هذا المكان.. عن "العلوانية" كلها التي أصبحت تثير ذعري.

فتح باب القصر بمفتاحه ليجد قاعة الاستقبال تسبح في الظلام فقالت في دهشة:

- ما هذا الظلام؟ وأين ذهب الجميع؟

اتجه بيده نحو زر الإضاءة وهو يقول:

- عمتي بالتأكيد قد استسلمت للنوم مبكرا لأنك لم تقض الليلة في النميمة معها كالعادة.

ضحكت وهي تقول:

- نميمة.. إننا.. وقطعت عبارتها لتصرخ في رعب وألم

ومع الضوء الذي غمر المكان شاهد "سلوى" بين ذراعي ذلك الملثم الذي عرفه على الفور ومسدسا ضخما مصوبا إلى رأسها، وعلي الأريكة كانت عمته مقيدة وهناك قطعة من اللاصق تغطي فمها لتمنعها إلا من إطلاق همهمات ذعر غير مفهومة، وهناك ثلاثة من الخدم تم تقييدهم أرضا كالذبائح. وعندما دار ببصره شاهد ملثمين آخرين يقفان في طرفي القاعة يصوبان أسلحتهما الآلية إليه.

وسمع صوت الملثم الذي يقيد حركة "سلوى" يقول:

- لقد انتظرناك كثيرا يا حضرة النقيب.

- لقد تغيرت قواعد الدبلوماسية كثيرا في الآونة الأخيرة أليس كذلك؟

- ما الذي تعنيه بقواعد الدبلوماسية؟

أشار "أمجد" إلي عينيه ليقول:

- أنا لا أنسي العيون التي رأيتها من قبل يا سنيور "مانويل".

ضحك الملثم وهو ينزع لثامه ليقول:

- لقد أثمرت الدورة التدريبية التي قضيتها في "إنجلترا" يا كابتن "أمجد"، تحياتي على دقة ملاحظتك.

جلس "أمجد" على أقرب مقعد وجده وابتسم قائلا:

- سينتهي كل شيء بسلام يا "سلوى" اطمئني.

والتفت جهة عمته ليقول محافظا على ابتسامته:

- لا تخشي شيئا يا عمتي.. ثقي بي.

ورفع بصره نحو "مانويل" ليقول:

- دع "سلوى" تنصرف نحو غرفتها الآن وسأعتبر أن ذلك دليلا على رغبتك في العودة إلى مسار التفاوض الأصلي.

هز رأسه ليقول:

- لقد انتهى الوقت المخصص للتفاوض يا "أمجد" ونحن حاليا قد انتقلنا إلى مرحلة العنف والقوة، وسأكرر نفس الطلب، أريد المخطوطات الأصلية التي عثرتم عليها مع "مخطوطات نجع حمادي". وأشار نحوه بفوهة المسدس ليتابع:

- من فضلك التقط مسدسك بسبابتك وإبهامك وادفعه نحوي.

التقط "أمجد" المسدس ودفعه نحوه أرضا فمال ليتناوله ويدسه في نطاقه.

قال "أمجد" في برود:

- وكيف ستفسر السفارة الإيطالية التصرفات الإجرامية التي يقوم بها ملحقها الثقافي؟

ضحك وهو يقول:

- ستنفي السفارة كل إدعاءاتك، وكلمتك ستكون مقابل كلمتها وسيتم حفظ الأمر منعا للتعقيدات الدبلوماسية، هيا حتى لا يحدث ما لا يحمد عقباه ستتحرك الآن وتخرج لنا تلك المخطوطات من مخبأها فلقد قمنا بالتفتيش في المكتبة قبل قدومكما ولم نجد مطلبنا.

نظر إلى عيني "سلوى" الساحرتين وابتسم لها ليطمئنها فبادلته الابتسام في ثقة. فنهض وقال:

- سنتجه إلى غرفة المكتب لأن تلك المخطوطات مختفية داخل خزانة سرية لن تصلوا لمكانها حتى لو قضيتم أعماركم كلها في البحث عنها.

تحركوا معه و"مانويل" يجذب معه "سلوى" والمسلحان الآخران يصوبان مدفعيهما الآليان نحوه، أشار إلى أرفف المكتبة ليقول:

- هناك مجموعة من الكتب يجب أن نقوم بتحريكها من أماكنها لأنها تخفي مقابض سرية مع تحريكها كلها سيتم فتح المخبأ السري للمخطوطات.

تأمل "مانويل" المكتبة و"أمجد" يقول:

- أطلب من رجالك الصعود إلى الأرفف وتحريك الكتب التي سأخبرهم بأرقامها.

تأمله "مانويل" في شك لفترة ثم أشار إليه قائلا:

- اصعد أنت إلى الرفوف وقم بتحريك الكتب.

تحرك أحد المسلحين وفتشه بدقة ليتأكد من أنه لا يحمل أي أسلحة احتياطية.

فجذب السلم النقالي وثبته إلى جوار المكتبة وصعد ومع وصوله إلى أعلى رف في الجهة الشرقية من المكتبة تناول الكتاب الأول وألقاه نحو أحد الرجلين وقبل أن ينجح في التقاطه كان "أمجد" قد التقط مسدسه الاحتياطي من مخبئه في المكتبة ليطلق منه ثلاث طلقات،

أصابت الأولي منتصف رأس الأول والثانية اخترقت عنق الثاني ونظرا للزاوية المعقدة التي أطلق بها الرصاصة الثالثة نحو "مانويل" ليتفادي إصابة "سلوى" أصابت الطلقة كتفه قبل أن يقفز محتميا بأريكة ضخمة وهو يطلق رصاصاته بسخاء تجاه "أمجد" الذي صاح:

- انبطحي أرضا يا حبيبتي.

جاءه صوتها الخافت:

- "أمجد" ..

التفت إليها ليشاهد بقعة الدماء التي أخذت تتسع بموضع بطنها لتسقط أرضا

صرخ باسمها وهو يقفز نحوها ليهزها في جنون وهو يصرخ:

- "سلوى" يجب أن تبقي معي.. "سلوى" سنسافر إلى "القاهرة" وسنتزوج.. أرجوكي يا "سلوى" وقفز يفرغ كل ما تبقى من رصاص مسدسه نحو مخبأ "مانويل" فوجد نفسه يتطلع للفراغ فقد نجح الملعون في الهرب، رفع هاتفه المحمول ليضغط أزرار الإسعاف ويصيح:

- إسعاف بأقصى سرعة.. قصر "علوان"

وسقط على ركبتيه بجوارها في عجز وهو يتأمل بقعة الدماء التي استمرت في الاتساع.

***

ها هم يتطلعون إليك مبتسمين، أنت لا تراهم - وذلك لحسن حظك – ولكنهم أدركوا إنك بدأت طريقك نحوهم، ذلك الطريق الذي لم تتصور أبدا إنك ستخوضه بإرادتك الحرة.

30 - العلوانية

مستشفى قنا الجامعي

1 ديسمبر 2005

السادسة صباحا

الطبيب يخرج من غرفة العمليات ويقترب نحو "أمجد" ووالدة "سلوى" وعدد كبير من الأهالي يقف على رأسهم "فهيم" و"حمزاوي"، يتجه "أمجد" من الطبيب وينفرد به بعيدا عن الجموع ويقول:

- هل نجحتم في انتزاع الرصاصة؟

هز الطبيب رأسه ليقول في خفوت:

- الرصاصة اخترقت جدار البطن واستقرت بالكبد مسببة ضررا كبيرا به، وقد انتزعنا الرصاصة ولكن هناك نزيفا مستمرا لم نستطيع أن نسيطر عليه حتى الآن و...

لم يدعه يكمل عبارته ليقول وقد شعر بقبضة باردة تنتزع قلبه من بين ضلوعه:

- هل هناك أمل في نقلها إلى خارج مصر فأنا أستطيع تدبير طائرة طبية خاصة ونقلها إلى أية دولة.

ربت الطبيب كتفه ليقول في خفوت:

- لن نستطيع أن نخاطر بحركتها فقد يزداد معدل النزيف ونفقدها على الفور.

شعر بالمرئيات تدور من حوله وهو يستند إلى جدار الممر ليقول:

- ما هو الوقت الذي تبقى لها؟

- نحن نحاول تعويض النزيف بنقل المزيد من الدماء ولكن جسدها يفقد الدماء بمعدل أسرع ونتمنى أن نستطيع أن نسيطر على النزيف.

- قلت لك كم تبقى أمامنا؟

- أمامها 48 ساعة على أقصى تقدير.

- أريد أن أراها عن قرب.

قالها واتجه نحو عمته ليعانقها قائلا:

- ستكون بخير يا عمتي، لقد أخبرني الطبيب إنها ستكون بخير.

أمسكت كتفيه لتقول بصوت مختنق بدموعها:

- سأموت لو فقدتها يا "امجد".. سأموت.

- قلت لك ستكون بخير.

قالها وأسرع يتبع الطبيب إلى عنبر غرف العناية المركزة.

تراجع الطبيب ليتركه يتأمل تلك الملاك التي تتسرب الحياة منها بالتدريج.

اقترب منها وهمس في أذنها:

- أنا السبب يا حبيبتي.. لقد أخطأت زاوية الإطلاق للمرة الأولي.

قالها لينفجر باكيا وهو يمسك بكفها الدقيقة الأصابع.

تأمل ملامحها الرقيقة قبل أن يقطب حاجبيه وبدا عليه إنه يخوض صراعا قويا قبل أن يحسم أمره وترتسم تلك النظرة الجامدة في عينيه، تطلع إلى السماء عبر النافذة ليهمس:

- يا الله.

قالها وأخرج منديلا ورقيا من جيبه ويلمس به الضمادات الملوثة بالدماء التي تحيط بخصرها وأودع المنديل جيبه ليخرج في ثبات ويتوقف بجوار نافذة بالممر وأخرج هاتفه المحمول وضغط رقم اتصال سريع ليقول في ثبات:

- أريد خدمة أخيرة سيدي القائد.. أريد من أجهزتنا الأمنية أن تتبع المكالمات الصادرة والواردة إلى السفارة الإيطالية لأنني أريد تحديد مكان الملحق الثقافي الإيطالي قبل أن ينجح في مغادرة أرض الوطن.

***

إنه ذلك النداء الذي انطلق منذ عشرات السنوات، إنه القدر الذي اختارك من بين الملايين لتحمل تلك الأمانة المخيفة، فخصمك لاعب شطرنج فائق المهارة يدفعك لتتحرك في المسار الذي يريده تماما ولا تملك إلا أن تتبع إرادته.

31- العلوانية

المعمل

على بعد 10 أمتار أسفل قصر "علوان"

ساعدني الشيخ "حمزاوي" في كتابة الشفرة الرقمية المكافئة لشخصية "سلوى" علي المساحة المخصصة لذلك علي سطح الدائرة الذهبية، كانت عينه الدم التي أخذتها بواسطة منديلي الورقي كافية لوضع "أثر" حبيبتي المسكينة وسط الرموز على سطح الدائرة، كان الشيخ منتعشا وبدأ يتحرك بدون استخدام عصاته المعدنية وبدا وكأنه قد عاد إلى الخمسينيات من عمره، كنت أعرف إنه كان يجلس بجوار المقام المزعوم قرابة الأربعين عاما من أجل تلك اللحظة بالذات.

الحفيد القادم من القاهرة كالأبله تقوده قوى ظلامية ليسير في ذلك الدرب الشيطاني الذي بدأه جده، ذلك الإرث الملعون الذي كان يجب أن يحمله أحد ورثة الدم لكي تخرج تلك العلوم الشيطانية إلى الوجود مرة أخرى.

والعجيب في الأمر أن الذي جاء إلي مصر لكي تختفي المخطوطات إلى الأبد هو الذي تسبب في القرار الذي اتخذته بإعادة التجربة مرة أخرى، "سلوى" تحتضر بسبب هذا المرتزق الحقير الذي تسبب في كل ذلك.

"حمزاوي" بدأ في قراءة عزيمة الاستحضار بصوت ثابت تبينت فيه الشغف والسعادة، وقمت بمساعدته برصد أماكن القمر و"المريخ"

و"عطارد" وضبطنا زواية استقرار الدائرتين، قبل أن أشعل موقد بنزن رمز عنصر النار وأضغط زر تشغيل المروحة رمز عنصر الهواء.

اتجهت نحو الدائرة الرصاصية الإطار حيث قيدت "مانويل" فى وضع المصلوب، كان وجهه مغطى بالكدمات والدماء الجافة ولم يعد يستر جسده القوي البنية سوى سروال قصير، كان يتطلع إلى السيرك المنصوب حوله في جزع وقد بدا على ملامحه الفهم، عيناه تعكس نفس نظرة الفأر المحاصر الذي يرى القط واقفا عند رأسه وهو عاجز تماما عن الهرب، كان يحاول أن يتحدث ولكن قطعة القماش التي كممت فمه بها كانت تمنعه إلا من إطلاق همهمات مكتومة، رفعت الكمامة عن فمه فأطلق صرخة غضب وصاح في غل:

- لقد اختطفت ملحقا دبلوماسيا وهي جريمة ستظل تطاردك طيلة حياتك.

صفعته صفعتين تردد صداهم في المعمل كله فأغلق عينيه في ألم وقد سالت خيوط من الدم من جانب فمه، كاد أن يطلق صيحة أخرى فرفعت كفي مهددا بمواصلة صفعه ليلزم الصمت وأنفاسه تتردد داخل صدره بسرعة مرجل بخاري وقلت في بغض:

- هل ترى تفاصيل هذا المعمل؟ لقد عزمت على دفنه إلى الأبد وكنت سأسافر إلى القاهرة لأترك كل هذا خلفي تحت الأرض قبل أن تتدخل أنت وتصيب "سلوى" برصاصتك.

صمت قليلا لأستجمع العبارات المناسبة وأنا أقول:

- منذ ساعات كنت ألوم جدي على قراراته بالتحكم في حياة البشر ولكنك الآن قد تكون الاستثناء الذي يؤكد القاعدة، تستحق ما سيحدث تماما لأننا هنا نطبق قاعدة (العين بالعين والسن بالسن والبادي أظلم).

كنت أتطلع إلى الشيخ في قلق فابتسم ليطمئنني. أشرت إلى "مانويل" لأقول:

- ستشعر بألم رهيب قبل أن تموت كالخنزير، وستنزف دمك ببطء قطرة قطرة وسأستمتع بذلك كثيرا.

كنت أشعر بنيران تستعر في أعماقي ومنعت نفسي بالكاد من أن أمزق لحمه تمزيقا جزاء لما فعله.

كانت نظراته إلينا في أمل تختلط باليأس لأنه لم يصدق حتى الآن أن ما أقوله يمكن أن يتحقق في الواقع، كنت أتطلع إلى الساعة الرقمية أمامي في قلق قبل أن أتذكر شيئا فالتفت إلى الشيخ "حمزاوي" لأقول:

- لقد حرص جدي في الرؤيا الأخيرة على أن يجعلني أعرف من الذي قتله، إنه ذلك الحقير "فودة" الذي نجح في التسلل إلى المعمل القديم وقتل درع جدي وحرق المعمل.

رأيت نظرة بغض في عيني "حمزاوي" الذي قال في غضب:

- لن ينجو بفعلته يا بني، اعتبره منذ الآن في عداد الأموات.

واصلت مراقبة أرقام الساعة في قلق وعندما بدأ اليأس يتسرب إلى قلبي سمعت صرخته، بدأ يصرخ كأن هناك كيانا خفيا ينتزع قلبه من صدره وهو ينتفض قبل أن تتفجر الدماء من ثقب بموضع الكبد من جذعه

الدماء تتفجر أكثر

يصرخ

عيناه تزوغ من شدة الألم

البول يغرق سرواله بعدما فقد التحكم في مثانته

ينتفض في قوة

الدماء تتدفق من فمه لتغرق صدره

ينظر نحوي في استعطاف والذل يكسو ملامحه

يموت بالسرعة البطيئة

ينتهي كل شيء.

تركت الأمر كله لـ"حمزاوي" لينهيه بطريقته، وصعدت لأقود سيارتي نحو المستشفى متجاوزا كل قواعد المرور وكل الإشارات.

دقات قلبي ترتفع حتى سمعتها كصوت الطبول في أذني.

صعدت الدرج عدوا قبل أن أقتحم غرفتها بقسم العناية المركزة لأجد طاقم كامل من الأطباء يتطلعون إلى جسدها وجرح جذعها الذي كاد أن يندمل، شاهدتها تبكي وعمتي تحتضنها وتشاركها البكاء في غير تصديق.

التقت عيوننا فهمست:

- لقد فعلتها من أجلى يا "أمجد".. لماذا.. لماذا يا "أمجد"؟

عادت للبكاء وابتسامتي تتسع وأنا أشاهد ذهول الأطباء قبل أن يهتف أحدهم في خشوع:

- الفتاة حفيدة مولانا "علوان".. لقد التأم جرحها ببركة مولانا.. لقد حدثت المعجزة.

ورفع أحد المرضين وجهه نحو السماء ليهتف بصوت مرتفع:

- مدد يا سيدنا "علوان".. مدد يا "أبا الكرامات".. مداااااااد.

***

للخير دروب منيرة لا يمكن لأصحاب النفوس السوية أن يتوهوا عنها، وللشر سبل مظلمة يكللها ليل بلا نجوم، ولا يمكن للأخيار أن يدخلوا الدروب المظلمة دون أن يتسلل الشر إلى نفوسهم.

32– قنا

جبل الطارف

مغارة في قلب مدق جبلي

نشاهد الآن تلك المغارة التي أضاء مدخلها مشعلان مثبتان على جانبيه، وبالداخل جلس "فودة الديناري" في مركز تلك الدائرة المنحوتة في صخر الأرضية وقد أحاط محيطها الذي امتلأ بالدم بمئات من الطلاسم الدقيقة التي نقشها في صبر وروية.

"مانويل" اختفى منذ أسبوعين ولم يستطع أن يعرف هل نجح في مهمته وعثر على المخطوطات أم لا.

ليست هذه هي قضيته الآن، ما يشغله الآن هو أمر لم يمر به منذ تلقى العهد عن والده هنا وفي نفس المغارة منذ ما يقرب من الخمسة والخمسين عاما، بدأ الأمر منذ أسبوع بفقدانه الارتباط مع عدد من خدمه من الشياطين، كاد أن يجن ودخل في خلوة وبدأ في قراءة تعاويذه القوية محاولا أن يستعيد سيطرته علي الخدم المسخرين له حسب بنود العقد الملعون بينه وبينهم.

استمر الأمر حتى فقد السيطرة على كل ما يملك من الخدم، أصبح عاريا وبلا دروع لأول مرة في حياته، وكل ما وصل إليه هو أن الجانب الآخر لديه تعليمات مشددة بعدم الإدلاء بأية معلومات عما يحدث، هناك قوة سوداء رهيبة استطاعت أن تتبع كل خدمه لتقتلهم شر قتله، الآن فقط يدرك أن عدوه مخيفا بما لا يقاس.

والمثير للسخرية إنه بدأ هنا وها هو يختبئ هنا بعد كل تلك السنوات محاولا أن يفر من عدوه الخرافي محاطا بتلك الطلاسم التي رسمها على الأرض على محيط الدائرة التي جلس في مركزها.

كان يقضي حاجته في دلو بجواره خشية أن يغادر الدائرة فيظهر عاريا أمام عدوه الذي ما زال يجهله.

منذ أسبوع كامل وهو ينام ويأكل ويشرب داخل حدود تلك الدائرة التي لقى والده مصرعه داخلها، تلك الدائرة التي استقبلت دم طفل صغير بريء منذ عشرات السنين.

وفي تلك الليلة بدأ الأمر بصوت ترانيم أتت إلى مسامعه قادمة من مكان بعيد جدا فلم يتبين فحواها، ثم رأى تلك الزوبعة الرملية التي ظهرت فجأة أمام مدخل المغارة، وبدأ يسمع صوت جسم حاد يحتك بالصخور حوله، تلفت حوله في جنون وهو يشاهد اختفاء الطلاسم التي قام برسمها حول محيط الدائرة، وكأن هناك أداة معدنية خفية يحركها ذراع خفي تقوم بإزالة الطلاسم بالتدريج.

وقف مكانه وقد شعر بذعر هائل، وهنا شاهد ذلك الرجل الملثم الذي بدأ يدخل من باب المغارة وهو يقترب منه ببطء شديد.

صاح في غضب:

- من أنت؟ وكيف جئت إلى هنا؟

نزع الرجل اللثام لتظهر ابتسامته الواثقة وملامحه المتغضنة.

فضاقت عينا "فودة" ليهمس:

- الشيخ "حمزاوي"!

اتسعت ابتسامة "حمزاوي" وهو يحرك حبات مسبحته بين أصابعه الرفيعة ليقول:

- لقد قتلنا كل أتباعك الملاعين، وشردنا قبائلهم وأبحنا دمهم لباقي القبائل، وحان الآن وقت تسديدك لكل ديونك ودفعك للثمن.

- تراجع وقد بدا يشعر بإحساس الفأر الحبيس ليقول في قلق:

- أي ثمن؟ وأية ديون؟

هز "حمزاوي" رأسه ليقول في نبرات يغلفها الحزن:

- لقد قتلت مولانا "علوان" واستبحت كل الحرمات واغتصبت وانتهكت أعراض العشرات من الفتيات البريئات، لعنت وحرقت وقتلت العشرات مقابل المال، بل لقد تآمرت مع جهات أجنبية للوصول إلى المجد والثروة.

- لا.. أنا لم أقتل "علوان" يمكنني أن أقسم لك.

- تقسم يا كافر يا عدو الله.

يجب أن تعرف أن لكل شيء نهاية، وكنت أتمنى أن يشهد أحفاد سيدنا "علوان" نهايتك، ولكنهم لن يحتملوا رؤية ما سيحدث لك.

تراجع أكثر وأكثر حتى التصق بجدار المغارة الصخري ليهتف في ذعر وهو يبكي:

- لا يا "حمزاوي" أتوسل إليك.. لقد قررت التوبة علي يديك هنا، أرجوك..

هنا بدأ يشعر بارتفاع طفيف في درجة حرارة الهواء حوله، وبدأت رائحة منفرة تفعم الهواء، نظر إلى الأرض حوله ليشاهد اختفاء كل طلاسم الحماية التي كان قد نحتها وسقاها بالدم.

صاح في هلع:

- شيخ "حمزاوي" لقد كنت دوما أفضل مني، أرجوك لا تنزلق في هذا السبيل الذي سلكته أنا بدون ذنب، لقد قادني والدي إليه بدون إرادتي.. أرجوك.

شاهد "حمزاوي" الذل والدموع في عينيه فابتسم ليهمس بعدة عبارات بدت مبهمة لـ"فودة" الذي شعر بتجسد مهول الحجم وأنفاس كريهة الرائحة على مؤخرة عنقه فصرخ في ذعر:

- لا.. أنا "فودة الديناري" لا يمكنكم أن تفعلوا هذا بي، ألا تعرفون من هو "فودة الديناري"؟

استمر "حمزاوي" في تحريك حبات مسبحته وهو يقول:

- اسلخوا جلده بالكامل وهو على قيد الحياة، قبل أن تشقوا بطنه لتخرجوا أمعاءه ببطء شديد ثم مزقوه إربا قبل أن تحرقوا أشلاءه وتدكوا المغارة لتجعلوها والأرض سواء.

قال عبارته ودار لينصرف و"فودة" يصرخ في هلع:

- لا يا شيخ "حمزاوي".. لا، انقذني يا أبي.

ومع خروج "حمزاوي" من المغارة جاءته أصوات صرخات "فودة" ممزوجة بصوت جلده وهو ينسلخ عن لحمه.

تمت بحمد الله

22 يوليو 2018

الساعة 12.38

للتواصل مع الكاتب

https://www.facebook.com/eslam.m.samir

الصفحة الأدبية

الكاتب / إسلام سمير عبد الرحمن